الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة ابن خلدون –تيارت–
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

الموضوع

الكفاءة القرائية عند سيد قطب
دراسة نماذج من القرآن الكريم

مذكرة مقدمـــة لنيل درجـــة الماجستير
في إطار مشـــروع الدرس الدلالي بين التـــراث والحـــداثة عند العرب

مقدمـــة من طرف: عبـــد العزيـــز دحـــام
إشـــراف: الأستاذ.الدكتور: محمـــد عبـــــاس

أعضاء لجنة المنـــاقشـــة:

– أحمـــد عـــرابي	أستاذ التعليم العـــالي	جامعـــة تيارت	رئـــيسا
– محمـــد عبـــــاس	أستاذ التعليم العـــالي	جامعـــة تلمســـان	مشـــرفا ومقـــررا
– عبـــد الجليل مرتـــاض	أستاذ التعليم العـــالي	جامعـــة تلمســـان	منـــاقشـــا
– عـــوني أحمد محمد	أستاذ محاضر (أ)	جامعـــة تيارت	منـــاقشـــا
– بـــوزيان أحمد	أستاذ محاضر (أ)	جامعـــة تيارت	منـــاقشـــا

السنة الجـــــامعية
1432 هـــ - 1433 هـــ / 2011م - 2012م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الإهــداء

إلـــ والدي ّ الكريمين ـــــ . . .

عبد العزيز

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستهديه ونستغفره ،ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ،من يهد الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لاإله إلا الله ،وحده لاشريك له وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله صلوات الله وسلامه عليه .

أمّا بعد :

فقد امتازت القراءة عند_ سيد قطب_ بالإبداع الذي بلغ غاية التفرُّد في الأداء والهدف، وفي الوسيلة والمنهج، الأمر الذي جعل حضوره علامة مميزةً في هذا العصر الذي نُعايشه ، وقامت المقاربة الفنيّة عنده على تفاعل الذّات مع النصّ القرآني، فانبثقت الرّؤى والتّصورات من هذا التّمازج ،لتؤصِّل للقراءة في كلِ جزءٍ من جزئياتها.

واكتسبت قراءة _ سيد_ شرعيتها وتأثيرها، كونها ذات ضابط موضوعي يتمثل في المنقول الذي يحوى رصيد التجربة الذي خلّفه لنا الجيل الأول؛ جيل القرآن الصّورة التطبيقية المثلى، والنّموذج الذي يجب أن يُحتذى، وكذلك تمثّل في الخضوع لمقاييس الوعي والثّقافة، والقدرة الفنية التي لا تغفل روح العصر.

وهذه القراءه جادّة، ترى أنّ أمر الدّلالة بالنسبة للنص القرآني بات محسومًا، فالدّلالة فيه تنهض على القصد، والمعرفة ترتبط بالعمل، ضمن ﴿**آمَنَّا بِهِ كُلٌ مِنْ عِنْدِ رَبّنَا**﴾[1] الذي يؤطرّ مرجعية النّص ويفضي إلى التّسليم به، فالحقائق ثابتة ونهائية في القرآن الكريم لا تتعدّد،ومن ثم لا مجال للقراءات التي استقام لديها البحث العبثي وراء اللاّتحديدات الدّلالية ، فتشوّش على القراءة الحقّة بِطمسها جوهر الدّلالة الحقيقي، قارنةً بذلك بين سوء النيّة وسوء الفهم.

وهي قراءة صادقة، نلمس فيها الصّدق الأخلاقي إلى جانب الصّدق الفنّي، ونلحظ فيها قوّة الكلمة ومقدارها، لأن الكلمة عنده مسؤولةٌ، وأمانه، فكانت تنبعث من بعيد، من روحه، من إيمانه الكبير وثقته في الله، ونقرأ من خلالها ميزان الرجولة وعظمة الرجل، ولذلك كانت حياته ثمنًا لقراءته التي لازلت تأبى الانحناء، ولا أدلّ على ذلك من أنّ السّاحة بعد الظلال خِلوٌ من أيّة قراءة مبدعةٍ،

(1)- سورة آل عمران. من الآية:7

وكل محاولةٍ نقديةٍ : أدبيةٍ أو في الدّراسات القرآنية المعاصـرة، لا زالت تهتدي بانجازات رائد الفكر المعاصر : سيد قطب.

وهي قراءة واقعية ؛لأنّنا نجد فيها الإصرا ر على تحويل الكلمة إلى حقيقة،تدبّ فيها الحياة ويسري من خلالها روح الإبداع ، ولا تنتهي عند حدود التّثقيف ، ونعثر فيها على المقاومة في تحويل القراءة إلى مشروع قائم بذاته،خصوصا أنها قراءة ترتبط بالقرآن الكريم .

وككُلّ قراءة جديدة وفاعلة من حقّها أن تُسائل النّص تبعًا لظروف الزمن، وتضيف إلى القراءات السّابقة الدّلالات التي تتجاوز حدود الدّلالة اللغوية، ومن خلالها نلاحظ الكفاءة القرائية التي اِضطلع بها الرجل، لا على مستوى هضم القديم وعرضه في أبهى صوّره فحسب، ولكن في الجديد الذي أضافه تنظيرًا وتطبيقًا، فأغرى القارئ وأثرى به عالم القراءة .

ومن هنا جاء تعلّقي بالقراءة التي أنجزها- سيد قطب- لأتعرف على الجوانب التي أبدع فيها، وأفردته بين القراءات الأخرى، كما أتعرّف على تلك الروح العملاقة التي كان يكتب بها ويأخذ بها القارئ نحو القرآن في بساطة كلها ثقة وثبات،ومن عجب أنّ استمرار هذه القراءة في وجداننا وهيمنتها على تصوّراتنا، لازالت هي شهادةُ المنصفين.

ويقع البحث في : مدخل وثلاثة فصول وخاتمه.

المدخل: ويرصد فيه البحث: علاقة سيد قطب بالقرآن، تلك العلاقة التي نحسّ صدقها وحرارتها ، وهي علاقة نُشّيء عليها منذ نعومة أظفاره، واستمرّت معه حتى ولّدت ذلك التّعامل الإيماني مع القرآن، والذي فجّر فيه طاقاته المذخورة، وأكسبه حصانة فكرية وروحيةً وبصرًا بأمور الدنيا والآخرة، كما نكتشف من خلال تلك العلاقة ، أنّ الرّجل قد صاغه القرآن صيّاغة فريدة قلّ أن تجد لها نظيرا.

وأمَّا **الفصل الأوّل:** فهو بعنوان القراءة الفنيّة والجماليّة ،ويتكون من ثلاثة مباحث: أوّلها القرآن والفن ،وقد رأى البحث فيه أن القرآن باعتباره منهج حياة لا يضيق بالفن أو يعاديه بل يرشده، ويوسّع مجالاته، فبالإضافة إلى جمال الكتاب المقروء (القرآن) يوجّهه إلى تملّى الجـمال فـي الكتاب

المفتوح (الكون)، ويصل الأمر أن يستعمله في تبليغ أغراضه إلى الوجدان، حيث يلتقي الفن بالقرآن في قراره النّفس وعالم الضّمير، ويُعتبر هذا الإدراك للعلاقة بين القرآن والفن حجر الزاوية، الذي استند إليه المؤلّف في القراءة الجمالية للقرآن الكريم،وكان فهمه لهذه العلاقة واضحا منذ البداية،و لم يكن غائمًا لديه أو مثار شكّ، وقد تعرّض هذا الفهم لهزاتٍ عنيفةٍ من النقد، ولولا أنّه من الرسوخ واليقين بمكان عنده، لأصيبت مقاتله، وانمحى أثره.

وكان لزامًا في المبحث الثاني: بين اللّغة والمشهد، أن ينصرف البحث إلى هذا الجانب لاكتشاف القراءة المشهدية، والتي كانت قبل سيد قطب أماني مبهمة، لأنها لم تعثر على الأدوات، مُضيفًا إلى الدرس الدلالي فكرة الصُوّر والظلال التي تشعُّها الألفاظ، فأصبحت القراءة بفضل هذه الإشعاعات، تزاوج بين العناصر اللغوية والعناصر التصويرية، و لم تقفز على مصطلحات النحو والبلاغة كما يُتَوهّم، وإنما كانت الأدوات القرائية جميعها عنده وسائل وليست غايةً استعملها بالقدر المناسب الذي لا تطغى فيه الوسيلة على الهدف، ولا الهدف يُهمل الوسيلة الناجعة، فيعفّي على الظفر بالدلالة، ويخرج عن جوّ النصّ القرآني والعيش فيه إلى استطرادات تبعده عن المعنى المراد.

وفي المبحث الثالث : من آفاق التّصوير، اِنصرف البحث إلى إبراز قاعدتين من قواعد التّصوير وهما:الحياة الشّاخصة والحركة المتجدّدة، داخل أفقين من آفاق التّصوير، وهما: مشاهد اليوم الآخر في القرآن الكريم ومشاهد الطبيعة في القرآن الكريم، ولمسنا كيف طبّق المؤلّف نظريّة التّصوير الفنّي فيهما، باكتشافه أسلوب القرآن المفضّل "التصوير بالتعبير"الذي يسحر المؤمنين والكافرين ويعجزهم جميعًا، حيث تقوم اللّغة فيه بتقديم مشاهد حيّة ذات عناصر لغوية جديدة، مبرزة قيمة الصورة بما تستأثر به من حياةٍ وحركةٍ ، وكل مباحث الفصل تدور حول ذلك التّمازج بين العقيدة والجمال والذي ينهض به التّعبير بالتّصوير

وأمّا **الفصل الثاني**: فهو بعنوان، القراءة الفكرية الحركية، ويرتكز على مبحثين وهما:من مقاصد القرآن الكريم، والنّظرة الكلّية للقرآن الكريم، واهتمّ المبحث الأول ببيان حقيقة العقيدة والتّربية عليها، وهذا المقصد الأساس هو الذي لأجله قامت السّماوات والأرض وأخذ الله العهد من بني آدم عليه ، وبُعثت الرُّسل لتبليغه، ونزل لأجله القرآن، وظهر مترجمًا في جيل الصّحابة عليهم

الرّضوان، كما اهتم المبحث بقراءة المؤلّف للسّنن الربّانية التي تحكم سير الأفراد والجماعات، وبّين أن لا مخلوق خارجٌ عن القانون في هذا الكون الواسع الذي لا يعلمه إلاّ الله ،وأنّ السّنن الـربّانية كما تضبط الكون، تضبط حياة البشر، ولا تحابي أحدًا ولو كان من ذوي الأصفيّاء المقرّبين، وكانت قراءة السّنن الربّانية التي قدّمها لا تتعلّق بالتّاريخ بقدر ما تُعرّج على الواقع المعاصر.

وفي المبحث الثّاني، ارتهن الكلام فيه برؤية ـ سيد قطب ـ وإيمانه العميق ونظرته الشمولية للقرآن الكريم، وهي نظرة كلّية استقامت عليها كل الدّلائل فيما بعد، حيث استطاع أن يقدّم لنا الوحدة الموضوعية في السّورة، والسّوريتن ، وفي مجموعة من السّور، وفي القرآن كلّه ،وبلغ في هذا الجانب مبلغًا إيمانيا عظيمًا وهو يحدّثنا عن علاقته بكل سورةٍ، وبما فتح الله عليه من أسرارها، كما سار البحث في شِقّه الثاني مبيّنا طريقة ـسيدـ في دفع التّعارض الموهُوم بالحجج الدّامغة التي تُقنع من غَمُضَ عليه المعنى المراد، وتفحُم خصوم الدّين المتشكّكين.

والقراءة في الفصل الثّاني وإن كانت تتعلّق بتوكيز القرآن على الجانب التّربوي والدّعوي، في بناء الشّخصية المُسلمة، وتصحيح العقيدة بإبراز التّصوّر الإسلامي الشامل للكون والإنسان والحياة؛فهي ذات طعم خاص، ليست فهُوماً وتصوّرات تدور في الأذهان أو رؤىً تبقى حبيسة الأدراج،بل أراد لها صاحبها أن تنزل من برجها ، وتأخذ سبيل الإخلاص والصّدق و العمل والحركة، فالقراءة هنا لا تلبس حِيلَة يعمد إليها الكاتب في عرض بضاعته، أوحِلْية يتزيّا بها زمناً ليحقّق مأربا قريبا،أو ليشتري عرضاً تافهاً.

كلا !! القراءة هنا همّ يحمله صاحبه ، ومشروع يرتجي تحقيقه على الدّوام، مشروع يستند إلى عمل القرن الأوّل الإسلامي في كلّ ما يصبوا إليه، ف ليس من منهج الإسلام تخزين المعلومات في الرؤوس وتجميدها، وإنّما المنهج الصّحيح هو المعرفة للعمل، ولذلك كشف البحث هنا عن جانب من القراءة له ثقله المنهجي وأدواته المعرفية، وأسفر عن وجه الكفاءة القرائية لدى سيد قطب بجلاء.

وأما **الفصل الثالث:** فهو بعنوان القراءة الإعجازية،ويتكون من مبحثين:الإعجاز البياني وألوانٌ أخرى من الإعجاز، وقد جرى الحديث في المبحث الأول حول الإعجاز البياني المتحدّى به، وأنّ سيدًا قد تكلم عن الإعجاز الفني بصورة خاصة وبإسهاب كبير كتتويج وثمرة للقراءة الجمالية، ومن

وجوه الإعجاز البياني الذي تطرق إليه البحث،التشابه والتنويع الذي عرف بظاهرة التّكرار في القرآن. وقد بين البحث أن لا تكرار في القرآن وإنّما هو التّشابه والتّنويع في طريقة العرض والموضوع.

كما تطّرق البحث إلى ضرب آخر من الإعجاز:الإعجاز في الأداء، وقد أشار المؤلّف إلى ثلاثة جوانب منه وهي الدقّة المعجزة في الأداء والتّناسق الفنيّ في التّعبير، وتنوّع مدلولات النّص القرآني وتناسقها، واستحياء المشاهد واستحضارها، وقد تناول البحث الجزء الأخير، بإيراد أمثلة تطبيقية، تكشف عن مقدرة الرجل الفنيّة وباعه الطّويل في الغوص على مكنونات النّص واستخراجها، كما لم يفت البحث أن يذكر رجلاً آخر هو: "الدكتور محمد عبدالله درّاز" فقد ضرب بسهم وافرٍ في الكشف عن الإعجاز، خصوصاً إعجاز الأداء القرآني.

ولأنّ ـسيد قطبـ يرى بأنّ الإعجاز في القرآن كالأعجاز في الخلق سيّان، فإن في الظلال أنواعاً أُخرى من الإعجاز، اخترنا منها الإعجاز التربوي، والإعجاز التشريعي، حيث أشار البحث إلى تركيز المؤلّف على الإعجاز التّربوي المتمثّل في جيل الصحابة، الذي خرج من بين دَفَّتَي المصحف، وشهادة المولى عزّ وجلّ له بالخيريّة.

كما بيّن البحث ثمرة الإعجاز التّشريعي حين تستظِلّ البشرية بظلال الشّريعة الربّانية حيث تجد السّعادة والأمن والطمأنينة، ويعمّ الصّلاحُ الأرض، وهو بخلاف ما يظهر من نكودٍ وإفلاس في القيم وفسادٍ في الأرض كبيرٍ، حين تعيش في غير ظلّ الشّريعة الربّانية.

وانتهى البحث **بخاتمة** أشار فيها إلى النتائج المتوخّاة منه، دون الادّعاء أنه قد أتى على كل ما يمكن أن يُقال، كما اعتمد البحث في جلّ مراحله الوصف وإن جنح أحيانًا إلى المقارنة فلِاستيضاح الخصائص والميزات التي تُفرد القراءة التي قدّمها سيد قطب.

ولئن كانت القراءة الفنّية الجمالية تتمحور حول ذلك السّحر الموجود في التّعبير بالتّصوير في القرآن، والذي أسر الكاتب ، فالتمسه ، فعثر عليه بفضل من الله، فإنّ القراءتين :الفكريّة والإعجازية يجمعهما هدف واحد ؛ وهو توضيح مفهوم عقيدة لاإله إلاالله،الذي انحسر عمّا كان عليه سابقاً، ومن ثمّ أولاه المؤلّف اهتماماً ضخماً ، بلغ منه أن أصبح سمةً تفرّد به تفسيره،ووصفاً لزم المفسّر دون غيره ، وأيّ شرف ذلك كان !!.

و لم يكن في ذلك التّعريف بحقيقة لاإله إلاّ الله،وإعادة تصحيح ما يقتضيه مفهومها من توضيح وبيان، استصداراً ـ للحكم بالإسلام أو خارجه ـ على أحد كائل من كان ، أوعلي جماعة بعينها، بـــل كان شرحاً وبيانا لمعنى هذه العقيدة فقط،الّتي تغشّاها ما تغشّاها بفعل عوامل شتّ، كالجهل والتّواكل والسّلبية، وكالفكر الإرجائي والصّوفي،والأفكار الهدّامة الجديدة ، التي لعبت دوراً بارزاً في زحزحة الإسلام عن قيّادة الحياة، فكانت القراءة التي قدّمها تصحيحاً : لمفهوم لاإله إلاّ الله ، وإزالة ما علِق بها من لبس ، وإحياء لما اندرس من جوهرها الحقيقي .

وهذه القراءات الثلاث، الجمالية، والفكرية، والإعجازية، لم تكن إلا قراءة واحدة في مجموعها خاصّة في تفسيره « في ظلال القرآن»، وما هذا التّقسيم للقراءة حسب الفصول إلا ما اقتضاه شكل البحث وأملته طبيعة الدّراسة، وإنما كان في غالب الأحيان يطلُّ على النّص القرآني من هذه الجوانب الثّلاثة دفعةً واحدةً ويباشره بالبحث والبيان.

ولِدَسَامَةِ ما يتعلّق بالعطاء الثّرّ ـ لسيد قطب ـ عمومًا، فللرجل له قدمٌ راسخةٌ في تصويب الفكر الإسلامي، وصاحب رؤية نقديّة، ومدرسةٍ في التّفسير، فإنّ اهتمام الدّراسات بإنتاجه كثيرٌ جدّا لعلّ في مقدمتها الدّراسات الرّائدة التي قدمها الدّكتور "صلاح عبد الفتّاح الخالدي" حوله والتي رافقتنا في هذا البحث،بالإضافة إلى كتب المؤلّف جميعها، وكتب أخيه الأستاذ محمد قطب، بل وكلّ كتاب ورد ذكره في البحث، إلا ولصاحبه علينا يدٌ، وفي رقبتنا دين نسأل الله أن يجزيه خير الجزاء.

وأخيرا أقدّم شكري الخاص إلى أستاذي الفاضل: الدّكتور محمد عباس الذي تفضّل بقراءة هذا البحث، ولكُل يدٍ ساعدت من قريب أو من بعيدٍ: الشّكر الجزيل.

وصلّ اللّهم على محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا، والحمد لله ربّ العالمين .

الطالب: عبد العزيز دحام .

تيارت يوم: 24 جمادى الأولى 1433هـ.

الموافق لـ 16 أفريل 2012م.

حينما نتكلّم عن تعامل سيد قطب مع القرآن الكريم، فانّا واجدون أنفسنا أمام تجربةٍ فذَّةٍ ورائدة، لم يُسبق لها أن وُجدت في حركة التّفسير، رغم ضخامة هذا العلم الذي يزيد عمره عن عشرة قرون، وهذه التّجربة النّاضجة ليست مُثُلا تظهر وتخُنسُ دون رجوع، تَخَايلت لصاحبها بين الفترة والأخرى، ولاهي قوالب جافّةٍ أوتجريدية اِنقدحت في ذهنه واستقرّت، ومالها إلى التّطبيق من سبيل !! إنّها ليست هذه ولا تلك.

إنّها التّجربة الّتي وصفها ـ محمد قطب ـ معبرًا عن صاحبها في تقديم الظلال « الكتاب الذي عَاشَه صاحبه بروحه وفكره وشعوره وكيَّانه كلِّه، وعاشه لحظةً لحظةً، وفكرةً فكرةً ولفظةً لفظةً وأودعه خُلاصة تجربته الحيّة في عالم الإيمان...» [1] ؛ تجربة حَقيقيّةٌ مُعاشة تجمع بين الواقع والمثال، وبين المعرفة والعمل في وضوحٍ ويُسر عجيبين، انبثقت من علاقته بالقرآن الكريم .

ولإدراك هذا الأمر لابدّ من الرُّجوع إلى أيّامه الأولى، لنمسك برأس الخيط الذي يؤسِّس لهذه الصُّحبة، حيث نجد أنّ هذه الصِّلة بين – سيد – والقرآن غَرسٌ رعاه وتعهّده أبواه فأضحى مع الأيام سلطاناً مبيناً على قلبه، كان من ثماره أن أهدى لامِّه باكورته الأولى " التصوير الفني في القرآن " في كلماتٍ كلّها شجىً وندىً وإحساناً «ولقد رحلت عنا ـ ياأماه ـ وآخر صُوَّرك الشَّاخِصة في خيالي جلستك في الدَّار أمام المذياع،تستمعين للتّرتيل الجميل، ويبدو في قسمات وجهك النّبيل أنّك تدركين بقلبك الكبير وحِسّك البصير مراميه وخفاياه ، فإليك يا أمَّاه ثمرة توجيهك الطَّويل، لطفلك الصغير ولفتاك الكبير، ولئن قد فاته جمال الترتيل فعسى ألا يكون قد فاته جمال التأويل والله يرعاك عنده ويرعاه » .[2]

كلماتٌ كلّها اعتراف ومحبّة، وعربون وفاء لأمٍّ ذاتُ توجيه كبير ،كما أنّ خُلل هذه الكلمات وميض إرادة طموحة، تزحزح الجبال، وعـــزيمةٌ صُلبةٌ تفلّ الحديد في "عسى ألاّ يكون قد فاته جمال التأويل"، وكأنّ الرّجل قد تهيّأ لهذا الأمر العظيم ،و أخذ على عاتقه أن يبرز الجانب الجمالي في القرآن الكريم، الّذي رآه يحتاج إلى مزيد من البيان.

---

[1] ـ **من** كلمة التّقديم. في ظلال القرآن.سيد قطب.دار الشروق، القاهرة، ط 16؛ ج1، 1410هـ 1990م، (د، ترقيم)

[2] ـ التّصوير الفني في القرآن.سيد قطب.دار الشروق، القاهرة ، ط 17 ؛ 2004 م، ص:7 .

وكان الكتاب الثاني "مشاهد القيامة في القرآن" وكان الإهداء «ثم أبوك»[1] وفيه: «إلى روحك يا أبي أتوجّه بهذا العمل ... و إنّ صورتك المطبوعة في مخيلتي ونحن نفرغ كل مساءٍ، من طعام العشاء، فنقرأ الفاتحة ونتوجّه بها إلى روح أبويك في الدَّار الآخرة، ونحن أطفالك الصغار نتمتم مثلك بآياتٍ منها متفرقات، قبل أن نُجيد حفظها كاملات! .»[2]،مشروع قائم على القرآن في بيت يحب القرآن، وجوٍّ يغشاه حب الله والخشية منه والتقرب إليه .

وقد بين لنا سيد سرّ الرابطة التي كانت تربطه بالقرآن ؛ وهي صُوّره التي كانت تجذِبه جذبا فيظل خياله يلاحقها ولا يني عن المتابعة ،بقوله «لقد كان خيالي الساذج يُجسم لي بعض الصوّر من خلال تعبير القرآن، وإنها لصورٌ ساذجةٌ ولكنها تُشوِّقُ نفسي وتُلذّذ حِسِّي، وأظل فترةً غير قصيرةٍ، أتملاَّها، وأنا بها فرِحٌ و لها نَشيط»[3]

كما أشار إلى بعض الصوَّرِ التي كانت تُلح عليه باستمرار ، فيشتاق إلى قراءة القرآن لأجلها، كصورة الذي يعبد الله على حرف ،في قوله تعالى : ﴿**وَمِنَ النّاسِ مَن يَعْبُدُ اللّهَ عَلَىَ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَة انْقَلَبَ عَلَىَ وَجْهِهِ** ... ﴾[4] أو كصورة الذي انسلخ من الآيات ومُسخ كلباً يلهث، في قوله تعالى : ﴿... **فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث**...﴾[5] .

لكن تلك اللّذة التي كان يجدها في القرآن افتقدها في مرحلة الشباب ، فراح يبحث عنها مستعيناً بالتّفسير يقرؤُه، ويسمعُه من الأساتذة ولكن دون جدوى، ومن ثم را وده الشكّ في طريقة التّفسير المتّبعة التي لم تُعطه ذلك القرآن اللّذيذ الجميل ؛ "قرآن الصّبا " فأقبل على القرآن من جديد بقوله: «وعدت إلى القرآن أقرؤُه في المصحف لا في كتب التّفسير، وعدت أجدُ قرآني الجميل الحبيب

---

[1] – من حديث «من أحق الناس بحسن صحابتي»، رواه البخاري.رقم: 5971،ص:1101.ومسلم،رقم.2548 ص:989. وفي "فتح الباري شرح صحيح البخاري" العسقلاني ابن حجر العسقلاني.برقم :5626.

[2] – مشاهد القيامة في القرآن الكريم. سيد قطب. دار الشروق، القاهرة، ط11 ؛ 1993م، ص:5.

[3] – التّصوير الفني في القرآن. سيد قطب . ص:7.

[4] – سورة الحج. من الآية : 11.

[5] – سورة الأعراف. من الآية : 176 .

وأجد صوّري المشوقة اللذيذة ، إنها ليست في سذاجتها التي كانت هـــناك، لقد تغـــيَّر فهمي لها فَعُدت الآن أجد مراميها وأغـــراضَها، و أعرف أنها مثلٌ يُضْرَب، لا حادث يقـــع ولكن سحرها ما يزال، وجاذبيتها ما تزال، الحمد لله لقـــد وجدت القرآن»[1]، ونظرًا لتلك الصِّلة العميقة بيـــن سيد والقرآن فان الكلمة الأولى في كتابه التّصوير الفني في القرآن "لقد وجدت القرآن" تُعزِّز هذه الصّلة حتى لكأ نما شيء ضاع منه ثم عثر عليه .

وأثناء تجْلِيتهِ مفهوم الفن الذي كان يـــبدو للنّخبة من النّقدةِ والأدباءِ، أنَّه يتعارضُ مع الدّين، صَدَعَ برأيه قائلاً: «ذلك أنّ دراستي للقرآن، لم يكن فيها ما يُلجئُني إلى هذا الفهم أو هذا التّأويل»[2] فقط ؛ إنها الصلة التي نَبَتَتْ في الصِّغر مع القرآن الكريم نمت وترعرعت وآتت أكلها في الكبر.

عاد سيد قطب إلى القرآن ليعكُف عليه من جديد قراءةً وتدبراً، خاصة بعدما فتح الله عليه باكتشاف الأداة المفضّلةِ في التعبير القرآني :" التصوير الفني "عاد ليستمع إلى القرآن، لا بوجدانه فحسب كما هو الحالُ في مبتد إ دراسته الفنية، ولا بعقله وحده كما يظهر أحيانا إزاء القضايا التي تتطلب العقل وعمق التحليل، ولكنه عاد ليستمع إلى القرآن بكل كيانه، عـــقله ووجدانه و جوارحه وروحه، وكل ذرة من جميع ذَرّاتِ نفسه، وقد مثّل هذا التوجّه نقطة الانعطاف في حركة التفسير، ومعلمًا فاصلاً في تاريخ الفكر الإسلامي ،وأعظم من ذلك كلّه مثّل العلاقة التي ينبغي أن تكون مع القرآن الكريم .

لقد نَجَمَ سيد قطب الأديب الناقد في ع والم شتى،وكان ملء السّمع والبصر في الصحافة[3] والنّقد، الشّعر و القصّة التّاريخ والفكر... توجيها وتقعيداً، وكان بإمكانه أن يواصل مسعاه في هذا الاتّجاه ،بِغَضِّ النّظر عـــن رصيد التجربة الذي كان يتمتّع به، فـان حظه من القراءة عبَّر عنه بقوله وهو يقـــدم خصائص التصور الإسلامي «إن الذي يكتب هذا الكلام إنسانٌ عاش يقرأ أربعين سنة كاملة كان عمله الأول فيها هو القراءة والاطلاع في معظم حقول المعرفة الإنسانية ...ماهو من

---

[1] – التّصوير الفني في القرآن. سيد قطب. ص : 8 .

[2] – المصدر نفسه. ص : 255 .

[3] – سيد قطب الأديب الناقد.الخباص عبد الله عوض.شركة الشهاب للنشر والتوزيع الجزائر(د ت ط)،ص: 203وما بعدها.

تخصُّصه وما هو من هِوَاياتِه .»[1] إرث ثـــقيل!!وليس بالهين وقت ذاك ،ولكنه ترك ذلك كله جانبا لينصت إلى ما يـــقوله القرآن،مُستلهماً نوره وهداه ﴿**يَهْدِي اللّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ...**﴾[2]

هَذاَ الاقتصار على الاهتداء بالقرآن وحده، هو الذي سار عليه جيل الصحابة ﴿ض﴾ حيث خاض بهم القرآن وحده معركةً في النفوس أولاً ، ثم في الواقع الذي من حولهم ثانياً فـــطهّرهم تطهيرًا، وأصلح حياتهم، فاستحقوا ذلك الوصف الرَّباني ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ ...** ﴾.[3] واستحقَّ تلك الشَّهادة من رسول الله – صلى الله عـــليه وسلم –«خيركم قرني...»[4].

وقد كان في وُسع ذلك الجيل ؛جيل الصّحابة في بادئ أمره أن يأخذ مما هو عند الحضارتين الفارسية والرومانية[5]،وكانتا تبسطان نفوذ يْهما على قطاعٍ واسع من الأرض، أو كان في وُسعه أن يغترف مما هو عند الرهبان النّصارى الذين تواجدوا في شمال الجزيرة العربية وجنوبها وقت ذاك، أو ممّا هو عند اليهود الذين كانوا جاثِمين على صدر المدينة المنورة عاصمة ذلك الجيل ومُنطلقِه، وقد كان اليهودُ والنّصارى في قمّة النّفوذ والدعاية الزائفة ؛من أنّهم أبناء الله وأحباؤه!! ... كلاّ كل ذلك لم يكن، فلقد ظلّ ذلك الجيل ينهل من المعين العذب ؛ القرآن وحده ، دون أن يلتفت إلى شيء غيره.

فتح الله على سيد قطب بادراك طبيعة المصدر الذي يصدر النّاس عنه في حياتهم " القرآن" وكان ذلـــك الفتح من الله والاهتداء ، قد جاء في وقتٍ من سيطرةِ الاستعمار على البلاد الإسلامية، يعتمد سياسة التّجهيل والتّضليل ،ودفعِ مستعمريه إلى الولوع به ،والتّشبث بأهدابه، وبلفيف من الإستشراق ديدنه إثارة الشبهات والنّبش في ما ضي الأمّة بالتّشويه والازدراء [6]،وكذلك جاء ذلك الفتح في فترة افتتنت فيها أوروبا بالعقل وتأليهه بعدما نبذت الدّين، وأنشأت لها في الشرق أتـــباعا

---

[1] – معالم في الطريق. سيد قطب. دار الثقافة، المغرب، ط 4؛ 1988 م، ص : 143 ، 144.

[2] – سورة النور. من الآية : 35 .

[3] – سورة آل عمران. من الآية : 110 .

[4] – رواه البخاري . رقم 3650 .ص:665 .

[5] – ينظر: جيل قرآني فريد. من معالم في الطريق. سيد قطب.ص:14

[6] –ينظر: بحوث في الإستشراق واللغة. أحمد إسماعيل عمايرة.مؤسّسة الرّسالة ،بيروت،ط1؛ 1417هـ-1996م،ص: 400.

ومُريديـــن !!. فكان فهم ـ سيد ـ أنّ « هذا القرآن هو كتاب الدَّعوة، وهو روحُها وباعثها. وهو قوامها وكيّانها. وهو حارسها وراعيها. وهو بيانها وتُرجمانها. وهو دُستورها ومنهاجُها.وهو في النهاية المرِجعُ الذي تستمـــدُّ منه الدّعوة كما يستمد منه الدّعاة وسائل العمل، ومنهاج الحركـــة وزاد الطريق...»[1].

حرص ـ سيد قطب ـ على أن يتلقّى القرآن كما تل قاه الصحابة، وتربُّوا على نصـــوصه وعاشـــوا في ظلاله، واستجابوا له، فـــدعانا إلى أن نتنسّم خُطاهم، خطوةً خطـــوةً ونُعايـــن كيف تـــم ذلك البناء الشّامخ الشّاهق لبنةً لبنةً الذي كان يَبْنِيه القرآن حَسْبَ تنزُّل سُوَّره وآياته في صيّاغة الشّخصية المسلمةِ، و إخراج أمّة لها خصائصها ومميزاتها .

ولّما وضع سيد يده على الغرض الأساس للقرآن الكريم [2] – وهو إخراج أمّة حسب المواصفات القرآنية – أدرك انحراف حركة التفسير، بدءًا من القرن الرابع الهجري بغير وعي عن هذا الهدف ، وبدلاً من التركيز عليه ،اتّجه تدَارُسُـــهُ إلى جه ات ثقافية وبلاغية تثير المتعة الذهنية في القارئ على حساب الجوانب الأخرى فيه !!. هذا بالإضافة إلى ما حمله المفسر م ن خلفيات فكرية ،دخل بها عالم التفسير، نتج عنها ذلك التّعقيد بالتأويلات والمطولات، مما أغْفل الغرض الأساس الذي نزل القرآن من أجله وهو إنشاء جيل على قواعد التربية الربّانية.

والجديرُ بالذكر أنّ المفسرين الأعلام، كانوا يعتبرون سواء شعروا أو لم يشعروا أنّ ذلك الغـــرض الذي نزل القرآن لأجله موجود، وأن الحياة الإسلاميةً في عـــافية، وأنّ الأم ة بخـــير لأن شريعة الإسلام تظللها «فكان همُّ المفسّرين القدامى مصروفاً، إلى تثقيف المسلم وتقديم القدر الذي يتمكّن منه أحدهم من العلوم والمعارف اللغوية والتاريخية ونحوها لقارئ التفسير وبخاصّة الأحكام الشرعية التي يخاطَبُ بها المكلّف، ومن هنا طال وُقوُفُهم وتشعّبَ أمام آيات الأحكام أكثر من سواها، حتى صارت عمادُ بعض التفاسير كما هو معلوم.»[3].

---

[1] ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. ص : 348.

[2] ـ ينظر: الغرض الأساس للقرآن الكريم ، بتوسّع :أ صول التّفسير وقواعده .خالد عبد الرّحمن العك .دار النّفائس، بيروت، ط2؛ 1406هـ،1986م ص : 64.

[3] – علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه. زرزور عدنان محمد . المكتب الإسلامي، الأردن، ط1؛1 198م ،ص: 418.

كما كانت بعض التّفاسير تعكس نقاط الخلاف بين الفرق، وتُؤصِّل له وتسهب في عرضه على حساب القرآن الذي عمد المفسر إلى تِبيانه، فكان ذلك «التّنقيف» [1] الذي يمتع الذهن بما فيه من جدل مقيت يَصِلُ إلى حَدِّ العداء، فيوسّعُ الهوّة بين القرآن والقارئ المسلم ويحجُبُه عن نور القرآن وتيسيره، ويشوش عليه الرّؤية الحقيقيةَ للتّصوّر الإسلامي ولبساطة العقيدة الإسلامية .

فتجاوز سيد ذلك كله إلى عهد الصحابة ليسجل لنا المعاني التي استلهموها وعملوا بها لأن القرآن كان «يتنزل عليهم غَضًّا وتشربه نفوسهم، وتعيش به وله، وتتعامل به وتتعايش بمدلولاته وإيحاءاته ومقتضياته، في جدّ وفي وعي وفي التزام عجيب. تأخذنا روعته وتبهرنا جدّيته، ونُدرك منه كيف كان هـذا الرّهط الفريد من الناس، وكيف صنع الله بهذا الرّهط ما صنع من الخوارق، في ربع قرن من الزمان» [2] ،وتعامُلُ الصحابة مع القرآن كان هو الباب الذي دخل سيد منه بخُطىً مأمونةٍ وثابتةٍ إلى عالم القرآن الرحيب .

عندئذٍ لما أدرك الآثار العملية للقرآن في حياة الصحابة، تيقّـن أنّ التـفسير لا يمكن أن يبقى حبيس الأذهان، أو بطون الصحائف لأن «هذا القرآن لا يمنح كنوزه إلا لـمن يُـقبلُ عـليه بهـذه الروح : روح المعـرفة المنشئة للعمل، انه لم يجيء ليكون كتاب متاع عقليّ، ولا كتاب أدبٍ وفنّ، ولا كتاب قصة وتاريخ ـ وإن كان هذا كله من محتوياته ـ إنما جاء ليكون منهاج حياة منهاجًا إلا هي خالصا... إن منهج التلقي للتنفيذ والعمل هو الذي صنع الجيل الأول، ومنهج التلـقي للدراسة والمـتاع هـو الذي خَرَّجَ الأجـيال الـتي تـليه، وما مـن شـك أن هـذا العامـل الـثـاني كان عامـلاً أساسياً كذلك في اختلاف الأجيال كلها ،عن ذلك الجيل المميَّز الفريد.» [3] الذي بقي كالمنارة يُضيءُ دوماً ليهتديَ الحائرون والسالكون به على مرِّ العُصور.

استشعر سيد قطب عظمة القرآن، من خلال مُعايشتهِ لنُصوص القرآن قراءة وتدبّراً، وتأملاً وتذوقا، فدعانا إلى أن نحيا في جوّ القرآن، «والحياة في جوّ القرآن لا تعني مدارسة القرآن وقـراءته

---

[1] – ينظر:علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه. زرزور عدنان محمد.ص:419 وما بعدها.

[2] – في ظلال القرآن . سيد قطب . ج2، ص : 1143.

[3] – معالم في الطريق . سيد قطب . ص : 18 ، 19.

والِاطّلاع على علومه، إن هذا ليس جوّ القرآن الذي نعنيه، إن الذي نعنيه بالحياة في جوّ القرآن :هو أن يعيش الإنسان ... وفي قلبه، وفي همه، وفي حركته، أن ينشئ الإسلام فـــي نفسه وفي نفوس الناس، وفي حياته وفي حياة الناس ... والذين لا يعيشون في مثل هذا الجو معزولون عن القرآن مهما استغرقوا في مدارسته وقراءته والاطّلاع على علومه.» [1] فمن طبيعة القرآن أن يؤدي وظيفته من خلال النفوس، وحتى تستقيم عليه وتتفاعل معه وتتأثر به يحتاج ذلك إلى المكابدة والى الصّبر والمصابرة والى الجهاد الدائم ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[2]

زادت اهتمامات سيد قطب التربوية والدعوية واتسعت مداركه للاستماع أكثر للقرآن الكريم وخصوصاً حين اشتد عليه البلاء وتوالت عليه الأحداث ومن طبيعة الأحداث «أن تُثِيرُ النّفس بكاملها وتُرسل فيها قدرًا من حرارة التفاعل والانفعال يكفي لصهرها أحياناً، أو الوصول بها إلى قُرب الانصهار، وتلك حالةٌ لا تحدث كل يوم في النفس ،وليس من اليسير الوصول إليها في راحتها وأمنها وطمَأنينتها، مـــسترخـــيةً أو مـــنطلقةً في تأمّلٍ رخيٍ ...والمثل يقول: اِضرب والحديدُ ساخن ! لأنّ الضّرب حينئذٍ يسهّل الطَّرقَ والتّشكيل أمَّا إذا تركته يبرد فهيهات أن تُشكّل منه شيئاً ولو بذلت أكبـــر الجهود.» [3] ولما حدث ذلك الانصهار له من طرقاتِ الأحداث المـــتوالية كان القرآن قد أضاء جوانب نفسه وجوانحها، فتوطدت نفسه وتوازنت، وأضحت الأُمور معلومةً والأشـــياءُ مُبصَرة، لأنّ النفس أصبحت تملك تجربةً ناضجة، وتستمد ميزانها من ميزان الله الذي لا يميد ولا يحيد.

وهكذا أنجزت الشّدائد مشروعا حقيقيا لقراءة الحياة، أكبر مما حصل عليه في الأربعين عاما من قراءاته ومطالعته في الكتب، مشروعٌ أصيل تبدّلت معه الرُّؤى والتصوّرات واستقرت معه طبائع الأشياء على حقيقتها في قلبه وحسه وعقله، فلم تعد قراءة القرآن كما اعتدنا للبركة فحسب أو لمجرد التلاوة، أو نقرؤه لنستخرج منه أبحاثا ودراسات ونصوغ منه نظريات، في السياسة والاقتصاد،

---

[1] – في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 2، ص : 1016 ،1017 .

[2] – سورة العنكبوت. الآية : 69.

[3] – منهج التربية الإسلامية. محمد قطب. دار الشروق، القاهرة، ط12؛ 1989ْ ، ج1، ص: 207،208 .

والتربية والنفس وغيرها، أو نقرؤه لنُعجب ببلاغته وأسرار إعجازه أيضًا، وكل هذا مطلوبٌ ،ولكن القضية أعظم من ذلك وأثقل !.

القراءة التي يفتح القرآن بها كنوزه للقلوب، ويمنح أسراره، ويُشِعُ عطره ،و التي فيها الهُدى والنّور، وندرك بها مدلولات القرآن وإيحاءاته هي التي جلاّها سيد قطب بأنها «ليست فَهمُ ألفاظِهِ وعباراتِهِ، ليست هي تفسير القرآن كما اعتدنا أن نقول ! المسألة ليست هذه، إنما هي استعداد النفس برصيد من المشاعر والمدركات والتجارب تشابه المشاعر والمدركات والتجارب التي صاحبت نزوله، وصاحبت حياة الجماعة المسلمة وهي تتلقاه في خضم المعترك، معترك الجهاد، جهاد النفس وجهاد الناس، جهاد الشهوات وجهاد الأعداء والبذل والتضحية، والخوف والرجاء، والضّعف والقوة ،والعثرة والنهوض .»[1] وهذا المدلول للقرآن لم يدركه من جوّ الدّعة، ولا من خلف المكاتب والمكتبات، ولكن للحقائق ضريبة تُؤدّى لأنّها تولد من رحم المعاناة.

إنّ أبرز شيءٍ قدمه سيد قطب هو التّعريف بالقرآن وبوظيفته في حياة الأفراد وحياة الجماعات، تعريفاً عملياً يخرج عن التعريف الفقهي والمعجمي[2]، تعريفٌ يُراد منه عقد الصّلة بين القلب والقرآن على الدوام ،والاعتزاز بنفاسة هذه الصّلة، وهو ما يدلّل أيضاً على عظمة القرآن في نفس صاحبه.

فعند قوله تعالى: ﴿**والقُرآن الحَكِيم**﴾[3] من سورة "يس" قال:«والحكمة صفة العاقل، والتّعبير على هذا النّحو يخلع على القرآن صفة الحياة والقصد والإرادة وهي من مقتضيات أن يكون حكيما...ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يسمع تلاوة القرآن من غيره، ويقف على الأبواب يُنصتُ إذا سمع من داخلها من يرتّل هذا القرآن كما يقف الحبيب ، ينصت لسيرة الحبيب!.».[3]

---

[1] – خصائص التّصور الإسلامي. سيد قطب. دار الشروق، القاهرة، (د ط ت)، ص : 7 ، 8 .

[2]ـ ينظر:موسوعة فقه إبراهيم النّخعي. محمد روّاس قلعه **جي**.دار النّفائس،بيروت، ط2 ؛6 140هـ، 1986م ،ج2، ص:784 . وكذلك:مذكرة أصول الفقه. الشنقيطي محمد الأمين .الدّار السّلفية،الجزائر،(د،ت) ص: 54.

[3]– سورة يس. الآية:2.

[4] – في ظلال القرآن. سيد قطب، ج 5، ص : 2958.

وهذه حقيقةٌ، أنّ القرآن صديق حبيب، يساندك ويواسيك، حينما نتعاهده ونُداوم عليه، فلقد كان يدخل إلى قلب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيثبّته ويسرّي عنه، ويبدّد له الظّلمات وينير له الطريق، وخاصة يوم أن كان والمؤمنون القلّة في كفة، والدنيا بظلامها في كفةٍ، وقد أُوحِش الطريق وعزَّ النّصير فأنس به الروح، ويطمئن به القلب. ﴿**الّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنّ الْقُلُوبُ**﴾[1]

وتعاهد القرآن قراءة وتدبّراً ،ينشئ على الدّوام صلة لا تحلّها صروف الزّمان،صلة يعقدها ربّ العزّة ـجلّ جلالهـ بين القرآن ومحبّيه ،في الحياة والممات ،بل تستمرّ هذه الصّلة حتّى يوم القيّامة إلى أن يستقرّ صاحبه في الجنّة ، وسيد قطب من علاقته الوطيدة بالقرآن أصبحت له خبرةٌ دقيقةٌ بالقرآن وبسوَّره فلكأنما يعرّفك بصديق حميم خَبرهُ منذ عشرات السنين، يعرف كلّ جزء وكلّ سورة وكلّ آية بما تنفرد شخصيةٍ و منهجاً وملمحاً وأسلوباً، وموضوعاً، وقد تشترك بعض السُوّر في عرض موضوع واحدٍ فيعرّ فكَها، ويُفصّل في ملامحها مثلما يفصّل لك القائف [2] في توائم بنو أمٍّ واحدةٍ وأبٍ واحدٍ .

وليس من السّهل أن ينبّئك أحد عن علاقته بالقرآن ، ويصوّر لك هاته العلاقة الحميمة ،ويقدّم هذا التعريف الصّادق والجاد ؛ إلاّ رجلٌ مؤمن قد أصبح والقرآن مؤتلفين، لا مجتمعين ؛ جمعته بالقرآن دراسة عابرة، ولنستمع إليه في هذا الصدد يقول: «إن الشأن في سوّر القرآن–من هذه الوجهة– كالشّأن في نماذج البشر التي جعلها الله متميزة...كلهم إنسان، وكلهم له خصائص الإنسانية وكلهم له التكوين العضوي والوظيفي الإنساني ،ولكنهم بعد ذلك نماذج منّوعة أشد التنويع نماذج فيها الأشباه القريبة الملامحِ، وفيها الأغيارُ الّتي لا يجمعها إلا الخصائص الإنسانية العامّة ! هكذا عدتُ أجد سوّر القرآن، وهكذا عُدت أحسّها، وهكذا عدت أتعامل معها، بعد طول الصُّحبة وطول الألفة، وطول التعامل مع كلّ منها وفق طِبَاعِهِ واتّجاهاتِه، وملامِحِهِ وسِمَاتِهِ». [3]

---

[1]– سورة الرعد. الآية : 28 .

[2]– القائف: « الذي يتتبّع الآثار ويعرفها و يعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه» ، لسان العرب .ابن منظور. ج 5 ص:3776 .
و « هو الذي يعرف النّسب بفراسته ونظره إلى أعضاء المولود» التعريفات . الجرجاني. ص : 276.

[3]ـ في ظلال القرآن .سيبد قطب .ج3 ، ص:1243.

لقد كان الرجل على قدرٍ عالٍ من الابتكار الذي يصل قمة الإبداع في كل ما يقع عليه فكره وبصره، فعند عرضه لمقومات التّصور الإسلامي، حثّ على دراسة النّصوص القرآنية المطولة في البداية لأنها هي الأصل وعمد إلى إحياء المنهجية القديمة[1]، الّتي لم تراعيها الدّراسات الحديثة وحتّى الدّينية الخالصة منها ، وهي أن تساق النّصوص القرآنية أولا ،ثم تأتي العبارات البشريّة بالتّوضيح والبيان ،لا أن يؤتى بالقرآن يم لئّ دور الاستشهاد على الحقائق التي يكون الكاتب قد قرّرها بأسلوبه البشري الفاني!.

فالقرآن هو الأصل، وهو المقرِّر، وكلام الكاتب هو المُسْتَوحَى والمُسْتلْهم من النّصوص القرآنية، «وهذا اليقين يدفعنا دفعا- لا نملك له رداً- إلى محاولة ترك النصوص القرآنية ذاتها تتحدّث في هذا البحث عن مقومات التصور الإسلامي ما كان ذلك ممكنا ، ولو كان الخيّار لي لجمعت الآيات التي تتحدث عن هذه الحقائق ونسّقتُهَا وتركتها تتحدث وحدها وبذاتها حديثها الفريد البهيج ... إننا نريد أن نعقد الألفة بين قارئ هذا البحث وبين القرآن ذاته في النهـــاية، نريد لهذا القارئ أن يتعوّد التّعامل مع القرآن ذاته تعاملا مباشراً كلما أعوزته حقيقة في شأن مـــن شـــؤون الحياة كلها، وأراد أن يصل فيها إلى الحق، نريد له أن يشعر - كما نشعر- أنّ في هذا القرآن غ للهً كاملاً شاملاً في كل حقيقة من حقائق الوجود الأساسية» [2]، غير أن الجيل المعاصر في حاجة الى التّفصيل والبيان ، لأنّ هناك مؤثرات جدّت ،أفقدته تذوق القرآن بعيداً عن البيان البشري .

إنّ إدراك ما يرمي إليه التّعبير القرآني،كان من البديهيات عند الجيل الأوّل لمعرفتهم لُغتهم وإنما كان مدار التّنافس عندهـــم على العمل، وفي مطلع القرن العشرين دعا حسن البنّا إلى ا لتّهل مباشرة من القرآن بواسطة قلب المؤمن، لان قلب المؤمن هو بيت القرآن ، وأن يكون القارئ ملمّاً بالسّيرة النبوية وأسباب النّزول، وأن يستعين بالتّفاسير في الاهتداء إلى الفهم الصّحيح، والاسترشاد بها لأن الفهم « إشـــراق ينقدح ضوءه في صميم القلب» [3] وّهو نفس النّهج الذي نهجه سيد وسار عليه وهو يعيش في ظلال القرآن .

---

[1]- ينظر: مقوّمات التصوّر الإسلامي. سيد قطب. دار الشروق ن القاهرة، ط1؛ 1986م، ص : 38 .

[2] – المصدر نفسه. ص : 38 .

[3] – مقدّمات تفسير القرآن. حسن البنّا. مكتبة حطين، بيروت ، ط 3 ؛ 1972 م، ص: 30 .

لسنا نغالي في صلة سيد قطب العجيبة بالقرآن، تلك الصلة التي صيّرته عملاقاً في الفهم والفكر وفي الدّعوة والتّربية، وفي التّضحية والجهاد، ورزقه الله بها إيمانا لا يعرف المستحيل كما لا يعرف الإحجام، والإيمان«هو كبرى المنن التي ينعم الله بها على عبد من عباده في الأرض إنّه أكبر من منّة الوجود الذي يمنحه الله ابتداء لهذا العبد، وسائر ما يتعلق بالوجود من آلاء الرزق والصّحة والحياة، والمتاع »[1] .

والإيمان الذي يعنيه حينما يستقر في القلوب ؛هو الإيمان الحقيقة ،لا إيمان المظهر ، فالإيمان الحقيقة هو : الثابت الأثر، ملموس كناموس من نواميس الوجود، ويكون فيه العبد موصولاً برب الوجود، مستنداً إلى قيّوم السماوات والأرض في تصوّراته وفكره وشعوره، بل في حياته ومماته كلّهما.

بهذا الإيمان الشّفيف النّدي الّذي أدخله الله في قلبه، راح سيّد يَصْدُرُ عن القرآن والقرآن وحده، بشكل مفاجئ وعجيب، في التصوّر والإحساس، وفي القول والإخلاص، فكان ذلك التجديد الرائع في عالم التفسير ، سواءٌ في القراءة الجمالية بأدواتها الفنية الجديدة التي استعملها في القراءة وأحسن استعمالها، أو في القراءة الفكرية التي تُنجزُ مشروعاً خاصاً بصياغة الشخصية المسلمة في التصوّر الاعتقادي والسلوك .

أو في تلك القراءة الرائدة في الإعجاز التي أفرزت ضروبا شتى ،حيّة وواقعية ،مترجما ذلك كلّه حسب منهج التذوّق الأدبي [2] الذي كان سهم الرّجل فيه لا يجار ى ! هذا إذ علمنا أن صاحب منهج التذوّق الأدبي، يجب أن يتمتّع بحساسية عالية، وأسلوب شيّقٍ في العرض وصـــدق في القـــول، وعمق في الطّرح، فكيف إذا كانت هذه الميزات لا تنقص سيدا!؟ ووفّقه الله أن أخرج تفسيراً شاملاً للقرآن الكريم ، ذلك التّفسير الفريد الّذ ي ترجم فيه أحاسيسه وشعورا ت ه ، خطوة خطوة ،بشكل مثير للانتباه حقّاً .

---

[1] – في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 6، ص : 3351 .

[2] – ينظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري. الرومي فهد بن عبد الرحمن بن سليمان. رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، العام الجامعي، 1404هـ 1405هـ،ج1 ، ص:1103.

وإنتاج مستعملي منهج التذوّق الأدبي مقارنة بما أنتجته المناهج الأخرى هو من النّدرة بمكان، فكثير من النّاس يتأثـــرون بالقرآن ولكنْ قليل من يملك درجة الشعور المرتفعة !! وكثير هم الذين يملكون حرارة الشعور، ولكنهم لا يملكون قوة الكلمة [1]، ولله في خلقه شؤون، ويوفق الله من شاء للذي يريد، وهو العليم الحكيم .

ولا عجب أن سيد قطب يملك ذائقة أدبية قلّ أن تُوجد، يُقرّ له بها الصّديق والعدوّ ،ولكلّ من قرأ "في ظلال القرآن " أحسّ بروعة العرض وعُذُوبة المأتى وهو : « يترجم دقائق جذور التّأثّر من أصولها أحرفاً نيّرة على الورق تحكي قمة من قمم التذّوق الأدبي للنصّ القرآني... لم أكد أجد في الجادّة إلاّ أثراً لقدمين هما لرجل واحدٍ تمشيان فيه بعزيمة وثبات وكأنّهما تـــسيـــران على خـــطٍّ شُق لهما من قبل ، بل كأنّهما تسيـــران على نور البصيرة والبصر ، إذاً فلا تثريب عليّ أن اعتبرت تفسير سيد قطب رحمه الله منهجا في تفسير القرآن وحده ! »[2]

إنّ قراءة النّص القرآني هي عمليّة ذات تميّز خاصّ، لأنها تُحيل على الله عزّ وجلّ الّذي أمر بالتدبّر وهو قمة القـــراءة ﴿أَفَلاَ يَتَدَبّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىَ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [3] ولقد كان سيد قطب يعي هذه الحقيقة، حقيقة التدبّر ؛ وهو تفاعل الذّات مع القرآن والانقـــطاع إليه بصدق فأنجز تلك القراءة العظيمة الجادّة والجديدة، وسيلة ومنهجاً وهدفاً.

ولعلّ ما تفرزه الذّات في تفاعلها مع النص ،هو التّفسير الطّبيعي للنصِّ أي نصّ كان؛ ديني أو أدبي فالنّص أكبر من أن يوضع رهن النّظريات «وربما فرض علينا منذ البداية الطّريق الذي نسلك والمنهج الذي ننهج، والنّتيجة التي يجب أن نصل إليها...»[4] فالنّص القرآني لابدّ أن يُعاش، حتى تبدو آثاره الطّبيعية والطيّبة ماثلةً في دنيا الناس، وكلمة "عِشْتُ" التي صدّر بها سيّد مقدّمة الظّلال وكرّرها مرارًا، تدل على ذلك النّحو الذي نحاه في إبراز طبيعة التّفسير الحقيقيّة لـلنّص بغية إدراك إيحاءاته

---

[1]– ينظر:دراسات إسلامية .سيد قطب .دار الشّروق، القاهرة ،(د ط ت) ، ص:139،138.

[2] – اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري. فهد الرومي.ج1، ص : 1106.

[3] – سورة محمد. الآية : 24 .

[4] – نظريات القراءة في النقد المعاصر. حبيب مونسي. منشورات الأديب، وهران، ص: 178.

ومدلولاته ، فليس الحديث عن كلام الله خوضاً في أمر سهل ، يُنتدب له كلّ سيّال القلم مفوّه اللّسان،الأمر أجلّ من ذلك ،لابدّ أن يتحوّل المفسّر إلى رجل قرآني قبل ذلك .

يكبر سيد قطب في عين العصر، لان قراءاته الاستكشافية، كانت عطاء ثـــرًّا في الدّراسات الأدبية ،والقرآنية على السّواء، وأجمل وأعظم ما في هذه الدّراسات أنه أخرج المحاولة المنهجية من حيّز التّخايل والتردّد إلى سعة الاستقرار واليقين، فكانت تلك الرّؤى النّقدية التي كادت تؤسِّس لنظريةٍ نقديةٍ عريقة، وكانت تلك الحياةُ الهنيةُ الرّضيةُ المباركة التي عاشها في ظلال القرآن، والتي ألقت إلينا بخيراتها عن حقيقة التّصور الإسلامي بخصائصه ومقوّماته، وعن معالم الطّريق وطبيعته، وعن دلائل الإعجاز وأسرار بلاغته .

بل إن أعظم ما قدّمه لنا هو " في ظلال القرآن ":«كدليل عملي مكتوب، إن صحّ مثل هذا التّعبير، إلى المجتمع الإسلامي والأمَّة الإسلامية وليس دليلاً ثقافياً لعلوم القرآن وعلوم التّفسير، أو علوم الثّقافة الإسلامية من فقه وأصول وتاريخ جدلٍ أو خلاف!.» [1] ومن هنا تأتي الفَرادَة في قيمة هذا المشروع المُنجَزِ الّذِي اِستلَّهُ صاحبه من سويداء قلبه، وطبَّقه في دنيا الواقع .

إن أبرز ما يحدّد أيّة قـــراءة، هو وضوح المنهج الذي انتُهج، والطّريقة التي سارت بهذا المنهج خلال العمل الذي قُدّم، والمنهج والطّريقة كلاهما يُبرزان صاحب العمل ويحدّدان اتّجاهه سلفا فيحصُل الفهم ويسهل استيعاب عمله، ومن ثم فبعض المفسّرين من يطلعك في مقدمة تفسيره على منهجه الذي مشى عليه ، و يحدّد لنا كيفية الوصول إلى النتائج التي هَدف إليها، لأن كل مفسّر يتوخّى الأهداف التي ينشدها عبر الضوابط التي ارتسمها أول مرّة ،ومن خلال تطبيق المنهج والطّريقة أو الإخلال بهما، نستطيع تقييم هذا المفسّر في ما قدمه من قراءة، ما له وما عليه .

والمنهج كما هو معلوم:« الخطّة المرسومة المحدّدة الدّقيقة، التي انطلق منها في فهمه للقرآن الكريم، والتي التزم بها في تفسيره له، وهي القواعد و الأسس التي كانت ضوابط له ولتفسيره حَكَمَته

[1] – علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه . عدنان محمد زرزور. ص : 425 ، 426 .

وهو يتعامل مع كتاب الله ويفهمه ويفسّره، فلم يخالفها و لم يخرج عنها »[1] وإهمال هذه القواعد الضّابطة له في تفسيره إمّا أن تُحيله نسخة من غيره وإمّا أن تجعله حاطب ليل أتى بالعجائب.

وبين المنهج والطّريقة خيط دقيق،كثيرا ما يقع الالتباس بينهما بسببه، فلا يُعرف أحدهما من الآخر، فإذا كان المنهج هو قواعد، فان الطريقة هي تبيان كيفية تطبيق هذه القواعد أو« هي الأسلوب الذي سلكه المفسّر أثناء تفسيره لكتاب الله، والطّريقة الذي عرض تفسير كتاب الله من خلالها، وبعبارة أخرى الطّريقة :تطبيق المفسّر للقواعد والأسس المنهجية التي كانت منهجه في فهم القرآن، وتـــطبيق تلك القواعد في مختلف علوم التّفسير.»[2] وكل قراءة جادّة لابد وأنها تحفل بالمنهج والطّريقة معاً كونها تحمل مشروعًا، ولا يكون المشروع مشروعًا إلا بالطريقة والمنهج، وهذه بعض الأمثلة على بعض المفسرين .

1 ـ إذا كان من قواعد شيخ المفسرين ـ ابن جرير الطبري ـ(ت 310هـ) ذكر الأقـــوال المأثورة للصّحابة والتّابعين في التّفسير، وهي من قواعده الكبرى، فإن تطبيقه لهـــذه القاعدة هي الطّريقة التي يذكر لها نماذج وأمثلة في تفسيره، ونلحظها في آيات العقيدة كما في آيات الأحكام، وآيات الأمثال وآيات القصص وغيرها من الذكر الحكيم.

2 ـ ومن منهج ـ جار الله عمر بن محمود الزّمخشري ـ (ت538 هـ)الانتصار لمذهب المعتزلة في تفسير آيات العقيدة، والدّفاع عنهم، وذم الأقوال المخالفة لهم، وهي أصل في المذهب، دخل به ميدان التّفسير كقاعدة من قواعده، فطريقته في التّفسير واضحة، فكلما كانت آيات الرؤية ـرؤية اللهـ وآيات الوعد والوعيد، وآيات الهدى والضّلال وغيرها جنح بالنّص إلى فهمه وأرجعه إلى أصله الاعتزالي .

3 ـ وصاحب أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن العالم الجليل ـمحمد الأمين بن المختار "الجكنّي الشّنقيطي"ـ (ت 1393 هـ)أبرز قواعده في التّفـــسير، تفسير القـــرآن بالقـــرآن ، وكذلك بيان الأحكام الفـــقهية المبينة في القرآن، فعند استجلاء طريقته في التّفسير بالـــنّسبة للقاعدة الأولى فإنّه لا يقطع أمرا بالقول في آية حتى يستجمع كل الآيات التي لها صلة بالآية المفسّرَة ويستقصي ذلك

---

[1] ـ تعريف الدّارسين بمناهج المفسّرين. الخالدي صلاح عبد الفتاح . دارالقلم ، دمشق،ط3؛ 1402هـ 2000م،ص: 17.

[2] ـ المصدر نفسه. ص : 18.

في القرآن كله، وبالنسبة للقاعدة الثانية أنه يقف عند كل آية يستخرج الأحكام الفقهية منها ويبيّن أدلّتها من السنّة وأقوال العلماء، ويرجح ما بدا له من غير الاعتبار بالرّجال والمذاهب .

4 ـ فإذا أتينا إلى صاحب في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (1906 م/ 1966م) فانّ قواعد تفسيره هي أشهر من أن تُع رّف لأنها مبثوثة على طول تفسيره ، وأبْرَزُ هذه القواعد وعلى رأسها:قيمة الحياة في ظلال القرآن واتخاذه منهج حياة، والوحدة الموضوعية للقرآن، وبيان العقيدة وأثرها في بناء الجيل، والدّخول إلى القرآن بدون مقرّر سابق، والمحافظة على الجوّ القرآني وتسجيل ظلال النّص وإيحاءاته ولطائفه، وتقديم النّقل على العقل والتّسليم بدلالة النّقل، واستبعاد المطوّلات وعدم الخوض في الإسرائيليات مما يحجب القارئ عن نور القرآن المتدفّق وعن الجانب الجمالي فيه وغيرها من الأهداف .

كلّ هذه القواعد كانت نُصب عينيه في الطّبعة المُنَقّحة التي لم يكمل تنقيح بعض أجزاءها وكانت طريقته في عرض هذه القواعد، قد اجتمع لها روح البساطة وقوّة الكلمة في وجه جميل يبعث على الدّهشة وعدم المَلاَل من قراءته، وكان في الّذي قدّمه بركة وخير .

لقد أتينا على التّذكير بالطّريقة والمنهج، لأنهما من الخطوط المستقرّة في القراءة الايجابية التي قدّمها سيد، هذه القراءة التي اقتاتت من دمه ومن حياته في هذه الحياة الدنيا العابرة، كما أفردته هذه القراءة، ورفعه الله بها، فكان ذلك المفسّر العظيم الرّائد الذي لا يبغي بالذي قدّمه سوى تقريب المسلم من القرآن ،ومن الفهم المطلوب الّذي كان عليه الصّحابة الكرام.

والأمر الذي نسجّله أخيرا، هو أن الفضل لله يؤتيه من يشاء، وقد أسبغ الله عليه من فضله وكرمه، فكان مبدعا سخيّا حقّا في كلّ الذي كان يؤصّله حتى لكأنّه كان يغرف من بحر، والطّبع سجيته، مما تفرّد تفسيره منهجا، وطريقة، وجديدا في كل جانب من جوانب التّفسير، وفتحا كبيرا في ميدان هذا العلم الحبيب .

- المبحث الأوّل: **القرآن والفن.**

القرآن هو المرجع الوحيد الذي يمدُّنا بالحقيقة النّاصعة عن الكون والحياة والإنسان ، فيعطينا التصوّر السّليم و الشّامل الّذي لا تَندُّ عنه صغيرةٌ ولا كبيرةٌ من حقائق الوجود ،والبشرية في حاجةٍ فطرية لأنْ تستمع إلى القرآن لأنّه منهج الحياة، وتراجعه في كل شأنٍ من شؤونها، باعتباره ميزان الفصل في كلِّ جزئيّات الحياة من أفكار وسلوك و ما يختلج فيها من وجدانات، والفنّ كغيره أولى بالاستمداد من القرآن فهو ذخيرتُه الحيّة التي لا تنضب.

فإذا كان الجمال هو الوجه المشرق في القرآن، فإن الفنّ موضوعه الجمال الذي يحرص على اكتشافه، وفتح المنافذ أمامه ليظلَّ عليه النّفوس لتسعد به وتقرّ عينها، والقرآن كما هو جميل فإنّه يشير إلى مواطن الجمال في كل ما خلق، ومن ثمّ يوفـّر مساحةً واسعة رحبةً للفن مسرحها الكتاب المقروء (القرآن) والكتاب المفتوح (الكون).

ومادام الكون الواسع مسرح خاطر الفنّان الّذي يجوب عوالمه، ويتلقى إيحاءاته [1] ويلتقط أصداءه ويسبر غوره ، فإنّ «لكل فنّان ـ صادق ـ موقف من الكون والحياة، أراد أم لم يُرد موقف تُحَدِّدهُ طريقةُ تصوّره لهذا الكون وارتباطه، وطريقة تفاعله مع الحياة والأحداث» [2] فإنْ استقى مادته من التصوّر القرآني الكبير ، فإن العلاقة تنشأ بين القرآن والفنّ ابتداءً من زاوية الرّصد التي يعمد إليها الفنّان من داخل وُجدانه، فللوجدان هو مكمن العقيدة، وكذلك الفن، فهما من حيث المكان توأمان.

هذا اللّقاء بين الفن والدّين – وكان أن زلّت أَقدامٌ عنده – فنصبت عداءً بينهما كان عند سيد قطب لقاء توادٍّ وتواؤمٍ لاتّضاح الرُّؤيةِ لديه على بصيرةٍ ، فكان يتعجّب من تلك العداوة الّتي لا مبرّر لها، ومن ذلك الفهم الغريب الذي يُسيءُ إلى الفنِّ بأنه التّلفيق والخروج عن المعقول وأنّه اِنحلال من كلّ قيد،واستجابة لكل رغبة ،وأصحاب هذا الفهم كما يسيئون إلى الفن يُسيئون إلى الدّين لأنّهم يحشرونه في زاويةٍ ضيِّقةٍ، ويرونه قيوداً تُحدّ من رقعة الفنّ و تحوّله إلى مواعظ دينيةٍ لا تستجيب لمتطلبات الحياة.

---

[1] ـ ينظر: موسوعة الإبداع الأدبي . نبيل راغب.مكتبة لبنان ناشرون، بيروت ، ط1؛ 1996م، ص:58 .

[2] ـ منهج الفن الإسلامي. محمد قطب. دار الشروق، بيروت، ط 6 ؛ 1403هـ – 1983م، ص: 12 .

وهذه النظرة الصغيرة هي نظرة غريبة، وُلدت بالأساس في الغرب لأسباب دينية وتاريخية وسياسيةٍ معروفة، نتيجة الطغيان الكنسي [1]الذي أدّى إلى الفصام النّكد بين الدّين والحياة هناك فانحصر الدّين في ركنٍ جانباً من الحياة، وافترق مع الجوانب الأخرى التي رأت أنّه يقلّل من نشاطها ويُكبت حريتها، و كان هذا الأمر صحيحاً وواقعاً ،كما حدث بالفعل في أوربا ،وقد تخلّص الغرب من سطوة الدّين الذي كانت تمارسه الكنيسة، لكن هاجسه ظلّ يتعاظم في ذاكرة أوربا من الخوف وأصبح شأنها والدّين ـ ولو كان دين الله الحق ـكشأنِ الملدوغ في رؤيته الحَبْل.

أمّا في دين الله الصّحيح الذي جاء ليهيمن على الحياة، فالقرآن باعتباره منهج حياة لا يضيق بالفن ولا يقصيه من حسابه، ولذلك صحّح سيد مفهوم كلمة الفن لمنتقديه قائلاً «لم يكن لها في نفسي إلا مدلول واحدٌ، هو جمال العرض وتنسيق الأداء وبراعة الإخراج، و لم يجُل في خاطري قَطّ أن (الفنّي) بالقياس إلى القرآن معناه الملفّق أو المخترع أو القائم على مجرّد الخيال ذلك أن دراستي الطّويلة للقرآن ،لم يكن فيها ما يلجئني إلى هذا الفهم أو هذا التأويل »[2] هذا الفهم السّليم لعلاقة الفن بالدّين كان هو مفتاح الولوج إلى الدّراسة الفنية الجمالية، بدءًا "بالتصوير الفني في القرآن " ثم بقية كتبه واستمرت معه في تفسيره «في ظلال القرآن».

ولئن كان نزح في مبتدإ دراسته إلى التّأكيد على إفراد الدّراسة الفنّية الجمالية فقط، دون الإشارة إلى غرض آخر معها قائلاً: «الجانب الفني وحده في القرآن، هو موضوعنا الوحيد ولا شأن لنا هنا بما عداه من مباحث في القرآن» [3] فلأنّ الهدف الذي حدّده سيد من دراسته الفنّية كان مقصوداً «هو إعادة عرض القرآن واستحياء الجمال الفني الخا لص فيه»[4]، وهذا الجانب رأى أنه لم يُعطَ حقّه من الدراسة، رغم أنّه منبع الإعجاز الفنّي ، ومن ثم عمل على توضيح صورته النّهائية وهو يبحث الخصائص العامّة للجمال الفنّي في القرآن الكريم.

---

[1]_ ينظر: مذاهب فكريه معاصره . محمد قطب. دار الشروق، بيروت، ط 6 ؛ 1403هـ- 1983م، ص :25.

[2]_ مشاهد القيامة في القرآن. سيد قطب. ص : 266.

[3]_ التصوير الفني في القرآن. سيد قطب. ص : 230.

[4]_ المصدر السابق. ص : 12.

ولقد أكبر ناسٌ على ـ سيد ـهذا المسلك في البحث، ورأوا فيه أنّه جرّد القرآن من قداسته الدينية، ابتغاء تبيان الجانب الفنّي فيه، وأنّه يتأثر بحسّ الناقد الفني مستبعداً الغرض الديني ،والشّيء المنسيُ لدى هؤلاء، أنّ سيداً كان يتناول جانبا معيّنا بالدّراسة،و لم يخرج عن القرآن لحظة البحث فكيف وهو يتدارسه؟.

وقد أبان هذا الفهم الغائم الذي يتسبّب في تعطيل البحث والانحراف به قائلاً : « فإذا التقت في النّهاية قداسة الفن بقداسة الدين فتلك نتيجة لم أقصد إليها و لم أتأثر بها، إنما هي خاصةٌ كامنةٌ في طبيعة هذا القرآن، تلتقي عندها دروب البحث في النهاية، ولو لم يحسب السالك حسابها في الطّريق»[1] ولعلّ طريقة البحث الّتي سلكها كان فيها خير، حيث انجلى الغبش حول علاقة الفن بالدين والذي كان يُغشّى على النّخبة من القرّاء فضلاً عن غيرهم من غير المتمرّسين.

وإذا كان القرآن يوسّع مجالات الفن ويفتح الأفاق أمامه، ويمدّه بالميزان الصحيح الذي يعصمه من الهبوط الّذي يتحجّج بالواقع و يرى اللّصوق به على أنه حالة طبيعية سليمة ، فإن ميزة الفنّ أنه بريد الدّين الأمين إلى أغوار النفس البشريّة ، يدفع عنها السآمة والرّتابة من خلال التّوجيهات القرآنية، وينقلها من حالة إلى أخرى، فتحسّ بكل ما كان معتاداً لها ومألوفا، شيئاً جديداً،كأنما تشهده أول مرّة .

ومهمّة الفنّ الأساسيّة في القرآن الكريم لشدّ ما تظهر في قصص الأنبياء مع أقوامهم حينما يعرُض التّجارب الإنسانية بالتّفصيل، حيث تبرز الجوانب الفنية والجمالية، فتتفجّر انفعالات القارئ ويحسّ بالمشاركة الوجدانية مع أشخاص القصّة ،ويندمج معهم من حيث يشعر أولا يشعر، فينشأ تأثير عظيم ،وهنا تظهر قيمة الفنّ الحقيقية في التّوجيه والتّربية،كما يظهر خطره على النّاشئه باعتباره سلاحا ذو حدّين.

أ-التوجيه الجمالي في القرآن :

تشارك النّفس البشرية بجميع كيانها كلّه في إدراك الجمال، فتميل إليه وتهفوا إلى الاستمتاع به، ممّا يؤكّد أنّه حاجة فطرية فيها، حيث تتتاح عند تأمّلها الجمال بدءاً بالإنسان وما يحيط به ،والقرآن

[1]_ التصوير الفني في القرآن. سيد قطب، ص : 12 .

يقوّي هذا الشعور بالجمال في قلب الإنسان، ويدفعه إليه دفعًا ﴿**وَالأنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ**﴾[1] فيُذكر الجمال بلفظه للدّلالة على أنّه لم يُذكر سدىً وإنّما لحكمةٍ.

وكما أنّ الجمال رغبة فطرية في الإنسان، فإنّه عنصر فطريٌ وأصيل في هذا الكون الكبير، ومن ثم يوجّه القرآن العقل والحواس إلى استكناه مظاهر الجمال فيه ﴿**أَوَلَمْ يَتَفَكّرُواْ فِي أَنفُسِهِمْ مّا خَلَقَ اللّهُ السّمَاوَاتِ وَالأرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاّ بِالْحَقّ وَأَجَلٍ مّسَمّى وَإِنّ كَثِيراً مّنَ النّاسِ بلقاء رَبّهِمْ لَكَافِرُونَ**﴾[2] والقرآن كلّه مليءٌ بالجمال، ومليءٌ بتوجيهات العقل إلى الجمال المبثوث في الكون، ولا تكاد تخلو سورةٌ من سور القرآن أن تقيم عرضاً لظاهرةٍ من ظواهر الكون ،أو حركة الحياة التي تحدث فيه.

والقرآن لمّ يدعوا الإنسان إلى القيام بعملٍ ما، فإنما يطالبه أن يخرج بالعمل من درجة الضرورات ، التي هي مجرّد الأداء ، ويرقى به إلى الأداء الحسن ؛ الذي هو الجمال أو الإتقان أو الإحسان كما يبيّن ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله كتب الإحسان على كل شيء...»[3] ورغم التوجيهات القرآنية والنّبوية إلى الإتقان والإحسان ، فإنّ الأمّة الإسلامية تشهد غياباً كلياً في ما يقوم عليه الاقتصاد العالمي ،من حسنٍ للأداء وجودة للعرض في تنافسٍ محموم ،لا مكان فيه لمجرّد الأداء[4].

والقرآن إذ يوجّه الإنسان إلى الجمال، فإنّه لا يريد منه أن يقف عنده، فيتحول الجمال إلى إله يُعبد، وإنما يريد من الإنسان أن يصل من خلال إحساسه بالجمال إلى القدرة المبدعة التي خلقت وأحسنت ﴿... **فَتبَارَكَ اللهُ أَحْسَنَ الخَالِقِينْ**﴾[5]، يريد القرآن من الجمال أن يكون منفذًا تستمع منه النّفس البشرية إلى الله ،و تهتدي بهداه ، وتذعن كبقية المخلوقات لأوامره .

---

[1]_ سورة النحل. الآيتان : 5 ، 6.

[2]_ سورة الروم. الآية : 8 .

[3]_ رواه مسلم . برقم1955،ص: 778 .

[4]_ ينظر: قبسات من الرسول . محمد قطب. دار الشروق، القاهره ، ط16 ؛ 1427هـ 2006م ص:99

[5]_ المؤمنون. من الآية : 14 .

ولقد ضلّت الاتجاهات الفنّية الأوروبّية-الحديث منها والقديم- حين قدّست الجمال فانحرفت عن سواء السّبيل «وفقدت الخيط الذي يَنْظِمها جميعاً ويُنظّمها ويفسِّر أحداثها وهو الدّين.»[1] فحين بهرها جمال الطّبيعة وذهبت لتناجيها عادت بالطبيعة كإله ، وحين نبذت كلُّ ما هو وراء الطّبيعة، وآمنت بما تدركه الحواس اتخذت من الواقع إلها جديدًا.

وكان- سيد قطب- قد بهره التناسق المعروض في الكون ،والذي يشير إليه القرآن الكريم فراح يدلنا عليه في عرض حيٍّ،ويقدّمه لنا في اِندهاش لافت، يتعذّر أن نعثر على هذا العرض عند غيره، مما جعل أحد المفكّرين يقول: «أحسب أن ـ الشّهيد ـ بين المفسّرين والمفكّرين أقدمين ومعاصرين هو أول من بحث موضوع العلاقة بين (الإنسان والكون والحياة) بصورةٍ واضحةٍ مفصّلةٍ ، وبتعابير محددةٍ معلنةٍ»[2] والجمال المتناغم أظهر ما في هذه العلاقة بين هذه المخلوقات، والمتتبع للظّلال يلحظ هذا التّفسير الجمالي الذي يميّزه من غيره .

ولا يفوتنا أنّ صلة سيد بالقرآن أوّل مرّة كانت عبر هذه الزّاوية الفنّية الجمالية «التي لها قدرة مغيّرة ومؤثّرة في النّفوس، حيث بلغت حبّتها ولامست شغافها... ثم إنّها قادرة أيضا على التغ يّ والتّأثير والتّجديد حين يُهيّأ لها المناخ النّفسي والاجتماعي المناسب»[3]ولقد التقى الكافرون والمؤمنون على الإقرار بسحر القرآن وذاقوه وعرفوه بحلاوته وطلاوته.

هذا الجانب الجمالي، عاد سيد قطب يستشعره، ويدلّل عليه، لأنّه باب كبير للاهتداء إلى الله فطلب منا أن نتقدم وننظر إلى الآيات في هذا الكون نظرة فيها الجدّة والمفاجأة ، كأنما نراها أول مرّة، ونخلع تلك الرّتابة أو الإلف الذي يَجْثم على نفوسنا فيُفقدنا حسن الآية واستشعار عظمة الخالق.

ولنتابع هذه النّفثات الحرّى التي يبعثها من روحه: «ومشهد السماوات والأرض، ومشهد اختلاف الليل والنهار، لو فتحنا له بصائرنا وقلوبنا وإدراكنا، لو تلقّيناه كمشهد جديد، تتفتّح عليه

---

[1]ـ مذاهب فكرية معاصرة. محمد قطب ص : 491 .

[2]ـ رائد الفكر الإسلامي المعاصر الشهيد سيد قطب.يوسف العظم، دارا لقلم ،دمشق،ط1؛ 1400هـ،1980م ،ص:491.

[3]ـ الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم .نذير حمدان.دار المنارة،جدة، السعودية،ط1؛ 1412هـ، 1999م،ص:155.

العيون أوّل مرةٍ، لو استنقذنا حسّنا من همود الإلف، وخمود التّكرار، لارتعشت له رؤانا، ولاهتزّت له مشاعرنا ولأحسسنا أنّ ما وراء فيه من تناسق لابدّ من يدٍ تُنسِّق، ووراء ما فيه من نظام لابد من عقل يدبّر، ووراء ما فيه من إحكام لابد من ناموس لا يتخلّف، وأنّ هذا كله لا يمكن أن يكون خداعا ولا يمكن أن يكون جُزافاً ولا يمكن أن يكون باطلاً»[1]

وفي القرآن الكريم لمسات جمالية يعجز التّعيير البشري أن يصفها، لا من جهة الأداء القرآني نفسه،وما فيه من إعجاز، ولا من جهة ما يشير إليه من جمال في الكون والحياة ،ونظراً لأنّ المؤلّف قد ولج هذا البحر من الجمال الّذي لا ساحل له ، فإنّه أصبح على علم بكثير من القضايا النّقدية في الجمال وفي الفن وعلاقتها بالدّين،ولكنّه أحيانا يتوقّف في أن لا يلامس تعبيراً قرآنياً ما، بتعبيراته الفانية ، فيخشى أن يتجهّم المعنى ويبهمه،لأنّه لا يحسن الوسيلة في التّعامل مع الجانب الجمالي فيه.

ورغم ذلك فإنّ القرآن يثير في الحس الإنساني قضية الجمال ويطالبه بالتثَّبُّت والتأكّد، وأن يكون حديد النظر ﴿**الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مّا تَرَىَ فِي خَلْقِ الرّحْمَـَنِ مِن تَفَاوُت فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىَ مِن فطور ثُمّ ارجِعِ البَصَرَ كَرّتَيْنِ يَنْقَلِب إِلَيْكَ البَصرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ**﴾[2]بهذا التّوجيه يحيي فيه الحاسّة الفنّية التي تلتقط الجمال المبثوث في الكون والحياة، كما تتكفّل التّربية الإسلامية بغرس هذا التّوجيه الذي يرتفع بالإنسان من عالم الضّرورات إلى عالم الأشواق.

ليس ثمّة ما يحتاج إلى التّدليل بأ ن جهد- سيد-في التّفسير الجمالي ضخم وعظيم ، لوأراد أن يفرده لكان عملا تفسيريا كاملاً [3]إلا أنّ القرآن "وحدة "لا يقبل سياقه التجز ئة ، فمثلاً: في آيتي الأنعام السابقتين من سورة النّحل يختلط جانب المنفعة مع الجمال الذي تذكره الآية بلفظه، وكذلك لا يمكن الفصل بين الحركة في الظل والجمال المصاحب لها ، كما في قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَىَ رَبّكَ كَيْفَ مَدّ الظّلّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمّ جَعَلْنَا الشّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ثُمّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً**

[1] ـ في ظلال القرآن .سيد قطب. ج 1، ص : 545.

[2] ـ سورة الملك. الآيتان : 3 – 4.

[3] ـ ينظر:في ظلال القرآن في الميزان.الخالدي صلاح عبد الفتاح.دارا لشهاب،الجزائر،ط1؛ 1406هـ 1986م،ص:387.

يَسِيراً﴾ [1] فلتقي الدلالات التي توحي بها الآيات بالإبداع المتمثل في العرض الجمالي الذي يأسرُ القلوب فتأخذها الدهشة ولا تملك من العبارات والألفاظ وصفاً له.

ويمتزج بناءُ الكون بالجمال الذي هو عنصر أصيلٌ فيه أيضًا فهذه «النجمة الفريدة التي توصوص هناك، وكأنها عين جميلة، تلتمع بالمحبّة والنداء ! وهاتان النجمتان المنفردتان هناك. وقد خلُصتا من الزحام تتناجيان ! وهذه المجموعة المتضامّة المتناثرة هنا وهناك ،وكأنها في حلقة سمر في مهرجان السماء وهي تجتمع وتفترق كأنها رفاق ليلة في مهرجان ! وهذا القمر الحالم الساهي ليلة، والزاهي المزهو ليلة، والمنكسر الخفيض ليلة، والوليد المتفتح للحياة ليلة ،والفاني الذي يدلف للفناء ليلة !... » . [2]

وهكذا يمضي الكاتب يستلهم القرآن، هذا الكتاب الّذي لا تنتهي عجائبه ،ويتأمّل الكون من خلاله ، فيمدّه بما يوقظ الحس وينبهه إلى الجمال في الحركة والسكون، وفي الضوء والظلام ،وفي الحيّ والميّت ،و في المرئي والمغيّب،بل في الدّنيا والآخرة ،ويتوسع به لأن يجعل عالمه طليقًا وجميلاً ،ويزداد الأمر أعمق وأعظم،لأن يقدّم هذا الكتاب ذلك الوصف الجميل للربّ الكريم الّذي يصدر عنه هذا السرّ "الجمال"في كلّ ما خلق .

هذا التوجيه الجمالي في القرآن، عني سيد قطب بإبرازه، وكان يعيشه ويتم لاه من صحبته للقرآن الكريم لأنه طريق موصلٌ إلى الله الصّمد، ولون من ألوان الإعجاز في هذا الكتاب المنزّل الكريم، وقد قدم القراءة الجمالية من خلال القرآن الكريم بعرض شاعري جذاب يهزّ قارئ الظلال ويستثير كوامنه،حتى لا يكاد يفرق بين كلام منثورٍ أو قطعة نشيدٍ !!وذلك من شدة تأثره بمافي القرآن الكريم من جمال أخّاذ .

ب- المزاوجة بين الغرض الديني والغرض الفني :

سبق الحديث أنّ سيدًا لم تكن لديه مشكلة حول علاقة الفن بالدين، وأنه أفرد الجانب الفني بالدراسة، والذي اعتبره هدفا قريبا في كتابيه "التصوير الفني في القرآن " و" مشاهد القيامة في القرآن"

[1] ـ سورة الفرقان. الآيتان : 45 ، 46 .

[2] ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 6، ص : 3633.

وكان هدفه البعيد إعادة عرض القرآن كلّه واستحياء الجمال الخالص فيه وكان ذلك في" ظلال القرآن " غير أنه جدَّت له اهتماماتٌ وهو يتعامل مع القرآن أبرزها «مهمة القرآن الحركية حيث بين سيد قطب دور القرآن الحركي الذي تربّى عليه الصحابة الكرام والذي قادهم في مواجهتهم مع الجاهلية من حولهم وأدى لانتصارهم عليها» [1]، ومع ذلك فقد ظل الهدف الفني ساري المفعول بصورة واضحة كما هو في طبعة الظلال الأخيرة المنقحة.

وقارئ الظلال لا يحتاج إلى عناء في إدراك هذه السمة التي تميز تفسير الظلال، وهي المزاوجة بين الغرض الديني والغرض الفني، تلك السمة التي عثر عليها بفتحٍ من الله في التعبير القرآني، حيث كان يجمع بينهما، وخصوصاً عند حديثه عن الصوّر والمشاهد القرآنية حينما يحلل«الصور والمشاه د ويبين ما فيها من جمالٍ فنيٍّ ساحرٍ، وفي نفس الوقت يبين الغرض الديني» [2] وإلى جانبه الغرض الفني الذي هو طريقة التعبير الفنية بالتصوير، القائمة على التخييل والتجسيم، والتناسق والحركة.

والغرض الفني في القرآن يستند إلى الصّدق الفني ؛ ويعني الاتّفاق بين أجزاء الصورة والاختيار الدقيق للألفاظ، والتناسق في التراكيب، والذي نعته بـــ «جمال العرض، وتنسيق الأداء، وبراعة الإخراج »[3] كما يستند الغرض الفني في القرآن إلى الصّدق الواقعي، وهذا من المسلمات التي لا جدال فيها لأن القرآن كلام الله الخالق، وليس كما ينصرف عادةً إلى القصة الحّرة التي تعتمد التّلفيق والاختراع، وتنحوا هذا النحو لمصلحة الصّدق الفنيّ، متجاهلة الصّدق الواقعي ، والحق الذي لا مرية فيه أنّ القصة في القرآن غير ذلك .

ولقد كان سيد قطب الأديب الناقد على دراية بالعمل الفني تقعيدًا وتقويمًا ، فلم يغب عن باله المزاوجة بين الغرض الفنّي والصّدق الواقعي وعليه فللطابقة التصويرية لمعاني القرآن تعني أن القرآن ﴿**لاّ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾[4]حيث يصير التّعبير بالتّصوير إعجازًا في كلّ القرآن،مادّته الألفاظ والعبارات، تنتفض فيها الحياة وتدبّ فيها الحركة.

---

[1]_ نظرية التصوير الفني عند سيد قطب. الخالدي صلاح عبد الفتاح. ص: 249.

[2]_ المصدر نفسه. ص : 252.

[3]_ التصوير الفني في القرآن. سيد قطب. ص : 204.

[4]_ سورة فصلت. الآية : 42.

وصاحب الظلال من م عايشته لنصوص القرآن وتذوّقها، ظل الجانب الفني مترافقاً مع الأهداف الأخرى عنده وهو يكتب الظلال ممّا يدلّ«على عمق نظرته الجمالية للقرآن، وعلى أصالة فكرة التّصوير في نفسه، وبُعد غورها في أعماق حسّه وفكره ومشاعره، ودليلٌ على جدّية هذه النظ رة وصواب هذه الفكرة ، فالبحث فيها ليس ترفاً عقلياً ولا تسلية نفسية»[1] فبقدر ما يصب هذا الجانب في مجال الدعوة والتفسير فإنّه في النهاية ثمرة من ثمرات الإعجاز.

فعند قوله تعالى ﴿**الّذِينَ يَأْكُلُونَ الرّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاّ كَمَا يَقُومُ الّذِي يَتَخَبّطُهُ الشّيْطَانُ مِنَ الْمَسّ ذَلِكَ بِأَنّهُمْ قَالُوَاْ إِنّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرّبَا وَأَحَلّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرّمَ الرّبَا** ﴾[2] يزاوج ـ سيدـ بين الغرض الدّيني: تحريم الربا، والغرض الفني الذي يتمثل في التّصوير المرعب لآكلي الربا مصحوباً بالحملة المفزعة التي يتولاها الله عليهم، وجرياً على قاعدة مُخاطبة «حاسَّة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية»[3] يقدم القرآن هذه الصورة الجمالية المفزعة للممسوسِ فتنفذ إلى قراره النّفسِ، لأنّ النّفس تستجيب للجانب الجمالي وترنو إليه .

وهذه الصّورة يقدّمها القرآن مجسّمة ومتحركة، يتبطّنها الغرض الديني الذي سيقت له«و يستحضرها لتؤدي دورها الإيحائي في إفزاع الحسّ لاستِجَاشَة مشاعر المرابين وهزّها هزة عنيفةً تخرجهم من مألوف عادتهم في نظامهم الاقتصادي ومن حرصهم على ما يحققّه لهم من الفائدة» [4] فالغرضان الدّيني والفنيّ هما دعامتا التّفسير في الظلال يسيران جنبا إلى جنبٍ كلما كان التّعبير بالتّصوير.

وصورة الممسوس صورة مشهودة اليوم، تعكس المجتمعات الرّبوية التي لا تجد مثقالا من الرّاحةَ ولا الاستقرار، وتعيش عيشة الممسوس والمهووس!! ورغم الرّخاء المادّي والتّقدم العلمي والتّكنولوجي فإنّ النّاس «ليسوا سعداءَ وأنّهم قلقون يطلّ القلق من عيونهم وهم أغنياء! وأنّ الملل يأكل حياتهم وهم مستغرقون في الإنتاج!... ثم يحسون بالحاجةِ إلى الهرب من أنفسهم ومن الخواء الذي يعشّش فيها !

---

[1]_ نظرية التصوير الفني عند سيد قطب. الخالدي عبد الفتاح . ص : 249.

[2]_ سورة البقرة. الآية : 275.

[3]_ مشاهد القيامة في القرآن. سيد قطب. ص : 269.

[4]_ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 1، ص : 324.

ومن الشّقاء الذي ليس له سبب ظاهر من مرافق الحياة وجريانها فيهربون بالانتحار ويهربون بالجنون ويهربون بالشذوذ، ثم يطاردهم شبح القلق والخواء والفراغ ولا يدعهم يستريحون أبدًا»[1].

بمثل ما سبق يعطي القرآن هذه المطابقة التصويرية الرّائعة الحقيقية والصادقة لآكلي الربا الذين يلعب الشيطان بقلوبهم وعقولهم، بعدما خ وَت من الاطمئنان إلى عدل الله، وهكذا يزاوج صاحب الظّلال بين الغرض الفني والغرض الديني وبهما يتضح المعنى ويبلغ التّأثير مداه ، ولو كان المعنى مجردًا فإنّ الوعيد يكون وقعه على الحسّ ضئيلاً والله أعلم.

وعند قوله تعالى: ﴿**إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ ما لَّيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللّهِ عَظِيم**﴾[2] .

عرض الجمال الفني في الصورة التي رسمها القرآن لموقف فريقٍ من المؤمنين من حديث الإفك وهم يرددونه دون وعي لما يقولون، ويتلقّفه لسان عن لسان دون تحرّجٍ، ثمّ أشار إلى الغرض الدّيني الذي سِيقت الصّورة له وهو تلك «الفترة التي أفلت فيها الزّمام واختلّت فيها المقاييس، واضطربت فيها القيم وضاعت فيها الأصول... وهي صورة فيها الخفّة والاستهتار وقلّة التحرّج، وتناوُلُ أعظم الأمورِ وأخطرها بلا مبالاة ولا اهتمامٍ» [3] فالصّورة الفنية المبرزَةُ؛ لسانٌ يتلقّى عن لسان ،وأفواهٌ تقذفُ، كل ذلك بعيدًا عن دورِ الأذن والعقلِ في التلقي، مما يدلّ على خُبث الافتراء وقوّة الكيد الذي قاده المنافقون ضد أقدس بيتٍ وأعزّهِ وهو بيت النبوّةِ الطّاهرة وعرضه الشّريف.

وعند قوله تعالى: ﴿**وَمَثَلُ الّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاّ دُعَآءً وَنِدَآءً صُمّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾[4] .

قدّم الغرض الدّيني:وهو رفض الذين كفروا تلقّي أمر العقيدةِ من الله، بتلقّيهم العقيدةِ من غير الله وذلك بتقليد آبائهم بلا تعقلٍ ولا إدراكٍ، وقدّم الغرض الفني المتمثّل في تلك الصّورة التي تناسب التقليد والجمود «صورة البهيمة السّارحة التي لا تفقه ما يقال لها بل إذا صاح بها راعيها سمعت مجرد

---

[1] ـ المصدر نفسه. ج 1، ص: 326.

[2] ـ سورة النور. الآية: 15.

[3] ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 4، ص: 2502.

[4] ـ سورة البقرة. الآية: 171.

صوتٍ لا تفقه ماذا يعني! بل هم أظل من هذه البهيمة فالبهيمة ترى وتسمع وتصيح، وهم صمٌ بكمٌ عميٌ»[1]، لعدم الانتفاع بهذه الحواس التي هي منافذ المعرفة.

وقد تفنن سيد قطب بأسلوبه المشرق، وهو يتعرّض للنماذج الإنسانية المُتكلَّمِ عنها في القرآن والمُكرّرةِ في دنيا النّاس، فعند قوله تعالى: ﴿**وَإِنّ مِنْكُمْ لَمَن لّيُبَطّئَنّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مّعَهُمْ شَهِيداً**﴾[2] أُبرز الغرض الديني وهو :التحذير من المبطِّئِين المندسّين في الصف الإسلامي سواءٌ من ضعاف الإيمان أو من المنافقين لئلا يسرى التّخذيل والتّثبيط منهم إليكم أيّها الذين آمنوا.

كما أبرز الغرض الفنّي الذي يُجاء به لهذا التحذير ، ويخصّ العمل الذي يقومون به والمتمثل في حركة التّبْطئه، فإذا بهذه الحركة نشاهدها تتكرّر في أناس لهم سلف نزلت فيه هذه الآية ، و ترسم الآية صورهم على مستوى اللفظة : «لفظة (ليبطئن) مختارة هنا بكل ما فيها من ثقل وتعثر ؛ وإن اللسان ليتعثر في حروفها وجرسها حتى يأتي على آخرها وهو يشدّها شدًا، وإنها لتصوّر الحركة النّفسية المصاحبة لها تصويرًا كاملاً بهذا التعثّر والتّثاقل في جرسها، وذلك من بدائع التّصوير الفنّي في القرآن الذي يرسم حالة كاملة بلفظةٍ واحدةٍ» [3]، ولا ريب في ذلك فكتاب«التّصوير الفني في القرآن» هو القراءة الجمالية التي أخذت حيزًا كبيرًا من التفسير، في ظلال القرآن،و الّذي قدّم به ذلك التّفسير الجمالي الممتع، والذي مازال الدّارسون يردونه ويصدرون عنه.

وعلى مستوى العبارة (**وإنّ منكم لمن ليبطئنّ**) تؤدّي الصّورة الّتي يرسمها القرآن الكريم للمبطّئين إلى فضحهم ،وكشف ما تكنّه صدورهم ،وترتفع المؤكّدات الموجودة بالآية بالصّورة إلى درجة الصّدق الّذي ينفي كلّ ريب ،وتُظهرهم الآية الكريمة « بكل بواعثهم وبكل طبيعتهم وبكل أعمالهم وأقوالهم، وهاهم أولاء مكشوفين للأعين كما لو كانوا قد وضعوا تحت مجهر، يكشفُ النوايا والسرائر، ويكشف البواعث والدوافع وهاهم أولاء ـ كما كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه

---

[1]ـ المصدر نفسه. ج 1، ص : 155.

[2]ـ سورة النساء. الآية :72.

[3]ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 2، ص: 705.

وسلم- وكما يكونون في كل زمان ومكان يزاولون التّبطئة ويشيعون الإرجاف، ويمسكون العصا من الوسط في تصورهم للرّبح والخسارة ».[1]

وعند قوله تعالى:﴿ **وَإِذَا جَاؤوكم قَالوا آمنّا وَقد دَخلوا بالكُفر وهم قدْ خَرجوا به وَالله أَعلَمُ بمَا كَانوا يكتمون وَتَرى كَثيراً منهم يُسَارعون في الإثم والعدوَان وأكلهم السّحت لبئسَ مَا كَانُوا يَصنعَون** ﴾[2] أشار إلى الصّورة الفنّية الّتي ترسمها الآيتان الكريمتان؛صورة أولئك الطّائفة من اليهود الّذين كانوا يدخلون على المسلمين وفي جعبتهم "الكفر" ويقولون بألسنتهم آمنّا ويتسارعون في الإثم والعدوان وأكل الحرام، ومن خلال التّعبير بالتّصوير لازلنا بعد آماد من الزّمن نشهد صوّرا متحرّكةً ومشاهد حيّةً ،لأولئك الكفرة من اليهود الّذين كانوا يضمرون الكفر ويبدون الإيمان، وإذا بالقرآن الكريم يكشف بواطنهم ويفضح ألاعيبهم،ويجعلهم عبرة للأجيال .

وبعد ذلك أشار إلى الغرض الدّيني الّذي جاءت له الصّورة الفنّية وهو التّبشيع والتّشنيع من الإثم والعدوان الّذي يستشري في المجتمعات الفاسدة، والمجتمعات الفاسدة ليست هي الجلتمعات القويّة فحسب كما يتوهّم، بل ليست المجتمعات الضّعيفة بمنأى عن ذلك « فحتّ هؤلاء ينساقون في تيّار الإثم وحتّى هؤلاء يملكون الاعتداء؛ إنّهم لا يملكون الاعتداء على الأقويّاء طبعاً، ولكن يعتدي بعضهم على بعض ،ويعتدون على حرمات الله ،لأنّها هي الّتي تكون في المجتمعات الفاسدة الحمى المستباح الّذي لاحارس له من حاكم ولا محكوم فالإثم والعدوان طابع المجتمع الفاسد».[3]والفساد كما يختصّ بالجماعة يختصّ بالأفراد يؤدّونه في صورة كسب، يتنافسون فيه،وتكون عاقبته وخيمة تطال الجميع ولاتستثني أحداً.

وعند قوله تعالى: ﴿... **مَحْصنين غَيْر مسافحين** .. ﴾[4] أشار إلى الغرض الدّيني الذي يرتضيه القرآن الكريم ، في حفظ الحياة الإنسانية ؛وهو الإحصان حماية ووقاية للرّجل والمرأة والبيت والأسرة والأطفال من الدّنس، وأن تعيش الأسرة النّظافة وتذوق الأمن والإستقرار ، هذه المؤسّسة الّتي بدأت

---

[1]_المصدر نفسه.ج 2، ص : 706.

[2]_ سورة المائدة.الآيتان: 61 ،62.

[3]_في ظلال القرآن. سيد قطب . ج 2، ص : 928.

[4]_ سورة النّساء. من الآية: 24.

اليوم في الذّوبان ،والانحلال والــتّفكّك من القيود العائلية،وبدأت تعيش على وقع رجّات السّفاح الّتي ترسل نذرها الأولى "أطفال بلا أسر" .

ثمّ أشار إلى الغرض الفنّي وهو غرض واقعي وصادق ، والّذي رسمه التّعبير القرآني في «صورتين كاملتين لنوعين من الحياة ؛ في كلمتين اثنتين ويبلغ غايته من تحسين الصّورة الّتي يرتضيها وتبشيع الصّورة الّتي لا يرتضيها ،بينما هو يقرّر حقيقة كلّ من الصّورتين في واقع الحياة، وذلك من بدائع التّعبير في القرآن».[1]

على هذا المنوال، كان الرجل يتعرّض للآيات التي فيها التّصوير في التّعبير القرآني إن على مستوى اللفظة الواحدة التي تستقل أحيانًا برسم صورة كاملة، وإن على مستوى العبارة ،مرتكزًا على هذه الثّنائية :الغرض الدّيني والغرض الفنيّ الذي سيق له، لإعتبار أنّ القرآن كتاب دين بالدّرجة الأولى، فالغرض الفنّي في خدمة الغرض الدّيني ،والغرض الفنّي هنا في القرآن قائم على الصّدق الفنيّ والصّدق الواقعي.

[1]_ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 2، ص: 625.

• المبحث الثاني: بين اللُّغة والمشهد .

بين اللّغة و المشهد أمرٌ عجيبٌ، يتمثّل في قيام اللّغة بنقل المشاهد، أَيًّا كان نوع المشاهد من أرقاها إلى تفاهتها، ونقلها نقلا أمينا، يختلف كما لو كانت منقولة بالرّسم، مما يجعل المشهد حيًّا بين يدي المتلقّي، رأى العين، «لأننا حين ننقل الخبر إلى الغير، لا ننقل له حقيقة الأمر (لغة) وإنما ننقل إليه مشهدًا...إذ المستمع لا يتوقف عند اللّغة باعتبارها أصواتاً وألفاظاً وتراكيب و إنّما تتلاشى هذه الحدود في خلده لتكشف عن مشكِّلات المشهد المنقول »[1]. فاللّغة ما هي إلاّ وسيلة تنقل لنا المشهد الذي هو قطعة من الحياة مصغّرة إلى المستمعين، بحيث يتحوّل المستمع إلى مستمع ومشاهدٍ واحدٍ في آنٍ واحدٍ، ويتفاعل مع أحداث المشهد كما لو كان جزءاً منه .

والمشهد قد يحتوي صورةً واحدةَ فقط، وتأخذ مساحة المشهد المعروض كلّه و قد يحوي صورتين أو مجموعة من الصُّوَّر، إذِ المشهد بكامله هو نتاج عملية التّصوير بالتَّعبير وهي الأداة المفضّلة التي استعملها القرآن الكريم في أسلوبه، والكتاب المقروء كلّه معرض لمشاهد لا حصر لها، تقوم اللّغة بواسطة التَّصْوير بتقديمها لنا، نُشاهدها ونسمعها ونحسها ويكون لها كبير الأثر في أنفسنا.

لقد اتَّكأ _سيد_على المشهد باعتباره وسيلة ناجعة و جديدة تضاف إلى الفعل القرائي لمعالجة النص ،وافتكاك حقائقه الكامنة فيه، و قام بانجاز دراسته الرائدة في «التصوير الفني للقرآن» و«مشاهد القيامة في القرآن»أوّل مرّة، وأحدث ذلك الانعطاف الكبير في عالم القراءة حيث أصبح يُؤتى بالمشهد حياً ومرئياً، وينتزع انتزاعا من وسطه سواءٌ كانت المشاهد حدثت في أزمنةٍ سحيقةٍ ماضيةٍ أو مشاهد المستقبل كما هو في مشاهد القيامة، تقطعها اللّغة بأداتها التّصويرية حيّة كأنها اللّحظة حدثت، وتُعرض علينا عرضاً ونحن نشاهدها كأننا نظّارة في مسرح .

ولقد أدرك سيد خاصية اللغة العربية هاته بأنها لا تعرض ألفاظها ومصطلحاتها وإنَّما تعرض المشهد الذي له عناصر لغويّ خاصّة به، تساعد في نقله سريعاً إلى المتلقّي، ولذلك عمد إلى «عرض

---

[1]_ شعرية المشهد في الإبداع الأدبي. حبيب مونسي. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1؛ 2009 م. ص: 4.

المصطلحات البلاغية عرضاً جديداً ، لم يشغل نفسه في تعريفها وتقعيدها وتبويبها وإنَّما اعتبرها مباحث من فنِّ القول ولابد من توفرها في أي أسلوبٍ أدبي بليغٍ» [1] فكان صنيعه بالمصطلح البلاغي أنه لا يقف عنده وإنما يتجاوزه ليبرز ما خلّفه من أثر جمالي دون أن يذكره ،وغالباً ما يكون هذا الأثر الجمالي هو العناصر التصويرية التي تعمل في صلب المشهد ،ويجد مرها المتلقي تلك المتعة وذلك الإعجاز.

ولو أنا ذهبنا نأخذ عينةً، من تفسير العلماء السابقين، كالزمخشري (ت538هـ-1143م) أو الفخر الرَّازي(ت 606 هـ)، أو الألوسي (ت1270هـ- 1854م) فإنا نجد تبحّرهم في اللغة وتمكُّنهم من ناصيتها عظيماً، وكثيرا ما يدفعهم إلى عرض تلك المقدرة اللغوية، وتقليب وجوه النص بالشّرح والتّفسير والتّأويل ،مما يجعل صبر القارئ ينفد أو يتيه داخل المباحث الفقهية واللّغوية وينسى ما يطلبه منه النّص، فضلاً أن يعيش فيه.

بينما نرى أنَّ جهود سيد في عدم إغراق النص بالمباحث المختلفة اللغوية وغيرها هو الطريق الأسهل، إلى الوقوف على مراد النص، وقد كان هذا الهدف واضحاً له منذ البداية « لم أُحاول أن أعقدها بالتّأويلات البعيدة، ولا أن أ دخل عليها مباحث لغوية ودينية لا يقتضيها العرض الجميل» [2] لأنّ طبيعة العرض جزء من تقديم المعنى المراد الذي يؤثّر في النّفوس، فإذا المشهد حيّ محسوس، يسفر عن نفسه بكل ما فيه.

ولقد عَنِيَ القرآن الكريم بالمشهد عامة وبمشاهد القيّامة خاصّة، من حيث الأبعاد الفنّية والدّلالية، واستعملها لأنها أَدْعَى في التَّأثير وأفصح للرسالة، و اهتم سيد بهذا المسلك وكرّس له كتاباً بعينه، ألا وهو«مشاهد القيامة في القرآن» بصورة لم تُؤْلف من ذي قبل وبيَّن أنَّها «مشاهد حية منتزعةٍ من عالم الأحياء، لا ألوانَ مجردةٍ، ولا خطوط جامدةٍ، مشاهد تقاس فيها الأبعادُ والمسافات بالمشاعر والوجدانات، والخواطر والخلجات وتُرْسَمُ المواقف وهي تتفاعل في نفوس آدميةٍ حيةٍ أو في شخوص من الطبيعة تُخلع عليها الحياة».[3]

---

[1]_ نظرية التصوير الفني عند سيد قطب. الخالدي صلاح عبد الفتاح. ص: 374.

[2]_ مشاهد القيامة في القرآن. سيد قطب. ص: 9.

[3]_ التصوير الفني في القرآن. سيد قطب. ص: 43.

وبواسطة المشاهد ينتقل القرآن الكريم بالإنسان من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان دون حدودٍ، جيئةً وذهاباً، بل ينقلنا إلى الحياة الحقيقية المستقبلية التي لم تقع بعد، فإذا هي حاضرة اليوم ، تراها العين وتحسّها النّفس ،ونمسك بالحقيقة بكلّ أبعادها ،تقدّم لنا عبر طريقة التصوير في التّعبير القرآني الكريم ،وطريقة التّصوير تكمن أهمّيتها في جهتين :جهة أنّها للجميع ؛ يقرؤها العالم والجاهل والجهة الأخرى أنّها أرفع وسائل التأثير.

لقد كان ـ سيد قطب ـ لحظةً فارقةً في عالم القراءة بتلك القراءة المشهدية التي فاقت الشّرح، والتفسير، والتعليق، وخفّفت من وطأة التأويل [1] الذي لطالما لامس الذهن دون أن يأبه بالجانب الوجداني من الإنسان ولكي يزداد الأمر وضوحاً نأخذ في بسط بعض النّماذج للموازنة بينها، عند سيد قطب باعتباره مُركّزاً على القراءة المشهدية ،وبين عملاق اللُّغة الزمخشري ـ رحمهما الله ـ

1 ـ النموذج الأوّل:

قال الله تعالى:﴿**مَثَلُ الَذِينَ يُنْفِقُونَ أمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كلِّ سُنْبُلَةٍ مَائَةُ حَبَّةٍ واللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ واللهُ وَاسِع عَلِيمٌ**﴾[2].

قال الزمخشري في تفسير الآية (مَثَلُ الَذِينَ يُنْفقُونَ) «لابد من حذف مضاف أي مثُ ل نفقتهم كمثل حبَّةٍ، أو مثلهم كمثل با ذر حبَّةٍ، والمُنْبتُ هو الله، ولكن الحبة لما كانت سبباً أ سنِد إليها الإنبات كما يسند إلى الأرض وإلى الماء، ومعنى إنباتها سبع سنابل، أن تُخرجَ ساقاً يتشعب منها سبعُ شعبٍ، لكل واحدةٍ سنبلةٍ، وهذا التمثيل تصوير للأضعاف. كأنها ماثلة بين عيني النّاظر فإن قلت كيف صح هذا التمثيل والممثل به غير موجود؟ قلت بل هو موجودٌ في الدخن والذرة وغيرهما، وربما فرّخت ساق البُرّة في الأراضي القوية المُقلّة، فيبلغ حبّها هذا المبلغ، ولو لم يوجد لكان صحيحاً على

---

[1] ـ لا يُذمّ التّأويل لذاته ، وإنما يُذمّ حين يراد به الفتنة." فالتّأويل الإسلامي هو السّبيل إلى طمأنينة الإيمان الدّيني وليس سبيل تفريغ الدّين من الإيمان ". ينظر: قراءة النص الدّيني بين التّأويل الغربي والتّأويل الإسلامي. محمدعمارة. مكتبة الشروق،القاهرة، ط1؛1427هـ-2006م ، ص : 37.

[2] ـ سورة البقرة. الآية: 261.

سبيل الفرض والتقدير،فإن قلت هلا قيل سبع سنبلات على حقّه من التّمييز بجمع القلّةِ كما قال سبع ﴿**سُنْبُلاَتٍ خُضْرٍ**﴾[1] قلت هذا لما قدمت عند قوله ﴿**ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ**﴾[2] من وقوع أمثلة الجمع متعاورةً مواقعها (**والله يضاعف لمن يشاء**) أي يضاعف تلك المضاعفة لمن يشاء ، لا لكل منفقٍ لتفاوتِ أحوال المُنفقين، يضاعف سبع مئة، ويزيد عليها أضعافها لمن يستوجب ذلك»[3]

وفي هذه الآية الواحدة نلحظ ذلك الحشد اللغوي المتمثل في الأبحاث المعجميّة والنّحوية والبلاغية وانتهاءً بتأويلاتٍ مُفترضةٍ، جاعلاً القارئ أمامه يسأله ويُجيبه فيقول: فإن قُلت... قُلــتُ... وهو كما ترى مغادرة جوّ الآية الكريمة. [4]

ويقول ـسيد قطبـ في تفسير هذه الآية «إن الدّستور لا يبدأ بالفرض والتّكليف إنما يبدأ بالحَضِّ والتّأليف، إنه يستجيش المشاعر والانفعالات الحيَّةِ في الكيّان الإنساني كلّهِ. إنه يعرض صورة من صوّر الحياة النّابضة النّامية المعطية الواهبة، صورة الزّرع هبة الأرض أو هبة الله، الزرع الذي يعطي أضعاف ما يأخذه ويهب غلاته مضاعفةً بالقياس إلى بذوره. يعرض هذه الصورة الموحية مثلاً للذين ينفقون أموالهم في سبيل الله .

إنّ المعنى الذّهني للتّعبير ينتهي إلى عملية حسابية تضاعف الحبّة الواحدة إلى سبعمائة حبة ! أما المشهد الحي الذي يعرضه التّعبير فهو أوسع من هذا وأجمل، وأكثر استجاشة للمشاعر وتأثيراً في الضّمائر، إنّه مشهد الحياة النّامية، مشهد الطّبيعة الحيّة، مشهد الزّراعة الواهبة، ثم مشهد العجيبة في

---

[1]ـسورة يوسف. من الآية: 46.

[2]ـسورة البقرة. الآية: 228 .

[3]ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري جار الله محمود بن عمر.(تح) عادل عبد الموجود وآخرون، مكتبة العبيكان. الرياض، ط1؛ 1418هـ-1998م، ج1، ص: 494.

[4]ـ ينظر: "منهجية التّجديد بين الزمخشري وسيد قطب دراسة تحليلية تطبيقية مقارنة ". محمد رفعت زنجير .مجلّة الشريعة والدّراسات الإسلامية ،الكويت،عدد؛ 22أكتوبر 2011م ،ص: 76. وما بعدها

عالم النّبات، العود الذي يحمل سبع سنابل. والسّنبلة التي تحوي ما ئة حبّة ! وفي موكب الحياة النّامية الواهبة يتّجه للضّمير البشري إلى البذل والعطاء، إنه لا يعطي بل يأخذ، وإنه لا يُنقص بل يُزاد... وتمضي موجة العطاء والنّماء في طريقها تضاعف المشاعر التي استجاشها مشهد الزّرع والحصيلة إن الله يضاعف لمن يشاء ، يضاعف بلا عدّةٍ ولا حساب يضاعف من رزقه الّذي لا يعلم أحدٌ حدوده، ومن رحمته ومن الرحمة التي لا يعرف أحدٌ مداها (والله واسع عليم) واسع...لا يضيق عطاءه ولا يكفُّ ولا ينضب. عليم يعلم النوايا ويثيب عليها ولا تخفى عليه خافية»[1]

هكذا عرض سيد الآية على أنها كلَّها مشهد يفيض بالبذل والعطاء والبركة، فبعد أن بيّن كيف يغرس الإسلام الإنفاق في نفوس المسلمين، ذلك الغرس الذي يبدأ في نزيه المشاعر وفي أعماق النفوس، راح يقدم مشهد الزراعة والإنبات، والعطاء والنماء، مشهد الحياة النامية التي يريد الإسلام لأصحابه أن يحيَوها، دون أن يغادر جوّ الآية الكريمة إلى مبحث لغوي أو غيره من المباحث، وقدم للمتلقي المشهد كما هو حتى كأنما يذكِّر بالآية ويُشيرُ لك إلى مواضع فيها، فتكون فعلاً شريكاً في التلقِّي لِبساطة ما يدعوك إليه، شريكاً بخيالك وبإحساسك وبتفاعلك معه بكلّ كيانك .

2 -النموذج الثاني :

قال الله تعالى﴿...وأُشْرِبُواْ فِي قلوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾[2]

يقول :ـسيد قطب ـ« فأما الصورة الغليظة التي ترسمها(**وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ**) فهي صورة فريدة. لقد أُشربوا، أشربوا بفعل فاعل سواهم، أشربوا ماذا ؟ أشربوا العج ل! وأين أشربوه ؟ اشربوه في قلوبهم ! ويظلّ الخيال يتمثل ذلك المحاولة العنيفة الغليظة، وتلك الصورة الساخرة الهازئة، صورة العجل يُدخل في القلب إدخالاً، ويحشر فيه حشراً حتى ليكاد ينسى المعنى الذهني الذي جاءت هذه الصورة المجسمة لتؤدِّيه، وهي حبهم الشديد لعبادة العجل، حتى لكأ نهم أشربوه إشراباً في

(1)ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج1، ص:306 .

(2)ـ سورة البقرة. من الآية: 93 .

(3)ـ المصدر نفسه. ج 1، ص: 91 و 92.

القلوب ! هنا تبدو قيمة التعبير القرآني المصوّر، بالقيّاس إلى التعبير الذهني المفسّر، إنه التصوير ؛السمة البارزة في التعبير القرآني الجميل»[1]

وأمّا الزّمخشري فيقول:« أي تداخلهم حبُّه والحرص علي عبادته، كما يتداخل الثّوب الصبّغ وقوله (**فِي قلوُبِهِمْ**) بيان لمكان الإشراب كقوله:﴿ **اِنَّمَا يَأكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً** ﴾[2] بكفرهم بسبب كفرهم »[3]

في هذه الصورة الجميلة أتى الزّمخشري بتشبيه وأوجز في تفسير الآية ،بينما سيّد بعدما ربط الآية بسابقتها اِلتفت عامداً ليقف عند هذه الصّورة، كأنما هو يقصد هذه الصّورة قصداً التي هي وحدها تملأ المشهد بحسّيتها،تلك الصّورة الغليظة العنيفة، التي سجلها الله على عبَدة العجل في هذا النّوع من العبادة الغريبة. كما لم ينس أن يشير إلى طريقة التّعبير القرآني .

وسيد إذ يدعوا إلى تأمّل المشهد، فلأن صوّر القرآن تشد القارئ شداً وتأسر قلبه وتُؤثر فيه، وكان من أجلّ أهدافههو تقريب المسلم المعاصر من القرآن، ثم تركه يباشره ويلامسه بقلبه كما لو كان يتنزل أوّل مرّة، وتقديمنا للموازنة بين تفسير سيد قطب والزمخشري ـ رحمهما الله ـ للآيتين إنما نريد به كيف تتراجع اللغة فاسحةً المجال للمشهد كوسيلة إيضاح حيةٍ يستطيع المتلقّي استغلالها والتعامل معها، والتأثر بها في الإمساك بالمعنى.

وقد كان الزّمخشري –رحمه الله– يهُمُّ بإيضاح الصُّور لكنه كان لا يذهب بها بعيداً بسبب القيود اللّغوية التي كان يلتفت إليها بالتّقعيد والتّبويب، ولعلّ القراءة التي كان يقدّمها بهذا الشّكل كانت تحتفظ بوجاهتها الحقيقية ،نظراً لأنّ قواعد النّحو كانت غضّة ويافعة في ذلك الزّمان، بحيث كانت هي الوسيلة الوحيدة للقراءة، كما نأخذ في الحسبان اختلاف الزمان .

أما سيد قطب ـ كالزمخشري ـ قد أحسن اللُّغة ولا ريب في ذلك ،وأحسن القراءة المشهدية أيضاً وكانت العناصر اللّغوية وعناصر المشهد في يديه،كأنهما طرفا عنان يعرف متَى يَرخي أحدهما ومتى يمسكُ

(2)ـ سورة النساء. من الآية: 10 .

(3) ـ الكشاف. الزمخشري. ج 1، ص: 198.

بالآخر أو متى يقبضهما أو يَبْسُطهُما جميعاً، وهي التي عناها بقوله من أنه لابد « من خبرةٍ لغوية وفنيةٍ وموهبةٍ خاصةٍ في التّطبيق، تطبيق هذه القواعد النّظرية على النّموذج ،فكثيرون يعرفون الأصول الفنّية المقرّرة ولكنّهم عندما يواجهون النّموذج يخطئون وينحرفون بهذه الأصول »[1] و سيد قطب في ظلاله وهو يتعامل مع اللّغة وأداتها التّصويرية، فقد كان الخبير الفنّان والله المستعان.

أ – مصطلحات النحو والبلاغة:

إذا أدركنا أن سيد قطب كان يفتنّ في استعمال العناصر التصويرية والعناصر اللغوية إلى درجة عالية من الإحسان، فإنه كثيراً ما نُعِت بأنه قفز على النحو والبلاغة وأهملهما أثناء تفسيره، وهؤلاء كثيراً ما يعتمدون على هذه القطعة النقدية، ويسحبونها على البلاغة دون أن يتبينوها، وهي قوله «ولكنهم شغلوا أنفسهم بمباحث عقيمة حول اللفظ والمعنى أيهما تكمن فيه البلاغة، ومنهم من غلبت عليه روح القواعد البلاغية، فأفسد الجمال الكلي المنسق، أو انصرف عنه إلى التقسيم والتبويب ووصلوا في هذا وذاك ـ في بعض الأحيان ـ إلى درجة من الإسفافِ لا تطاق »[2] كما وجدوا الظّلال خالياً من التقعيدات التي ألفوها في بعض التّفاسير في النحو والبلاغة فظنوا أن سيداً لا يكترث به ما ولا يقيم لهما وزنا.

والحقيقة أن الفعل القرائي عند سيد قطب قائم على البساطة في وضع اليد على المعنى مراعياً بذلك المقصدية التي هي مفتاح النّظرية النقدية العربية في التراث [3]، والتي هي في الأصل ذات جُذورٍ دينية، تنأى بنفسها عن الشطط في الآراء وعن التشتُّت الدلالي الذي يجيء نتيجة حجج علمية تبدوا وجيهةٍ ﴿**وَمَا تَفَرّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إلاَّ مِنْ بَعْد مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ**﴾[4]،وعدم الانحراف بالمعنى عن الهدف الذي سِيق له، رغم أن التأويلات كانت بشكل رهيب ولازالت، وأن الاعتماد على

---

[1] ـ النقد الأدبي أصوله ومناهجه. سيد قطب. دار الشروق، القاهرة، ط 8؛ 1424هـ – 2003م.ص: 133 .

[2] ـ التصوير الفني في القرآن. سيد قطب. ص: 29.

[3] ـ ينظر:القراءة وتوليد الدّلالة. حميد لحميداني.المركز الثّقافي العربي، الدار البيضاء،المغرب، ط1؛2003 م، ص:5 .

[4] ـ سورة البينة .الآية: 04.

الآليات والإجراءات المعقدة، يودع مضمون الرسالة مبكراً، ويحول بينها وبين الاستجابة ،وخصوصاً في النصوص الدينية التي مدارها على التسليم وتوخي المقاصد .

وسيد قطب كان حريصا على أن لا يشوّش على القارئ في فَهْم ه الدلالة بالأبحاث اللغوية، والفقهية والكلامية، فتحيد الرسالة عن الهدف وتتحوّل إلى مُحصّل ذهني بَاردٍ يتلاشى شيئاً فشيئاً، لقد كان جاداً في طبيعة البحث، ودائماً كان يشير إلى حدود البحث التي يرسمها الإسلام وإلى منهج المعرفة المرتبط بالعمل الذي يرتضيه، ومن ثم «ثقافة سيد اللغوية وسيلة في الظلال وليست غايةً، حيث استخدم علوم النحو والبلاغة، والأدب والنقد، وسائل لعرض أفكاره، وتحقيق أهدافه. وهو في هذا يختلف عن بعض السابقين من المفسرين الذين كان تناولهم لهذه المباحث هدفاً وغايةً، سواءٌ في النحو أو فقه اللغة أو البلاغة وأساليب البيان ولهذا نجد تعرضه، لقضايا النحو والبلاغة والقراءات، قليل في الظلال، بالمقدار الذي يحقق كونها وسائل»[1]، إذا فالقضية قضية مقدار وليست تركاً وإهمالاً .

وإذا كان سيد لا يَرْكُم القواعد اللغوية على ظهر النص بل يخرج بالقاعدة من المثال ،وما جعلت له من حفظ للّغة ، إلى الإبداع بحيث يرسلها في أسلوبه بمقدار مناسبٍ ومحدّدٍ، وأنّ أيضاً أثناء ورودها في النص والإشارة إليها ، لا يتوا نى في إطلاق إشعاعاتها وإحياء ها في سياقاتها، وإخراجها مخرج التّعبير الجميل الذي يثير متعة في النّفس بكاملها .

فعند قوله تعالى: ﴿**نسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمُ أَنَّى شِئْتُمْ** ...﴾[2] أشارالى أنه «في هذا التعبير ألوان من التناسق الظاهر والمضمر، ومن لطف الكناية عن ملابسات دقيقة، وأدق ما فيه ذلك التشابه بين صلة الزارع بحرثه، وصلة الزوج في هذا المجال الخاص وبين ذلك النبت الذي يخرجه الحرث، وذلك النبت الذي تخرجُه الزوج، وما في كليهما من تكثير وعمران وفلاح، وكل هذه الصّور تنطوي تحت استعارةٍ في بضع كلمات»[3].

---

[1]_ مدخل إلى ظلال القرآن. الخالدي صلاح عبد الفتاح، ص: 183 .

[2]_ سورة البقرة. الآية: 223 .

[3]_ التصوير الفني في القرآن. سيد قطب. ص: 91 .

فقد أورد مصطلحات بلاغية بعينها، الكناية، والتشابه، والاستعارة، لأنها عماد الصور ومن ثم بيّن التناسق الذي أحدثه في التعبير، فلم يلتفت إلى القاعدة بقدر ما أشعر بإيضاءاتها في التّعبير من تناسق ظاهر ومضمرٍ، وهذا دَيْدَنُه مع جميع المصطلحات البلاغية والنحوية، سواءٌ ذكرها بعينها أو اعتمد على مضمونها دون ذكرها .

وعند قوله تعالى: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذينَ آمَنُوا الْيَهُودَ والذِينَ أَشْرَكُوا...** ﴾[1] تساءل سيد عن سرِّ تقديم اليهود على المشركين في شدة العداء للمؤمنين فقال: «نعم إنّ العطف بالواو في التعبير العربي تفيد الجمع بين الأمرين ولا يفيد تعقيباً ولا ترتيباً، ولكن تقديم اليهود هنا حيث يقوم الظن بأنهم أقل عداوة للمؤمنين من المشركين بما أنهم أصلاً أهل كتاب، يجعل لهذا التقديم شأنا خاصاً غير المألوف من العطف بالواو في التع يو العربي ! إنه على الأقل يوجِّه النظر إلى أنهم كونهم أهل كتاب لم يغير من الحقيقة الواقعة وهي أنهم كالذين أشركوا أشد عداوة للذين آمنوا ! ونقول إن هذا على الأقل، ولا ينفي هذا احتمال أن يكون المقصود هو تقديمهم في شدة العداء على الذين أشركوا...»[2]

ولكنا نلاحظ هنا أن الدلالة النحوية المستفادة من حرف العطف"الواو" توقفت لا تريم لأنّا حين نقارن بين عدائي المشركين واليهود تاريخياً، نجد أن شر اليهود أثقل ميزاناً في الدنيا والآخرة، وعليه فإن الواو لا تفيد التساوي في شدة العداء بين الطرفين فهي لا تعطينا الفصل فيمن هم أشد عداوةً، فأردفها بالعداء المتأصل على طول التاريخ الإسلامي، وعبر التاريخ القديم والحديث مما جعل الدلالة التاريخية تعرب عن سر التقديم في العداء: اليهود! ومن غيرهم أشد عداوة ؟! .

إنّ الأدوات القرائية لا تضطلع أحيانا بالرّصد للمعنى، وذلك كون النّص أكبر من الأداة المستعملة « فبلاغة القرآن أعظم وأسمى من أن تخضع لمقاييس النّحو وتخريج النّحاة ! فليس في كلمات الله ما يحتاج إلى علل النّحاة ومماحكاتهم ليستقيم على علمهم، ولينضبط على قواعدهم، وحسب القرآن أن يقول قولا أو ينهج أسلوبا فيكون قوله الحق وأسلوبه الفصل ولا عليه أن تضطرب

---

[1]_ سورة المائدة .الآية: 82 .

[2]_ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج2، ص: 960 .

قواعد النّحو وتتبلبل عقول النّحاة !»[1]، ومن ثم يتبين خطل الذين يُخضعون الدّراسات القرآنية للمناهج اللّغوية التي نشأت في الغرب، وترعرعت هناك.

كان سيّد ذوّاقة للنّصوص، إذا أورد فكرة أو تصدّى لموضوعٍ فإنّه يعطيه حقّه من التّمحيص ويتابعه في كل الآيات التي يرد فيها بالملاحظة والبيان، وقضية الحاكمية أوتلقّي التّشريع من غير الله هي من مواضيع العصر التي كانت تشغل اهتمامه في كل سورة ، وفي كل مقطع وعند كل آية وكان في طليعة المفسرين إن لم نقل كان وحده !! إذ أطال الوقوف عندها وحشد لها أنماط الدلالة حتى أسفر عن وجهها ،ثمّ صدع بعد ذلك بما استقرّ لديه، وإن رأى الحقّ عند غيره آب إليه، فالأزمة أزمة صدق !! وليست أزمة كتابة كما يتوهّم، فما كلّ من دبّج سطورا يقال له كاتب !!وشتّان بين كلمات حبيسة الأدراج،وأخرى طليقة تهتزّ من سماعها الأفئدة.

عند قوله تعالى: ﴿ **أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنْفُسَهُمْ يَنصُرُونَ** ﴾[2] بين قضية الشرك بالله وأنواعه وصُوَّره الجديدة التي يلبسها ويتلبّس بها على أصحابه، أشار أن الآية أنكرت على العرب المشركين شركهم، والمعهود أن العرب كانت الأصنام هي الشركاء المعبودة، غير أن ضمير العاقل في الآية (هم) في أنف سرهم «والواو والنون» في ينصرون توحي بأنه «كان يعني تقريعهم على اتخاذ آلهة من البشر... يتلقّون منهم الشّرائع الاجتماعية والأحكام في النّزاعات- أي الحاكمية الأرضية- وأن القرآن يعبّر عن هذا بالشّرك ويسوّي بينه وبين شركهم الآخر بالأوثان والأصنام سواءً.»[3] وعلى كل فإن الدّلالة النّحوية هنا في الآية هي التي اتّكأ عليها وحده في توسيع مفهوم الشّرك الّذي يزاوله المشركون.

وقد يكون التّركيب البلاغي مثيرًا في آية من الآيات مثل قوله تعالى:﴿ **وَلاَ تَزَالُ تَطلِعُ عَلَىَ خَائِنَةٍ مّنْهُمْ إِلاّ قَلِيلاً منْهُمُ**﴾[4]مما يدفعه إلى استنباط دلالاته الحركية والنّفسية، ويبرزه إبرازاً، والمعنى

---

[1]_ التّفسير والنّص. السيد أحمد عبد الغفار، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، (د ط ت)، ص:264.

[2]_ سورة الأعراف .الآيتان: 191، 192 .

[3]_ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 3، ص: 1414.

[3]_ سورة المائدة .الآية: 13 .

المتبادر من الآية: «إنّ الخيانة والغدر من عادتهم وعادة أسلافهم لا تزال ترى ذلك منهم »[1] ودارس السيرة النّبوية لايجد صعوبة في ملاحظة الخيانات المتكرّرة من اليهود، كما لا يجد مزعة حياء عندهم تزجرهم أن يعاودوا ارتكاب القبيح واشتهائه.

وبالإضافة إلى تاريخ اليهود الذي يُغني في تفسير الآية عن كلّ الوجوه كما ذهب بعض المفسرين ،فإن سيدا أشار إلى الوجه البلاغي في حذف الموصوف قبل كلمة خائنةٍ، والسرّ في ذلك أن «الفعْلة الخائنة والكلمة الخائنة والنيّة الخائنة والنّظرة الخائنة؛ يحملها النّص بحذف الموصوف واثبات الصّفة (خائنة) لتبقى الخيّانة وحدها مجردةً، تملأ الجو،وتلقي ظلالها وحدها على القوم فهذا هو جوهر جبلتهم، وهذا هو جوهر موقفهم...»[2] وكذلك مازالوا «خائنة» في هذا العصر،وصدق الله العظيم.

وعند قوله تعالى: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمّةٍ أُخرِجَتْ لِلنّاسِ...**﴾[3] لاحظ بناء الفعل لغير الفاعل بحيث دفعه هذا التّركيب النّحوي بقوله «تعبير يلفت النظر، وهو يكاد يشي باليد المدبرة اللّطيفة، تُخرج هذه الأمّة إخراجًا وتدفعها إلى الظهور دفعًا من ظلمات الغيب ومن وراء السّتار السّرمدي الذي لا يعلم ما وراءه إلا الله إنها كلمة تصوّر حركة خفية المسرى لطيفة الدّبيب، حركة تخرج على مسرح الوجود أمّة، أمّة ذات دور خاصّ، لها مقام خاصّ ولها حساب خاصّ »[4] وقد أخرج الله-سبحانه- هذه الأمّة لحكمة جليلة، بأن تكون شاهدة على النّاس بما تقوم به من عدل ربّاني في الأرض؛ متمثّلاً في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

وعند قوله تعالى: ﴿**وإذْ قَالَ لُقمان لابنه وهو يَعظُه يا بني لا تشْرك بالله إنّ الشّرك لظلمٌ عظيمٌ**﴾[5] استوقفته هذه العظة غير المتّهمة من لقمان الحكيم ـ عليه السّلام ـ لابنه وهو ينهاه عن الشّرك الّذي هو أكبر الكبائر «ويؤكد هذه الحقيقة مرّتين :مرّة بتقديم النّهي وفصل علّته، ومرّةً بإنّ واللام وهذه هي الحقيقة الّتي يعرضها محمّد ـصلّى الله عليه وسلّم- على قومه فيجادلونه فيها ،

---

[1] ـ أنوار التّنزيل وأسرارا لتأويل. البيضاوي ، القاضي ناصر الدين عبد الله بن عمر محمد الشيرازي. مطبعة عثمانية ،(د ط)؛ 1305هـ،ص: 144 .

[2] ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 2، ص: 859.

[3] ـ سورة آل عمران. من الآية: 110 .

[4] ـ المصدر نفسه. ج 1، ص: 447 .

[5] ـسورة لقمان .الآية:13 .

ويشكّون في غرضه من وراء عرضها...فما القول ولقمان الحكيم يعرضها على ابنه ويأمره بها؟والنّصيحة من الوالد لولده مبرّأة من كلّ شبهة، بعيدة من كلّ ظنّة؟ألا إنّها الحقيقة القديمة الّتي تجري على لسان كل من آتاه الله الحكمة من النّاس؛يراد بها الخير المحض، ولا يراد بها سواه،وهذا هو المؤثّر المقصود »[1]. ولّما كانت قضيّة الشّرك خطيرة ، لم يكتف بالعظة المبرّأة من كلّ ريبة ، وإنّما زاد أن اتّكأ على الدّلالة النّحوية بالقدر المطلوب .

حسب هذه النماذج السابقة، يتبين أنّ سيد لم يكن يعنيه التوجيه النحوي والبلاغي بقدر ما كان يعنيه الظفر بالدلالة والمسك بها من أي وجهٍ عنّت له، و لم تكن القضايا النحوية والبلاغية[*] مثار جدلٍ عنده، يبني ببعضها رأياً ويهدّم آخر، أو يستعرض تقعيداتها طمعاً في تثقيف القارئ،وإكثارا من الوجوه وإنما كانت وسيلة يُتبَلَّغُ بها إلى المقصود، والخروج م ن النّص القرآني بالدلالات العقيدية والتربوية والحركية وغيرها وكان هذا النّهج الذي سلكه أ أْمَن للقارئ في إدراك المبتغى من الآية بلطف، وجعله بعيدًا عن التّعقيد والتّشويش .

ب – دلالات الألفاظ:

يرجع الفضل لسيد قطب في تصويبه كثيرا من الآراء، داخل حركة النقد الأدبي والتي استفادت منها واستثمرتها الدراسات القرآنية والأدبية جميعا فيما بعد، ومن أجود ما أبرع فيه «علاقة القيم الشعورية بالقيم التعبيرية» والتي عالجها في كتبه خاصّة "التصوير الفني في القرآن" و"كتب وشخصيات" و"النقد الأدبي أصوله ومناهجه" وكان تطبيقها الأوفى في تفسيره "في ظلال القرآن " .

وقد تتبع القيم الشعورية بالإيضاح من حين انبثاقها من الضمير إلى أن تُصَبَّ في الألفاظ، وسجل على الشعر العربي أنه يندر فيه وصف الأحاسيس والشُعورات بالتفصيل جزءًا جزءًا، رغم أنّ الشّعرصورة من« اللحظات الأقوى والأملأ بالطّاقة الشعورية في الحياة»[3] كما سجّل على الشّعر العربي عموماً عدم استفادته من القرآن الكريم باعتباره كتاب العربية الأوّل ودليلها الأحقّ بالرّجوع إليه.

---

[1]_ في ظلال القرآن. سيد قطب .ج 5، ص: 2788 .

[*]_ هناك قضايا نحوية في :(المائدة 45)،(آل عمران 14)،(النساء162)،(الأعراف2) ،(الذاريات46)، (البروج4،5).

[2]_ النقد الأدبي أصوله ومناهجه.سيد قطب. ص: 65 .

في البداية يرى۔ سيد۔ أن القيم الشعورية والقيم التعبيرية تؤلف وحدةً يصعب الفصل بينهما، وأنّ المحاولة التي حدثت للفصل بين اللفظ والمعنى في القديم باءت بالفشل ، ووصلت إلى طريق مسدود أضل بنتيجة البحث، من ذلك عدم إدراك الارتباط الذي يغذّيه التكامل بين القيم التّعبيرية والقيم الشّعورية في إنتاج الدّلالة، لأن الدّلالة في التّعبير الأدبي تتولّد من عناصر شتّى تختلف كما لو أخذت من التّعبير العلمي حيث تنتهي عند الدّلالة الذّهنية التّجريدية.

وإنما تتدخل عدة مؤثرات في تكوينها «وهذه المؤثرات هي الإيقاع الموسيقي للكلمات والعبارات، والصور والظلال التي يشغلها اللفظ وتُشعها العبارات زائدة على المعنى الذهني ثم طريقة تناول الموضوع والسير فيه، أي الأسلوب الذي تُعرضُ به التجارب وتُنسّقُ على أساسه الكلما ت والعبارات»[1] ورهافة حسّه هي التي جعلته يلتقط هذه الإشعاعات الموجودة في الألفاظ، والتي تسهم في إغناء الطاقة التعبيرية لأي نص أبدع فيه صاحبه .

ونشأ هذا الفهم عنده من دراسته العميقةً والمفصّلةً للّغة ، خاصّةً الملابسات التي اِكتنفت الألفاظ من يوم مولدها « كصورة المشهد أو الحادث الذي صاحب إطلاق هذه الصورة التي تستحيل إلى ذكرى شعورية ترد على الخيال كلما ذكر اللفظ ورنّ جرسه في السمع» [2] وكذلك الظل المصاحب للصورة، فإذا كانت الأذن معنية بجرس الألفاظ استقبالاً وتأثرًا، فان الظلال موكّلة بالخيال، حيث يقوم الخيال بتلقف تلك الصوّر والظلال التي تُشعها الألفاظ والتي علقت بها عبر تاريخها السحيق فيثور في النفس جمال جرّاء تملّي الخيال للصّور والظلال .

إنّ الاهتمام بالألفاظ ودلالاتها قديما، قد نضج على أيدي العلماء والنقاد، خاصة ضبط الدلالة اللغوية، ولذلك قال : العالم الجليل "الراغب الأصفهاني" في مقدمة كتابه (مفردات ألفاظ القرآن) مشيرًا إلى دقة ألفاظ القرآن الكريم «فألفاظ القرآن هي لبُّ كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء، في أحكامهم وحكمهم ،واليها مفزَع حذّاق الشعراء

[1]۔ النقد الأدبي أصوله ومناهجه . سيد قطب. ص: 40 .

[2]۔ المصدر نفسه . ص: 42.

والبلغاء في نظمهم ونثرهم .»[1] بل كيف يُدرِك الإعجاز البياني، من لم يكن على علم بلسان العرب أسلوبًا ومعنًى ؟!.

غير أنّ الإنجاز الرّائع الذي أضافه_سيد_يتمثّل في الذي لم يُسبق إليه: إشعاعات الألفاظ ؛الصّور والظلال ،« فكما إن للشّخُوص ظِلالاً، كذلك للألفاظ ظلالاً خاصةً، ولا يدركها ولا يتذوّقها إلا الأديب الفنّان ... وقد أدرك _سيد قطب_ما للألفاظ من ظلال صاحبتها من دلالتها التّاريخية، كما أدرك الظلال التي تصاحبها وهي في نسق كاملٍ وقد استروح في هذه الظّلال، وأحسن تذوّقها، وأحسن بيانها للنّاس»[2]

وعند قوله تعالى من سورة إبراهيم الآيتان : ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السّمَآءِ تُؤْتِيَ أُكُلَهَا كُلّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنّاسِ لَعَلّهُمْ يَتَذَكّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ يُثَبّتُ اللّهُ الّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدّنْيَا وَفِي الاَخِرَةِ وَيُضِلّ اللّهُ الظّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَآءُ**﴾[3]راح يُعرج على سنن التّدافع في الحياة، بعدما بيّن المثل المضروب و استخرج الإيحاءات والظّلال التي توحي بها الألفاظ و لم يقف عند المعنى اللّغوي الذّهني .

وقد أوحت له الآية الكريمة هذه الظّلال الجميلة فراح يسكبها في قلوبنا مبينًا أن «ليس هذا وذلك مجرد مثل يضرب، ولا مجرد عزاء للطّيبين وتشجيعٌ إنما هو الواقع في الحياة ولو أبطأ تحقيقه في بعض الأحيان، والخير الأصيل لا يموت ولا يذوي مهما زحمه الشّر وأخذ عليه الطّريق والشّر كذلك لا يعيش إلا ريثما يستهلك بعض الخير المتلبّس به _ فقلّما يوجد الشرّ الخالص _ وعندما يستهلك مايلابسه من الخير فلا تبقى فيه منه بقيّة، فإنه يتهالك ويتهشّم مهما تضخّم واستطال إنّ الخير بخير! وإن الشرّ بشرّ! ».[4]

---

[1]_ مفردات ألفاظ القرآن.الراغب الأصفهاني. تح: صفوان داوودي، دار القلم، دمشق، ط1 ؛1412هـ، ص:55.

[2]_ نظرية التصوير الفني عند سيد قطب. الخالدي صلاح عبد الفتاح . ص: 98 ، 99.

[3]_ سورة إبراهيم. الآية: 24 -27.

[4]_ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج4، ص: 2099 .

وهكذا كان يشير إلى الظلال التي تشعّها الألفاظ والتي استشفّها بوقفاته أمام كثير من الآيات القرآنية، مبرزاً معاني بعض الكلمات والتراكيب وما وراءها من ظلال وارفة وندية، يجد فيها المتعب المكدود الرّوح والاطمئنان والتّخفيف مما يلاقيه في هذه الحياة الدنيا.

وأحياناً كان يعجز أن يترجم كل ما كان يخالجه من شعور، ويعلن عجزه عن التعبير تارك الآية القرآنية كاملة أو كلمة مرها،منصرفا في تواضع العلماء، ويتركها لتأخذ طريقها مباشرة إلى القلوب، لأنّه عجز، ولم يُفتح عليه ، وربّ موضّح أمرا أبهمه،وبالتّواضع يُرفع العلماء .

عند قوله تعالى﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ**﴾[1]استوقفه اسما الله: (الكبير و المتعال) فأعلن في وضوح وصدق أن «لفظة (الكبير) ولفظة (المتعال) كلتاهما تلقى ظلها في الحس، ولكن يصعب تصوير ذلك الظل بألفاظٍ أخرى، انّه ما من خلق حادث إلا وفيه نقص يصغره، وما يقال عن خلق من خلق الله كبير، أو آخر من الأمور الكبير، أو عمل من الأعمال كبير، حتى يتضاءل بمجرد أن يذكر الله، وكذلك المتعال، تراني قلت شيئًا ؟ لا. وأيّ مفسر آخر للقرآن وقف أمام "الكبير المتعال"»[2] بهذا الاعتراف الذي قلّما يصدر عن كاتب قي هذا المقام،أعلن أنّ الكلمتين ثُقُلت على حسّه وغطت ظلاله ما شعورهكله ،فأنّى اتجه وجد (الكبير المتعال) فلم يستطع أن يزيد شيئًا وهو الكاتب المُجيد،المشهود له.

ودلالات ألفاظ القرآن الكريم كان يستخرجها إما عن طريق الجرس الذي تلقيه اللفظة في الأذن ، أو عن طريق الظل الذي تلقيه في الخيال أو بهما معاً، وهو حتى في التّعبير الأدبي مبكّرا كانت لا تفوته هذه القضايا النقدية منوّهاً بها « إن للألفاظ أرواحاً ووظيفة التعبير الجيد أن يطلق هذه الأرواح في جوّها الملائم لطبيعتها ،فتستطيع الإيحاء الكامل والتّعبير المثير» [3] ولا يخفى أن معرفة إيحاءات الألفاظ وجرسها هي مفاتيحٌ لفهم المضمون .

و بواسطة الجرس والظلّ كان يلج إلى فهم المعنى بسهولة ، فقد يستقل لفظٌ واحدٌ بجرسه في إبراز المعنى ، كما في "**يَصْطَرِخُونَ**" من قوله تعالى ﴿**وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً**

---

[1]_ سورة الرعد. الآية: 9 .

[2]_ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج4، ص: 2049 .

[3]_ النقد الأدبي أصوله ومناهجه. سيد قطب. ص: 83 .

غَيْرَ الّذِي كُـــنّا نَعْمَلُ... ﴾[1] « فيخيل إليكم جرسها الغليظ غلظ الصّراخ المختلط المتجاوب من كل مكان، المنبعث من حناجر مكتظّة بالأصوات الخشنة؛ كما تلقى إليكم ظل الإهمال لهذا الاصطراخ الذي لا يجد من يهتم به أو يلبيه ونلمح من وراء ذلك كله صورة ذلك العذاب الغليظ الذي هم فيه مُصْطَرخُون ».[2]

وقد يشارك جرس مقطع من المقاطع أو سورة بكاملها كما في سورة الناس، في إظهار وجهٍ من أوجه الدلالة بتبيان الجو المناسب وهو جو الوسوسة الذي أشار إليه المؤلف ،عند تعرضه لسورة النّاس « اقرأها متوالية تجد صوتك يحدث "وسوسة "كاملة تناسب جوّ السّورة جوّ وسوسة ﴿الوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور النّاس من الجنّة والنّاس﴾[3] ».

وأمّا الظل فمن الكلمات التي يُصوّر ظِلَّها مَعْناهَا، كلمة "انسلخ" ذات الحركة الحسية القوية والتي جيء بها لتؤدّي دور التّنصّل من الأمانة التي نيط بها الرّجل الّذي ذكرته الآية، فانظر :كيف عملت عملها في هذا المشهد العجيب ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ** ﴾[4] «إنه مشهد من المشاهد العجيبة، الجديدة كل الجدة على ذخيرة هذه اللغة من التصورات والتصويرات ،إنسان يؤتيه الله آياته، ويخلع عليه من فضله، ويكسوه من علمه، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع، ولكن هاهو ذا ينسلخ من هذا كله انسلاخاً، ينسلخ كأنما الآيات أَدِيمٌ له متلبسٌ بلحمه، فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة، انسلاخ الحي من أديمه اللاصق بكيانه»[5]

وظلال الألفاظ وجرسها قاعدة اِطردت في " ظلال القرآن " عند بداية كل سورةٍ من سور القرآن وعند التعرض لكل آية لفتت حسّه ألفاظها ، فهو لا يكتفي بالدلالة اللغوية المجرّدة المعجميّة التي غالبا ما يكدّ لها الذّهن بل يسرج الخيال ويستثير الأذن لكلّ ما يصدر عن كلّ كلمة .

---

(1)_ سورة فاطر. من الآية: 37 .

(2)_ التصوير الفني في القرآن. سيد قطب. ص: 92 .

(3)_ المصدر نفسه. ص:94.

(4)_ سورة الأعراف. الآية: 175 .

(5)_ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 3، ص: 1396.

و يشترك الجرس والظل معاً ، في رسم صورة معيّنة، على مستوى المفردة أوعلي مستوى الآية مثلاً ،فيخرجان بها من حيّز الثبات والهمود إلى عالم الحركة الذي يلفت الانتباه كما في قوله تعالى:﴿**خذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىَ سَوَآءِ الْجَحِيمِ**﴾[1]والعتل«هو أخذه بِتَلْبيبِه وجره إلى حبس أو نحوه» [2] غير أن سيد قطب يخرج بالدلالة اللغوية إلى بعدها الجمالي الذي يشكل أحد أوجه النظر في النّص القرآني حيث يهمه الوقوف على جمال المفردة القرآنية في مجال التطبيق، فيقول: «والعتل هو جرس في الأذن وظلٌ في الخيال يؤديان المدلول للحسّ والوجدان».[3]

بهذه الظلال الظليلة على طريقة التعبير بالتصوير كان القرآن يلمس الوجدان ويُبهر العقول ويطرق جميع منافذ النفس البشرية، وكان الرجل شيمته اليسر في إصابة الدليل، دون أن يجهد الألفاظ في البحث فيحمّلها ما لم تحمله ،و يخرج بها عن سواء السبيل.

وقد نأى عبد القاهر الجرجاني (ت 571هـ)ـ رحمه الله ـ على الذين « يحرصون على تكثير الوجوه وينسون أن احتمال اللفظ شرط في كل ما يعدل به عن الظاهر، فهم يستكرهون الألفاظ على مالا تقلّه من المعاني، يدَعون السليم من المعنى إلى السّقيم، ويرون الفائدة حاضرة قد أبدت صفحتها وكشفت قناعها فيعرضون عنها حبّاً للتشوّف، أو قصدًا إلى التمويه، وذهاباً في الضلالة»[4]

والقراءة المعاصرة هي طفرة غير مسبوقة ، ينطبق عليها هذا اللّهث المتزايد ـالذي يعنيه الإمامـ في الإغراب والغموض، والإفراط في التأويل، فعسّرت الفهم ولبّست على القارئ وأدخلته في نفق مظلم، وحّملت الألفاظ ما لم توضع له ، حيث حشرت أنفها في ما لا تطيقه ،وارتقت مرتقى صعبا بتسليط الأضواء على روّادها ؛ الّذين أسهموا في بيان القرآن على طريقة قصّر عنها الأوائل!!.

هكذا لمس سيد قطب ما للألفاظ من دور فنيّ كبير، فاطّلع من خلال ظلالها وأجراسها على عوالم من الجمال المكنون في القرآن، وأهدى لنا فكرة (الظّلال والصّوّر) كمقوّم نقدي جمالي نستعين

---

[1]ـ سورة الدخان. الآية: 47 .

[2]ـ أساس البلاغة. الزمخشري، جار الله محمود بن عمر. دار الفكر، بيروت، ط1 ؛ 1422هـ- 2006م، ص: 408.

[3]ـ التصوير الفني في القرآن. سيد قطب. ص: 95 .

[4]ـ أسرار البلاغة. الجرجاني، عبد القاهر. تح: محمود محمَّد شاكر. دار المدني، جدة، ط1؛ 1412هـ-1991م،ص:393.

به على فهم النّصوص القرآنية ونتذوّق جمالها من خلاله ، هذا المقوّم الجمالي الّذي أوتيه بفضل من الله يكاد يكون الموئل الوحيد لروّاد الدّراسات القرآنية والأدبية .

- المبحث الثّالث: من أفاق التصوير.

التصوير ملمح جلي في القرآن الكريم يشارك فيه اللفظ بجرسه، والمقطع بكامله والفاصلة بإيقاعها، والسياق بكلّ تفاصيله، وهو أسلوب واضحٌ ينسرح فيه الخيال وتنشط فيه الحركة، «وهذا الجمال الصوتي والتناسق الفني والإيقاع الموسيقي هو أول شيءٍ أحّسته الأذن العربية يوم نزل القرآن وتلاه –الرسول صلى الله عليه وسلم –ولم تكن من قبل عَهِدت مثله في منثور الكلام ومنظومه، خُيل إليهم أول الأمر أنّه شعر، لأنهم أدركوا في إيقاعه وترجيعه لذة، وأخذتهم من لذة الإيقاع هزه، لم يعرفوا قريبًا منها إلا في الشّعر، ولكن سرعان ما عادوا إلى تخطئة أنفسهم فيما ظنوه شعرًا» [1]، وهذا اللون يأخذ حيزًا واسعًا في التعبير القرآني، ويمثل الوجه الظاهر للإعجاز الفني في القرآن الكريم .

ولقد عثر– سيد – على هذه القاعدة الكبيرة التي يُعبّر بها القرآن الكريم عن جميع الأغراض، ورأى من شيوعها واطرداها أنها هي «الأداة المُفَضَّلةُ في أسلوب القرآن فهو يُعبِّر بالصّورة الحسية المُتَخَيَّلة عن المعنى الذهني، والحالة النّفسية وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية» [2] وإذْ يُبيّن أفضلية التصوير، فإنما يشير إلى الأمانة والدّقة في نقل الفكرة والحالة النفسية المصاحبة لها بوجه سافرٍ، دون تعقيد أو تشويش ، ولا شيء أكبر في الدّلالة من أن يُنقل المعنى وتأثيره .

وحيثما ذُكرت الصّورة الفنية ذُكر معها الخيال ،لأنّ الصّورة لها علاقه وطيدة بخيال المتلقي، الذي يستخدمه في اقتناص إيحاءات النّص فهي :«أداة الخيال ووسيلته ومادته الهامّة التي يمارس بها ومن خلالها فاعليته ونشاطه» [3]، والخيال هو تلك الملكة الفاعلة في النّص الغائصة فيه إلى الأعماق المستخرِجة كنوزه الجمالية والأخلاقية .

والخيال أداة قرائيّة تؤلّف بين أجزاء الصّورة وأشتاتها، تحت عين العقل وليس بعيدًا عنه، لا كما قد يُتبادر من وصف الخيال بأنه غيّابٌ كُليٌّ في دائرة اللّاوعي « فالعمل الفنّي شأنه شأن القضايا

---

[1]_ التعبير الفني في القرآن الكريم .بكري الشيخ أمين .دار العلم للملاين، بيروت؛ ط1؛1994، ص: 19.

[2]_ التصوير الفني في القرآن. سيد قطب. ص: 36.

[3]_الصور الفنية في التراث النقدي والبلاغي. عصفو أحمد جابر.دار الثقافة للطباعة للنشر ،القاهرة،ط1؛ 1974، ص:14.

الكُبرى الفكريّة والإنسانيّة هو تَجَلٍّ لبنية تناقضيّه وتوافقية أيضًا، أي هو في حدّ ذاته اختلاف وتناقض، ولكن مآله الوحدة والتّنظيم. فالعقل هو الموحّد لهذا المختلف الذي يأتي مخيلاً مغلفًا، فلا غياب للعقل وللوعي في مجمل عملية تلقّي الخطاب .»[1] فبنية النّص المجازية هي التي تترك النّص يتجاذبه الوعي واللّاوعي، واستنباط المعنى يقوم على طاقة التّخييل في النّص .

والخيال أفعل وسائل- سيد قطب- في إدراك التصوير الفني في القرآن، فهو تلك الملكة الفاعلة في النص الغائصة فيه إلى الأعماق المستخرِجة كنوزه الجمالية والفكرية والإعجازية و بواسطته يتنقل بين عوالم غير محسوسة يُطلعنا على حقائقها، وينقل لنا صورها، وفوق ذلك هو جزءٌ من فطرة الإنسان و فاصل بينه وبين الحيوان.

ولقد أتى على البشرية حينٌ من الدّهر أغرقت في الخيال وغالت فيه ، ثم ارتدت إلى الواقعية ونبذت ما كانت غارقة فيه ، فقد كانت «الرومانتيكية تهمل واقع الأرض وتهيم في الأحلام، والواقعية اليوم تتنكب الأحلام عمدًا وتجنح إلى الواقع الصغير المحدود الذي تدركه الحواس، ويمارسه الناس وهم واقعون تحت ضغط الضرورة،لا منفلتين منها ولا مترفعين عليها. واقع المادة وواقع الحيوان» [2] والإغراق في الخيال أو اللّصوق بالواقع كلاهما انحراف، وإنما مدار الأمر في هذا الدين على التوازن الذي هو أبرز سما ته في إعطاء الإنسان صورته السّوية .

إنّ التّصوير الفنيّ في القرآن الكريم يأخذ مساحة كبيرة تبعًا لأغراض التعبير القرآني حيث «يستثني من هذه الطريقة إلا مواضع التشريع وبعض مواضع الجدل، وقليل من الأغراض الأخرى التي تقتضي طريقة التّقرير الذهني المجرد وهي على كل حال محصورة فيما يوازي ربع القرآن» [3] ويتبدّى التصوير في معظم آفاقه كالمعاني الذهنية، والحالات النّفسية، والحوادث الواقعة والأمثال المصّورة،والمشاهد بأنواعها،والنماذج الإنسانية، ومواطن الجدل، والقصص القرآني [4] وغيرها و ما إن

---

[1]- استقبال النص عند العرب.محمَّد المبارك .المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1؛ 1999م، ص:244.

[2]- منهج التربية الإسلامية . محمَّد قطب .ج1، ص:148 .

[3]- التصوير الفني في القرآن. سيد قطب . ص: 204.

[4]- ينظر: نظرية التصوير الفني عند سيد قطب. الخالدي صلاح عبد الفتاح. ص: 199 وما بعدها .

يلمس التصوير شيئًا من هذا في أفق من هاته الآفاق، حتّ تحدث المعجزة ويحدث الإعجاز ! رغم أنّ مادّة التّصوير الألفاظ التي تقوم بالمهمّة في سهولة عجيبة .

ومفهوم التّصوير عند سيد واسع ،يدخل فيه التّصوير باللون وبالحركة، وبالتّخييل والوصف، والحوار، وجرس الكلمات، وموسيقى السياّق وهو ما يجعل الطّريقة التّصويرية أفضل من الطّريقة التّجريدية، فالطّريقة التّصويرية تعبيراتها مصحوبة بصوّرٍ لها ظلالها وهاته الظّلال تساعد في رسم المعنى، تحدده وتظهر ملامحه وصفاته، فيكون المعنى قد نفذ إلى المتلقّي عبر عدّة منافذ فيه : عن طريق الحواس، والحس، والوجدان، وعن طريق الذهن، بينما الطّريقة التّجريدية ليس لها صوّر ولا ظلال ولا إيقاع يقرّب المعنى، ولها منفذ واحد هو الذّهن، ومن ثم يصل المعنى إلى جزءٍ من النّفس الإنسانية التي هي كلٌّ واحد، ولا يسرى تيار التّأثير في بقية أجزاءه .

كانت هذه المقارنة بين الطّريقتين هي التي راعت سيد قطب و أدهشته بعد ما عثر عليها، فراح يجزم بأفضليّة الطّريقة التّصويرية عن تلك، و كان من بواكير التّدليل عليها هذه النّماذج التّالية:

(1)ـ النّفور من الدّعوة إلى الهدى يمكن أن يؤدّى في صورته التّجريدية الذّهنية على نحو كهذا؛ إنّهم ليفرون أشدّ النّفرة من الإيمان فيمتلئ الذهن وحده بمعنى النّفور في برود وسكون، ولكن التعبير القرآني يؤديه في هذه الصورة الحية المتحركة : ﴿ **فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مّسْتَنفِرَةٌ فَرّتْ مِن قَسْوَرَةٍ**﴾[1] «فتشترك مع الذهن حاسة النظر وملكة الخيال ويثور في النفس شعور السخرية وشعور الجمال، السخرية من هؤلاء القوم النافرين كالحمر الوحشية المذعورة من الأسد، والجمال في حركة الصورة السريعة الطليقة»[2].

(2)- ومعنى عجز الآلهة التي كان العرب يعبدونها يمكن أن تُؤدّ ى في عدة تعبيرات ذهنية مجردة كأن يقال:إن ما تعبدون من دون الله لأعجز عن خلق أحقر الأشياء، فيصل المعنى إلى الذهن مجردا باهتا، ولكن التعبير القرآني يؤديه في هذه الصوُّر ﴿**إِنّ الّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُواْ لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذّبَابُ شَيْئاً لاّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**﴾[3] «فيحيا

[1]ـ سورة المدثر. الآية: من 49 ـ51 .

[2]ـكتب وشخصيات. سيد قطب. دار الشروق، بيروت، (د ط ت)، ص: 29 .

[3]ـ سورة الحج. من الآية: 73 .

هذا المعنى الساكن ويتحرك في تلك الصورة المتحركة المتعاقبة، ولكن الإبداع هنا هو في عرض هذه الحقيقة بصورة ترسم العجز عن بلوغ مسألة هينة من ظاهرها، والجمال هنا هو في تلك الظلال التي تلقيها خطوات الصورة من خلال التعبير»[1]

(3)- يقول الله تعالى ﴿ **لِلّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبّهِمُ الْحُسْنَىَ وَالّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنّ لَهُمْ مّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾ [2] ، لو قال: والذين لم يستجيبوا له لن ينفعهم شيءٌ يوم القيامة، لأدّى التّعبير معناه، ولكن أين هذا المعنى الذّهني من هذه الصّورة ؟! (**لَو أَنَ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمَثَلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوا بِهِ**) «إن الخيال هنا يعمل في تتبع الصورة، صورة إنسان يمتلك ما في الأرض جميعًا، وذلك مستحيل في عالم الواقع ولكن الصورة تزيد الأمر استحالة (ومثله معه) ومن أين يأتي بالمثل حتى ولو أراد! ؟ ثم الافتداء ذاته، كيف يقوم به ؟ كيف يتقدم إلى الله بملء الأرض، ومثله معه ؟ إن الخيال ليرسم صورة إنسان يحاول أن يتأبط الكرة الأرضية جميعا فضلاً عن مثلها معها ! فيتجسّم معنى الاستحالة بأضعاف ما يتمثّله الذّهن المجرد الذي يتعامل مع المعاني التّجريدية للألفاظ !.»[3] بهذا التّصوير الموجود في القرآن يستطيع الإنسان أن يرى نفسه ويُقرّر مصيره.

بالمقارنة يتبين فضل الطريقة التصويرية على الطريقة التجريدية ، تلك الطّريقة التي اجتمع فيها الفنّ بالدّين و استعملها القرآن في تبليغ أغراضه إلى النّفس الإنسانية ، وسوف نتابع لاحقا إحياء المشهد في بعض النماذج التي تظهر في أحد أفاق التصوير: وهو أفق يوم القيامة في القرآن الكريم،كما نتابع الحركة المتجددة في أفق آخر هو: مشاهد الطبيعة المذكورة في القرآن،والله المستعان .

أ- مشاهد اليوم الآخر في القرآن :

القرآن المكي كلّه حديث عن اليوم الآخر، لأنه كان يواجه قوماً منكرين للبعث جاحدين لنبوّة الرّسول-صلى الله عليه وسلم-الذي كان يحدثهم عن الغيب عموما، فكانوا يسخرون منه ويتندّرون

---

[1]- كتب وشخصيات. سيد قطب. ص: 30 .

[2]- سورة الرعد. الآية: 18.

[3]- دراسات قرآنية. محمد قطب. ص: 172.

بحديثه عن قضية الحساب والجزاء ﴿ **وَقَالَ الّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلّكُمْ عَلَىَ رَجُلٍ يُنَبّئُكُمْ إِذَا مُزّقْتُمْ كُلّ مُمَزّقٍ إِنّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ اِفْتَرَىَ عَلَى اللّهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنّةٌ بَلِ الّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالاَخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضّلاَلِ الْبَعِيد** ﴾ [1] فكان القرآن يتترل ليزيل شُبه المنكرين ويفند ما افتروه من افتراءات ومزاعم في حقّ الإسلام ونبيّه۔ عليه السّلام ۔ .

ولكن القرآن ظل يتكلّم عن ذات الموضوع ؛الإيمان باليوم الآخر «في القرآن المدني بصورة مسهبة، مما يدلّل على أن القضية قضية تمس جوهر الإنسان، مؤمنًا أو مشركًا ،فهذا القرآن للبشرية كافه، على اختلاف مستوياتها النّفسية والرّوحية، والاجتماعية والحضارية، وأنّ كل مستوى من البشر يجد فيه حاجته ويجد انعكاس نفسه فيه كما ينظر في المرآة »[2] .

فالحياة الحقيقية هناك غداً، ويُنقل الناس إلى هذا الغد، أحبّ من أحبّ وكره من كره، ومن نعم الله على العباد جميعاأن فصّل لنا عمّا يجري في ذلك اليوم ، والقرآن يركز على هذا اليوم باعتباره مرآة عاكسة، حيث يُري الناس أماكنهم المحجوزة هناك بأعمالهم في هذه الدّنيا، ويوازن كل إنسان ويختار بين أن يصير إلى نعيم دائم أو إلى عذاب دائم .

ويأتي اليوم الآخر في القرآن المدني مباشرة بعد الإيمان بالله و مرتبطاً به وهذا ما يزيد في قضيّة الإيمان به والتّأكيد عليه، من ذالك قوله تعالى :﴿**وَمِنَ النّاسِ مَن يَقُولُ آمَنّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخر وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ**﴾[3] وكذلك قوله عز وجل ﴿ **وَالّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَـــآءَ النّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخر وَمَن يَكُنِ الشّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَآءَ قِرِيناً**﴾ [4] وكذلك قوله تعالى﴿ **لّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّهِ أُ سوَةٌ حَسَنَةٌ لّمَن كَانَ يَرْجُو اللّهَ وَالْيَوْمَ الآخر وَذَكَرَ اللّهَ كَثِيراً** ﴾[5] وكل هذه الآيات وغيرها تبيّن ثقل الموضوع في حياة الإنسان عموما والمسلم خصوصًا ، كما تبين أنّ اليوم الآخر ليس وعظا عابرا بل هو تذكرة على الدّوام .

---

[1]_ سورة سبأ. الآية: 8 .

[2]_ دراسات قرآنية. محمد قطب. ص: 45 .

[3]_ سورة البقرة. الآية: 8 .

[4]_ سورة النساء. الآية: 38.

[5]_ سورة الأحزاب. الآية: 21، وينظر الآيات: (البقرة: 177 و232)، (آل عمران :112)، (التوبة: 29).

وكان من الاستفاضة في الحديث عن اليوم الآخر في القرآن، والتّربية على الاستعداد له والخوف منه أن «عاش المسلمون في هذا العالم عيشةً كاملةً: رأوا مشاهده وتأثروا بها وخفقت قلوبهم تارةً، واقشعرت جلودهم تارةً، وسرى في نفوسهم الفزع مرةً، وعاودهم الاطمئنان أُخرى، ولفحهم من النار شُواظٌ، ورف إليهم من الجنة نسيم ومن ثم باتوا يعرفون هذا العالم تمام المعرفة قبل اليوم الموعود»[1] وبذلك يظهر عِظم التركيز على يوم الآخرة ، فكيف استطاع الإسلام أن ينتقل بقوم منكرين للبعث، إلى قوم مؤمنين به؟ ما هي طريقته في ذلك؟.

إنّها ولاشكّ طريقة التّصوير، في رسم صوّرهم يوم القيامة وهم يعذبون أو هم يتنعمون ، وعرض صور النعيم وصنوف العذاب، وترك القارئ أو المستمع يقارن، ويتوقع نهايته كيف تكون، ولقد كان كتاب "مشاهد القيامة في القرآن " هو الوجه التطبيقي لنظرية التصوير في أفق من أفاقه، و«مشاهد القيامة في القرآن من أبرز المواضع التصويرية فيه وهي التي تنطبق عليها ـ بصفة خاصة ـ جميع السمات التي تحدثت عنها في كتاب التصوير»[2] والسمات التي تحدث عنها هي تلك القواعد الخمس التي تبدو في غالبية الصوّر القرآنية وهي[التخيل الحسّي، التجسيم، التناسق، الحياة الشاخصة، الحركة] [3]وقد أحسن تطبيقها ، وهو ما يبين أن الرّجل كان ملهماً وموهوباً، يملك حاسةً فنّية راقية، اكتشفت الظّاهرة " التصوير" واكتشفت قواعدها وبرعت في تطبيقها.

ونحن هنا إذ نرتاد هذا الأفق الوضِيئ مشاهد القيّامة في القرآن، ونرصد فيه سمة بعينها الحياة الشاخصة في المشهد، أو نرصد الحركة المتجددة في مشاهد الطبيعة لاحقا، لا نستدرك شيئا على الرجل !! فقصورنا أعظم من أن يوصف، وعجزنا كبير أعظم من أن يعرف، ولكنّا أردنا أن نجمع ونلاحظ الكفاءة التي أهلته أن يكون معدودًا في العظماء المبدعين.

ومشاهد القيامة كلها تجمعها «سمة واحدة شاملة، إنها مشاهد حية منتزعة من عالم الأحياء، لا ألوان مجردة ولا خطوط جامدةٌ، مشاهد تقاس فيها الأبعاد والمسافات بالمشاعر والوجدانات،

---

[1]_ مشاهد القيامة في القرآن. سيد قطب. ص: 42.

[2]_ المصدر نفسه. ص: 42 .

[3]_ ينظر: نظرية التصوير الفني عند سيد قطب. الخالدي صلاح عبد الفتاح. ص: 129 . وما بعدها.

والخواطر والخلجات وترسم المواقف وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية» [1] تصل إلى الحس على طريقة القرآن الذي ينفذ إلى الإنسان في مخاطبته عبر عدة منافذ من أبرزها الوجدان .

والتعبير القرآني المعجز، يقدم لنا مشاهد القيامة بطريقة التّنويع التي هي سنةٌ من سنن الحياة، التّنويع في التعبير : فأحياناً يظهر بداية المشهد في الحياة الدنيا ونهايته في الآخرة ومرة يزاوج بين مشاهد الدنيا ومشاهد الآخرة، وأحياناً أخرى يكون المشهد حاضرًا اكتملت له كل عناصر الحياة بوجود الحوار فيه.

غيرأنّ من أعجب ما يقدمه القرآن، تَصْيير المستقبل حاضرا وجعل الحاضر منسلي ﴿**إِنّا كُنّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنّهُ هُوَ الْبَرّ الرّحِيمُ** ﴾ [2]في كلمات يطوى الزّمن كله في لحظات، وهاهم في الجنّة يسترجعون ذكرى حياتهم الدّنياالّتي أصبحت ماضياً ، تمّ القرار الأخير.[3]

و من النّماذج على الحياة في التّصوير القرآني ، قوله عز وجلّ: ﴿ **يَأَيّهَا النّاسُ اتّقُواْ رَبّكُمْ إِنّ زَلْزَلَةَ السّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلّ مُرْضِعَةٍ عَمّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النّاسَ سُكَارَىَ وَمَا هُم بِسُكَارَىَ وَلَـكِنّ عَذَابَ اللّهِ شَدِيدٌ**﴾ .[4]

فالسّمة البارزة هنا في التّصوير : هي الحياة، هول حيّ يسرى في وسط حيّ ،ويقاس بمقايس حيّة وهو «هول حيّ لا يقاس بالحجم والضّخامة ولكن يقاس بوقعه في النّفوس الآدمية، في المرضعات الذّاهلات عما أرضعن- وما تذهل المرضعة عن طفلها وفي فمه ثديها إلا للهول الذي لا يدع بقيّة من وعي - والحوامل الملقيّات حملهن، وبالنّاس سكارى وما هم بسكارى "ولكن عذاب الله شديد"»[5]

وفي قوله تعالى ﴿ **يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مّهِيلاً**﴾ [6] اشتركت الأرض والجبال في تصوير الهول في هذا المشهد، فالأرض ترجف وتخاف وكذلك الجبال وتصير من

---

[1]- مشاهد القيامة في القرآن. سيد قطب. ص: 43 .

[2]- سورة الطور. الآية: 28.

[3]- ينظر: دراسات قرآنية. محمد قطب. ص:66 . وما بعدها.

[4]- سورة الحج. الآيتان: 1 ، 2.

[5]- في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 4، ص: 2408.

[6]- سورة المزمل. الآية: 14.

شدة الخوف كثيبًا مهيلاً وتتفتت وتنهار، حيث يتجاوز الهول في هذا اليوم الناس إلى مخلوقات عظيمة وجبارة يخلع التعبير القرآني عليها الحياة [1]فإذا هي حية شاخصة، وحية شاخصة على الحقيقة.

وسيد قطب يدور مع القرآن حيث دار، ويذعن للنص القرآني مستمعًا إليه، مصغياً بقلبه وبعقله، فهو كما يبدوا أنه يرى بعدم المجاز في القرآن الكريم وأن الحياة التي لا تظهرلنا في ما نسمّيه نحن " الجماد" إن هي إلا حقيقة لا يمكن أن نتصوّرها نحن في حدود طاقتنا البشريّة،وأنّ عقولنا يكفيها أن تتصوّر الأشياء الّتي في مقدورها!.

وتقسيم التعبير إلى مجاز وحقيقة ـ وإن كان هدفه تعليميا في أوّل نشأته ـ لم يكن ليُثار أيّام قرن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وهم أعلم الناس بالقرآن وبلغتهم، وما وسع الجيل الأول يسع الأجيال اللّاحقة «ولا داعي لتأويل هذه النّصوص الصّريحة، لتوافق مقررات سابقة لنا عن طبائع الأشياء غير مستمدة من هذا القرآن، فكلّ مقرّراتنا عن الوجود ،وكل تصوّراتنا عن الكون، ينبغي عن تنبع أوّلاً من مقرّرات خالق هذا الكون ، ومبدع هذا الوجود.. و الحياة ما تزال سرّاً في طبيعتها ،وسرّاً في مصدرها، ولا يملك أحد أن يقول من أين جاءت ، ولا كيف جاءت ، فضلا على أنّ أحداً لا يدري ما هي على وجه الحقيقة. .».[2]

فللعقل حدود، ،وعدم قدرته على معرفة أشياء في غير استطاعت ه ليس ذلك بقادح فيه: « بل العقل ميزان صحيح ،فأحكامه يقينية لا كذب فيها، غير أنّك لا تطمع أن تزن به أمور التّوحيد والآخرة ،وحقيقة النّبوّة وحقائق الصّفات الإلهية ، وكلّ ما وراء طوره ، فإنّ ذلك طمع في محال ،ومثال ذلك رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب ، فطمع أن يزن به الجبال وهذا لا يُدرك ».[3]

فالدّراسة الفنّية التي لا تقوم إلا بالمجاز والتي كانت محطّ الرّجل واهتماماته في "التّصوير الفني في القرآن" لا تشط عن الحقيقة عنده،وإنما هي المطابقة التّصويرية للحقيقة التي لا ندرك منها شيئًا عن كيفية حياة المخلوقات، إلا ما ذكر لنا في القرآن الكريم :﴿**إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هوَ بِالْهَزْلِ**﴾[4].

---

[1]_ ينظر:في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 6 ، ص: 3747.

[2]_ المصدرنفسه. ج 6، ص: 3478.

[3]_ المقدمة.ابن خلدون ولي الدين عبد الرحمن .دار الجيل، بيروت ، (د ت)ج1. ص509

[4]_ سورة الطارق. الآية: 13 ،14.

هذا التصوير المبدع لمشاهد القيامة في القرآن الكريم هو الذي أثّر في جيل الصحابة -رضوان الله عليهم- التأثير العجيب، وأوجد فيهم تلك الحساسية العظيمة التي عبّر عنها أحدهم و هو الحارث بن مالك الأنصاري من أنّه :«مرّ بالنّبي صلّى الله عليه وسلّم فقال: له كيف أصبحت يا حارثه؟ قال أصبحت مؤمنا حقًّا قال: أنظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ قال ع زفت نفسي عن الدّنيا، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري وكأنّي أنظر عرش ربي بارزًا، وكأني أنظر أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنّي أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها قال : يا حارثه عرفت فالزَم »[1]

فلم يكن بدٌّ من أن يكون ذلك الجيل هو خير القرون ، و لم يكن غريبا أن يرضى الله -عزّ وجلّ- على أولئك الأطهار الّذين لازموا الرّسول - صلى الله عليه وسلّم - لأنّه باختصار تحقّق فيهم الوجه العملي للقرآن الكريم، « ويجب أن يُعلم أنّ النّبي - صلّى الله عليه وسلّم -بيّن لأصحابه معاني القرآن كما بيّن لهم ألفاظه فقوله تعالى ﴿لتبيّن للنّاس ما نزّل إليهم﴾[3] يتناول هذا وهذا »[4] فكانوا أعلم هذه الأمّة بعد نبيّها .

ب- مشاهد الطبيعة في القرآن الكريم:

لا تكاد تخلو سورة من سورا لقرآن الكريم دون ذكر لمشاهد الطبيعة النابضةِ بالحياة، هذه الطبيعة التي تُوصف في القرآن الكريم بأنها مخلوق حيٌّ وجميل، يسمع ويستجيب ،يسجد ويخشع يتكلّم ويأبى،يبكي ويغضب، إلى غير ذلك ممّا يطرأ على الإنسان من صفات،ولكن لا نعرف كيفيتها.

ويكاد سيد يتفرد فيما بين المفسرين بتحليله مشاهد الطبيعة المذكورة في القرآن تحليلاً فنياً رائعاً، مبيناً اندماج مشاعر الطبيعة بالمشاعر الإنسانية والتي يقدمها القرآن بطريقته المثلى التعبير بالتصوير، تلك الطريقة التي كان الرجل يحسُّ من خلالها أن الحياة تدُبُّ في كل شيءٍ من حوله ،وهي التي عبّر عنها بقوله: «إنّها الحياة هُنا وليست حكاية الحياة» [2] فكانت هذه الطبيعة العامِرَة بالحياة

---

[1]_رواه الهيثمي في مجمع الزوائد،ج1 ، رقم:100 ورواه الطبراني في الأوسط ، برقم،5124.

[3]_سورة النّحل. الآية:44

[4]_شرح مقدمة في أصول التّفسير. ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم. (تح) محمد بن عمر بازمول ،دار الإمام أحمد ، القاهرة،1؛1427هـ 2006م،ص:50.

[5]_ التصوير الفني في القرآن. سيد قطب. ص: 36.

والملأى بالجمال، مشاهد متراكبةً يستخدمها القرآن في إيقاظ الحسِّ الإنساني وربطه بالقدرة الخالقة والمبدعة .

وكـــان سيد في كتابه "التصوير الفني في القرآن" قد راعه جمال الطبيعة الفتان المعروض في القرآن ،فأبدع بأسلوبه وهو يقدم آفاق التصوير الموجود ة فيه «وهنا نسجل الأصالة للأستاذ سيد قطب في اكتشافه لمسةً فنيةً ، نرى أن دارس الطبيعة في القرآن الكريم لا يستغني عن الإشارة إليها، وهي ما ذهب إليه من وجود تناسق فنٍي دقيقٍ في جوّ المشهدِ وتقسيم الأجزاءِ وتوزيعها في الر قعة المعروضة في إطار الصورة الفنية في القرآن، وكانت الصورة التي عرضها للأدلة على هذا من صور الطبيعة .»[1]

أما "في ظلال القرآن"، فكانت القراءة مزدوجة، تتكلم عن المشهد وعن ما وراء المشهد، تشير إلى الجمال الذي يأسر القلوب ،وفي ذات الوقت تُشير إلى الجلال الرهيب الذي يغمر المشهد ويحوطه من كل جانب، إنها قدرة الله الخَالِقُ البَدِيعُ سبحانه عز وجل الذي يُوجّه الإنسان في القرآن بأن «يستشعر آثار هذه اليد في كل ما تقع عليه عينه وكل ما يستلهمه حِسُّه، وكل ما يلتقطه سمعه ويتخذ من هذا كلّه مادةً للتدبُّر والتفكُّر والاتصال بالله، عن طريق الاتصال بما صنعت يداه»[2]، فكلّ مشهد قرآني يتحدّث عن الطبيعة أو غيرها إلا ويثير في الإنسان شعورًا من الأنس وفيضًا من الطمأنينة والثقة لأن هناك يدًا حانيةً وراء المشهد تحركه وتوجهه وتجعله معرضًا للهداية وإلى التّوبة من قريب .

وهذه نماذج للتّصوير بالحركة ؛ الحركة الحيّة التي هي سمة بارزة في التصوير الفني في القرآن ، والتيّ نريد أن نرصدها في مشاهد الطّبيعة في القرآن الكريم، وكان الذي قد فاجأ سيدًا وهو يجد التّصوير، عنصر الحركة داخل المشهد، بحيث يستطيع هذا العنصر ـ فضلاً عن كونه يحيي المشهد ـ أن يقلب المستمع أو المتلقي، من مستمعٍ إلى مشاهدٍ «فما يكاد يبدأ العرض حتى يُحيل المستمعين نظّارة وحتى ينقلهم نقلاً إلى مسرح الحوادث الأول الذي وقعت فيه أو ستقع، حيث تتوالى المناظر، وتَتَجدّد الحركات، وينسى المستمع أن هذا كلام يُتلى، ومثل يضرب، ويَتَخيّل أنّه منظرٌ يعرض، وحادث يقع،

---

[1]ـ التصوير الفني في القرآن الكريم دراسة تحليلية. جبير صالح حمادي. مؤسسة المختار، القاهرة ،ط1؛ 1428هـ_2007م، ص:181.

[2]ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج5. ص: 2568.

فهذه شخوصٌ تروح على المسرح وتغدو وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات، المنبعثة من الموقف، المتساوقة مع الحوادث، وهذه كلماتٌ تتحرك بها الألسنة فتنمُّ عن الأحاسيس المضمرة» [1] فالحركة تتجدد ، وتَخْفُتُ وتشتدُّ وتظهر وتضمر، وتُسرع وتبطئ ومع ذلك تبقى ملحوظةً في المشهد.

وحينما وقف سيد عند قوله تعالى: ﴿... **وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً** ﴾[2] كانت قد هزّته «الحركة التخييلية السّريعة التي يصورها التعبير: حركة الاشتعال التي تتناول الرأس في لحظة ... فهذه الحركة التخييلية تلمس الحس وتثير الخيال وتشرك النظر والمخيلة في تذوق الجمال و هي عنصر الجمال الصحيح ، وهذا هو الذي وقف دونه عبد القاهر، وإن كان يبدوا أنّه يحسه في ضميره ولا يصوّره كاملا في تعبيره»[3]، فالحركة قاعدة أساسية لا يقوم التّصوير إلا بها.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبّكَ كَيْفَ مَدّ الظّلّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمّ جَعَلْنَا الشّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ثُمّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً**﴾[4]

إن العلم يفسر لنا قوانين الطبيعة، فيحدثنا عن الظل بأنه تلك الظلمة الخفيفة الناشئة عن احتجاب الشمس في النهار، وذلك من وجود أجرام تكون بينها وبين الأرض، فتظهر حركة الظل ،لكن الآية القرآنية تلفتنا إلى شيئين اثنين في آنٍ واحد، قانون الطبيعة ، وإلى يد الجبار التي تقف خلف المشهد وتهيمن عليه .

إن التعبير القرآني يُبين في البداية أنَّ حركة الظل ليست وليدة القانون الطبيعي وإنما اللهُ سبحانه وتعالى هو الذي يحركُه مدًا وقبضًا، تلك الحركة الوئيدة الجميلة التي يُنشئها التعبير والتي نُتابعها بعيونِنَا هنا وهناك في ذهاب الظل ورجوعه ،ونحن نتفيؤه.

لكنّ الشيء المدهش في التعبير القرآني في هذه الآية هو هذه« اللفظة " **إلينا** " (**ثم قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا**). أتدري ماذا فعلت هذه اللفظة المفردة في كيان الصورة كلّه؟ ! لقد كنت بخيالك تتبع حركة الظل الوئيدة في ذهابه وأوبته، هنا ! هنا في الأرض ! ويمتدُّ بك البصر أوالخيال إلى الشمس حين

---

[1]_ التصوير الفني في القرآن. سيد قطب. ص: 32.

[2]_ سورة مريم .الآية: 4.

[3]_ المصدر نفسه. ص: 33.

[4]_ سورة الفرقان. الآيتان: 45 ، 46 .

تقرأ (**ثُمَ جَعَلْنَا الشَمْسَ عَلَيهِ دَلِيلاً**) وينتهي بك الخيال هناك ولكنك فجأةً حين تصل إلى كلمة "إلينا" تجد إطار الصورة قد امتد وامتد وجاوز الشمس والأرض...إلى...؟ إ لى غير حدود! "إلينا".! وليصنع خيالك ما شاء..!﴿**لا تُدْرِكُهُ الأبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصَارَ وَهُوَ اللّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ ».[1]

وهكذا تكبر الصُّورة في حِسِّنا حينما نتأمل الآية الكريمة التي توسّع إدراك ك لإطار الصورة فتخرجه من حيّزه الصغير الأرض، والرؤية بالعين، إلى الحيّز الواسع، والخيال يتابع قفول الظل، ويد الجبّار سبحانه تطويه من جديد،ونحن نتلذذ بتلك الحركة الآيية الذّاهبة.

و المعلومات التي نعرفها عن الظل هي نفس المعلومات التي تقدمها الآية، غير أنّ الطريقة التصويرية التي يعبّر بها القرآن ويلامس بها الوجدان ،هي التي تُزيل التبلّد عن الإحساس وهي التي تجعلنا نحس بحركة الظل كأنها تُشاهد لأول مرّة، وتترك فينا أثرًا وانصياعًا ، للجبار الذي يقوم بكلّ هذا العمل ونحن سادرون في الغفلة.

إنّ التعبّير القرآني لما يشخّص الطّبيعة، فأجمل ما في التّشخيص الحركة التي تأخذ أنماطًا شتّى تتراوح بين البطء والسرعة، في جانبيها المادّي والنّفسي، ويمدُّ التّعبير القرآني التّصوير القرآني بألفاظٍ عجيبةٍ ودقيقة لها مكانها المعلوم بحيث تساعد على البطء في الحركة أو تزيد منها.

فعند قوله تعالى: ﴿**وَعِبَادُ الرّحْمَـــنِ الّذِينَ يَمْشُونَ عَلَىَ الأرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً**﴾[2] نلاحظ أنّ كلمة (هونًا) حددت حركة المشي ووصفتها بأنها «مشية سهلة ليس فيها تكلف ولا تصنّع، وليس فيها خيلاء ولا تنفّج ولا تصعير خد، ولا تخلّع أو ترهّل، فالمشية ككل حركةٍ، تعبيرٌ عن الشخصية» [3] والدلالة الإيحائية للكلمة لا ترتبط بحركة المشي فقط وإنما تُشير إلى الهدوء والسكينة والوقار وهي صفات تلازم عباد الرحمن.

وعند قوله تعالى: ﴿**رّبّنَآ إِنّيَ أَسْكَنتُ مِن ذُرّيّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرّمِ رَبّنَا لِيُقِيمُواْ الصّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مّنَ النّاسِ تَهْوِيَ إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مّنَ الثّمَرَاتِ لَعَلّهُمْ يَشْكُرُونَ** ﴾[4] نجد أنّ كلمة (تهوي) تُعبّر عن حركة ال قلوب المسرعة ،التي تكاد تطير شوقًا لزيارة البيت المحرم

---

[1]_ دراسات قرآنية. محمَّد قطب. ص: 43 .

[2]_ سورة الفرقان. الآية: 63 .

[3]_ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 5، ص: 2577.

[4]_ سورة إبراهيم . الآية: 37.

«وتسرع نحوهم برغبة وشوقٍ إسراع من يترل من حالقٍ، وزاد المعنى وضوحًا وأكّده بحرف الغاية الدالّ على بعد ،لأن الشيء كلما بعُدَ مدَى مرماه اشتد وقعه .»[1]

والقرآن الكريم إذ يُبرز الحركة الحيّة في مشاهد الطبيعة المصّورة، فلأن هذه الطريقة تمنح التعبير الجِدّة، كما لو أطلق أول مرة، ومن الحركة اللطيفة الوئيدة الرتيبة والهادئة هذا المشهد المعجز الجميل قال الله تعالى: ﴿**إِنّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبّ وَالنّوَى يُخْرِجُ الْحَيّ مِنَ الْمَيّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيّتِ مِنَ الْحَيّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنّى تُؤْفَكُونَ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ الّلَيْلَ سَكَناً وَالشّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَهُوَ الّذِي جَعَلَ لَكُمُ النّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الّذِيَ أَنشَأَكُم مّن نّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ وَهُوَ الّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مّتَرَاكِباً وَمِنَ النّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنّاتٍ مّنْ أَعْنَابٍ وَالزّيْتُونَ وَالرّمّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوَاْ إِلَىَ ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنّ فِي ذَلِكُمْ لآيات لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[2]

فالمشهد الطبيعي الذي تصوّره الآيات كله حركة «الحركة في الحبّ والنوى وهو يفلق باطن الأرض ليخرج منه نبات حي، الحركة الدّائبة في إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحيّ... حركة الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، حركة النسل التي أخرجت البشرية من نفس واحدة، وما تزال دائبة في المستودع والمستقر حركة الماء النّازل من السماء فيخرج منه نبات كل شيء، ثم حركة التنويع في النخل والأعناب والزيتون والرمان ومما يؤكد أن القرآن يحتفي بالحركة ويبرزها إبرازًا، هو ذكره للحركة الخَفِيَةِ التي لا يعلمها إلا الله كيف تمت، إلى جانب الظاهرة في تلك الصّور الطبيعيّة التي حُشدت حشدًا لعرض آيات القدرة الإلهية المبدعة»[3] .

وهذه حركة من نوع آخر فيه حِدّة وغضب يصورها قوله تعالى : ﴿**وَآيَةٌ لّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ، وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنّاتٍ مّن نّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ سُبْحَانَ الّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلّهَا مِمّا**

---

[1]_ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. البقاعي، برهان الدين. تح: عبد الرزاق غالب المهدي، دار النشر للكتب العلمية بيروت 1416هـ-1995م، ج4، ص :191.

[2]_ سورة الأنعام. الآيات: 95 - 99.

[3]_ منهج الفن الإسلامي. محمّد قطب. ص: 146.

تُنبتُ الأرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمّا لاَ يَعْلَمُونَ وَآيَةٌ لّهُمُ الْلّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النّهَارَ فَإِذَا هُم مّظْلِمُونَ وَالشّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرّ لّهَـا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتّىَ عَادَ كَالعُرجُونِ الْقَدِيمِ لاَ الشّمْسُ يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القَمَرَ وَلاَ الْلّيْلُ سَابِقُ النّهَارِ وَكُلّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ وَآيَةٌ لّهُمْ أَنّا حَمَلْنَا ذُرّيّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مّن مّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ وَإِن نّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ إِلاّ رَحْمَةً منا وَمَتَاعاً إِلَىَ حِينٍ﴾[1]

والمشهد أيضا مملوءٌ كلّه بالحركة، حيث تصطفّ كلّ الكلمات في التّعبير لتشارك في عملية التّصوير الدّقيقة التي تضبط نوع الحركة العنيفة والسّريعة ؛ فالعيون المفجّرة وعملية سلخ النّهار من اللّيل وسرعة الشّمس لمستقرّها، ومنازل القمر حتى عاد كا لعرجون القديم، وسباق الشّمس والقمر واللّيل والنهار والفلك المشحون، وألفاظ الإغراق والصّريخ والإنقاذ [2]وغير ذلك من الألفاظ التي تحدّد نوعية الحركة في الآيات.

ومما سبق يتبيّن أن السّياق العام والغرض الدّيني يتحكّمان في أنماط الحركة واختلافها: وئيدة وسريعة، خافية وظاهرة،هادئة و عنيفة...وأنّها أداة قرائية استعملها الرجل إلى جانب الظّل والجرس والتّخييل والتّجسيم، تسهِّلُ من قراءة المشهد وتوضّح الدّلالة.

(1)_ سورة يس. الآية: 33 - 44.

(2)_ ينظر:منهج الفن الإسلامي. محمَّد قطب. ص: 149.

• المبحث الأوّل: من مقاصد القرآن

جوانب العظمة كثيرةٌ في سيد قطب وأحسبُ أنها لا زالت تُشعّ في جُل كتاباته، فجّرها القرآن تفجيراً، والمتتبّع لحياة الرّجل منذ إقباله على تدارس القرآن، يلاحظ هذه الجوانب في ازديادٍ مستمر، والمنصفون يدركون هذا الترقّي السَّريع العجيب الذي بلغه، ويعرفون السّر فيما وراءه، وقد أصابَ أَنْفُسًا العجزُ وأخلدت إلى الرّاحة، وتغشّاها الحسد، فلم تعرف فضل الرّجل ولا سعيه، و كشفت عن ساق العداوة، وأمعنتِ النّيل وأطفحت الكيْل.

وهذه الفئة و إن أحسنّا بها الظنّ فإنها لا تملك الشّجاعة الأدبية لأن تشهد شهادة الحقّ ، لأنها لم تتعوّد إنزال النّاس منازلهم « فيستوي عندها ما يستحق الإعجاب، وما ليس يستحقّه، وتنظر إلى ميدان المفاخر كما ينظر المُقْعَدُ إلى ميدان الحرب لا يغشاه ولا مأرب لهُ فيه، نَظرةَ فُتُورٍ هي إن لم تكنْ نظْرةَ كراهةٍ ونفور »[1] .

غير أنّ الرّجل خرج بدِرَاسَتِهِ للقرآن الكريم كأعظم ما يكون الرّجالُ، ترقّياً في المكارم والعلياء، فمن المفاجأة المذهلة بتوفيقٍ من الله، في دراسته البيانيّة الخاصّة بالصُّوّر القرآن ـية ـالتّصوير الفني في القرآن ـ دَلَف إلى عالم القرآن الرّحيب، وهو أقوى شكيمةً وأمضى سلاحاً، متخطيّاً عتبة سحر البيان القرآني بأمان واطمئنان ليحوز على شرف مهّمات القرآن الحركيةِ والتربويةِ ،وهي التي لأجلها نزل القرآن لِيُعمل به ويُتَرَبَّى عليه المؤمنون.

والقضية التي تبقى تُلِحُّ عَلَ النَّاظر في العطاء الضّخم والجاد، الذي خلَّفه سيد قطب في ظرفٍ قِيَاسِيٍ قصيرٍ ،هوكيف قفز الرّجُل هذه القفزة الجبّارة من ميدانٍ هو ميدانُهُ ـالدّراسة الفنّية الجمالية ـ يُحسِنُ فيهِ الوسيلةَ والهدفَ إلى ميدانٍ السّالكون فيه قليل ؟!! و لعلّ الجواب بالتّأكيد أنه بمقدار ما تكون الجِدِّيةُ في الإقبال على القرآن، يكون الفتح والهدى والخير الذي ليس له حدود ﴿**والذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُم هدًى وءَاتَاهُم تَقْوَاهُم**﴾[2].

---

[1] ـ ساعات بين الكتب. العقاد.دار الكتاب العربي، بيروت، ط2 ؛1996م، ص: 50.

[2] ـ سورة محمد. الآية : 17.

على عين القرآن كبرت اهتمامات سيد قطب، وفي ظِلاله دَرَج وعاش، فكان يُطلعُنا أسرَارَ ه ويرشدنَا مُدَّخَرَاتِهِ فِي أغوارها، في عرض أخّاذٍ، وشيّقٍ يدعوا إلى النَّهم والاستزادة، يختلفُ تماماً عن طريقةِ العرض التي زوالها كثيرٌ من السَّابِقِين والمعاصرين له، فمثلهم ومثلُه كرجل يلقاك «وأنت جائع، فيحدّثك عن ألوان الطّعام المختلفة، ويصف لك نكهتها ومذاقها ولذّتها دون أن ترى مما يقول شيئاً، أو تتّذوق مما يصف لك لوناً، أما سيد قطب فإنه أشبه ما يكون برجل، أعدّ مائدةً حَافلةً بِمُخْتَلَفِ أصنافِ الطعام وألوانه،وَوَضَعَ عليها من أطَايِيبِ المأكولات المُختلفة المذاقات، بحيث مَلأتِ الجَوَّ بنُكْهتِهَا اللذيذةِ ورائحتها الفواحة، ثم أخَذَ بيدكَ وَسَطَ هذا الجو وأجلسك عَلَى المائدةِ بجانبه، ودعاك إلى التلذُّذِ بتناول ما شئت منها!»[1].

لأن القراءة التي قدَّمها ـ سيدـ هي قراءة ذات مفاتيح وهي سهلة ميسورةٌ في يدِ كُلِّ مَنْ أراد أن يتعرَّف على صُوَّر القرآن ، أو يتربَّى على توجيهاته ومعانيهِ العِظامِ، وهي قائمة على التقاط الدّلالة من النص القرآني بِلطْفٍ وعدم الانحراف بها عن المقصد الذي سيقت من أجله، مستبعدًا التأويلات التي لا تنزل من برجها إلى ميدان الجد والعمل.

لم تظهر القراءةُ الفكرية الحركية عند سيد قطب فجأةً، ولكنَّها خرجت من رَحِمِ المُعَانَاةِ وَسَطَ المحنةِ الَّتِي اصطلى بنارها، فثبَّتَهُ الله، وهداه إلى القرآن يستفتيهِ ويَسْأَله فيما أصابه وفي الذي حدث له فنَزَّلَ نصوص القرآن على الواقع الذي عاشه، وقوَّم الأحداثَ ووزنها بميزانِهِ، فوجد الجَوابَ الكافِيَ والخَبَر اليقينَ إِذْ مَا طَعْمُ الحياةِ إِنْ لم نستشر القرآنَ في شؤوننا ونَسْتَوضِحَهُ حَاضِرَنَا ومُستقبلنَا، ومن صحبته الطويلة للقرآن آتاه الله هذا الفهم الفريد،في إدراك طبيعة الإسلام وطبيعة الجاهلية[2].

ولو أن- سيداً- بقي على اهتماماته الأوَّلانِيَةِ الفنيةِ والجماليةِ، والفكريةِ والثقافيةِ، في دراسته للقرآن«فلن يعدو أن يكون مُتذوقاً مُتفرِّداً بين متذوقي جمال القرآن وبيانه!... ولن يَعْدو كذلك طبقةَ الباحثين والكتَّابِ المسلمين المعاصرين، الذين يَكتُبُون من وراء المكاتب، بمنطق ذهني عقلي ثقافي والذين تملأ مُؤَلفاتُهم أرفُفَ المكتَبَةِ الإسلاميةِ المعاصرةِ »[3].

---

[1] ـ نظرية التصوير الفني عند سيد قطب.الخالدي صلاح عبد الفتاح. ص:373-374.

[2] ـ " الجاهلية ":مصطلح قرآني.أنظر:كيف نكتب التاريخ الإسلامي.محمد قطب.مطبعة النجاح الجديدة،المغرب،ط2؛1992، ص:33. وينظر أيضا كتاب : جاهلية القرن العشرين. لنفس المؤلف.

[3] ـ المنهج الحركي في ظلال القرآن. الخالدي صلاح عبد الفتاح.دار عمار، الأردن، ط2؛2002، ص:45.

إنّ القراءة العملية ، لا تُلغي القِرَاءَةَ الفنية الجمالية بل تُضيفُ إليها إشارات لم يتطرق لها في "التصوير الفني"، و تَعْتَمِدُها في التوجيه والإيصال، ولكنها ليست بالدرجة الأولى كما كان سابقا وإنما أَخَذَتِ الحيِّزَ المُحدَّد لها في المساحة العامةِ للقراءة "التفسير" فالاهتمامات كبرت والأهداف التي تنزَّلَ لها القرآن قد وَضُحت لديه، فاستدعت هذه الاهتماماتُ والأهدافُ قراءةً جديدةً، تُلبِّي رَغْبَةَ الجيلِ الحاضرِ وتُزيلُ الفجوة التي نشأت بينه وبين القرآن بفعل الابتعاد عن الجوّ الذي نزل فيه القرآن وعن الأغراض الأساسية التي نزل من أجلها.

لأجل ذلك أعاد ـ سيد ـ كتابةَ الظّلال حسب القراءةِ الجديدةِ المُنْشِئَةِ للعمل والدّعوة والتّربية؛ في الطّبعة الثّانيةِ «فجاءتْ صُورةً جديدةً لا تكاد تجد شبهاً بينها وبين صورتها في طبعتها الأولى لا في الكم ولا الكيفِ ولا في الطريقة والمنهج... وكأنهما كتابان لمؤلِّفين مختلفين»[1] فما المقصود بالقراءة الحركية التي فهمها من القرآن ،وعاشها في ظلاله وطلب منا أن نحذو حذوه كي نفهم القرآن على حقيقته حقَّ الفهم.

إنّها تعني أنّ القرآن نزل ليعاش في النُّفوس و لا يُحفظ في الكتب، وهذه النّفوس تتربّى عليه فيظهر في تصوُّرِها وسلوكها، في حياتها ومماتها، وتُحكّمه في جميع أمرها، ولا تجنح لغيره في شؤونها «ونستطيع أن نلخّص في كلمات نظريته في التفسير: القرآن هو كتاب هذه الدعوة، والواقعية الحركيةُ مِن أهمِّ سِمَاتِه، ولابد من إدخاله المعركةَ مع الجاهلية، ولابد من الحياةِ في جوِّه، والحركةَ العمليةَ به، وتَلَقِّى نُصوصه للتّنفِيذ والإقبالِ عليه بروح المعرفة المُنشِئَةِ للعمل والتربية،لأنه لا يحرك أسرَارَه قَاعدٌ .. و لا يفتح كنوزه إلا لمن يتحرك به فعلاً» [2] وقد أبرز في الظلال عدّةَ سِمَاتٍ لهذا الدّين أبرزها الحركة بالقرآن في مواجهةِ الواقعِ أيَّ واقع كان.

إنَّ تُرجمة العقيده إلى سلوك كان من البديهيات عند جماعة الرّسُول صلى الله عليه وسلم ـ الأولى ـ حيث كان أحدُهم لا يجاوز العشر آيات في الحفظ حتى يعمل بهن فتعلموا العلم والعمل معاً «ومن ثم لم يكن أحدهم لِيستكْثِرَ منه في الجَلْسَةِ الواحدةِ لأنه كان يَحُسّ أنَّه إنما يستكْثِر من وَاجباتٍ وتكاليفَ يجعلها على عَاتقه،هذا الشعور شعور التَّلقي للتَّنفيذ كان يفتح لهم من القرآن آفاقاً من المتاع

[1] ـ المنهج الحركي في ظلال القرآن. الخالدي صلاح عبد الفتاح. ص : 30.

[2] ـ المرجع نفسه . ص : 43.

وآفاقاً من المعرفةِ، لم تكُن لِتُفتَحَ عليهم لو أنَّهم قصدوا إليه بشعورِ البحث والدراسة والاطِّلاعِ، وكان يُيَسِّر لهم العمل ويُخفّفُ عنهم ثِقلَ التكاليفِ ويَخلِطُ القرآن بِذَوَاتِهِمْ،ويحوّله في نفوسهم وفي حياتهم إلى منهجٍ واقعي وإلى ثقافةٍ متحركةٍ لا تَبْقَى دَاخلَ الأذهانِ ولا في بطونِ الصَّحائِفِ إنّها تتحول آثاراً وأحداثاً تُحوِّلُ خَطَّ سيرِ الحياة» [1]

إن ما يثمن "القراءة الحركية" هاته قوةً وصدقاً ، أنها تستَنِدُ إلى ركْنٍ ركين يتمثَّل في القرآن الكريم وسير الجماعة الأولى به، فمن آثار القرآن في حياة الصحابة ، أخذ سيد المنهج الحركي حينما بدأ يستشعر زمانهم وَواقعهم ،ويستحضِر حركَتَهم بالقرآن في أنفسهم ومن حولهم، و لما قارن بين نزول القرآن وعصره وَجد إخلافاً في التعامل مع القرآن ، ووجد تَنَكُّبا عن هَدْي الصّحابة الذين أحسنوا السّمع والطّاعة ﴿ **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوَاْ إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [2].

لقد كان استشعار –سيد قطب– لقضية الحركة بالقرآن والعمل به كبيراً جدّا ،ممّا جعله يؤكّد على مهمّة القرآن العمليّة لخطورتها وثِقلها وعظمها كأمانةٍ في أعناقنا، وكم ذا مرّةٍ يقول: « ولن ننتفع بهذا القرآن حتى نقرأه لنلتمس عنده توجيهات حياتنا الواقعة في يومنا وفي غدنا ،كما كانت الجماعة المسلمة الأولى تتلقّاه لتلتمس عنده التّوجيه الحاضر في شؤون حياتها الواقعة ، وحين نقرأ القرآن بهذا الوعي سنجد عنده ما نريد... »[3] وهكذا أعاد لمفهوم الحياة في القرآن والعمل به رَوَاءه ونضارته ومَسَحَ الأعين التي غَشِيَهَا ضَبَابُ البُعْدِ والتواكُلِ والسِّلبية ، لتستلْهِم حقيقة القرآن مباشرةً و يلامس قُلوبها، وزاد أن أرشدنا إلى طريقة تذوّقه وسبيل فهمه وتفسيره .

لم تكن القراءة الحركية مطروحةً بحدّة في أواخر القرن الثالث هجري، لأن دواعيها كانت ضامرةً أو تكاد تكون معدومة، ومن ثم انصرف العلماء إلى البحث الموسّع الذي يُعنى بالتثقيف أكثر من التربية، وإن كان ليس عُذراً يُبَرِّرُ التَّركيز على غير التّربية، لأن التّربية عمليَّةٌ مُسْتَدامةٌ، تَستغْرق حياةَ الأفرادِ كما تستغرق حياةَ الأمَمِ.

---

[1] ـ معالم في الطريق.سيد قطب. ص : 18.

[2] ـ سورة النور. الآية : 51.

[3] ـ في ظلال القرآن.سيد قطب.ج1، ص : 261.

والأممُ حين تترقّى في أسباب الحضارة ،إن لم تأخذ نفسها بالتّربية، يُلازم ذلك الترقّي الطراوةُ والترهُّلُ، ما لم تَضْبط أمورها بحزم، وتَستقيم على المعالم المنهَجية الكبرى التي سطّرتها أوَّلَ مرةٍ، فمع مرور الزمن تبدأ هذه القيّم تنماع وتضمحِلّ،لأسبابٍ داخليةٍ في الأمّة ذاتها، وعداواتٍ خارجيةٍ كانت لها بالمرصاد، ومن ثم تُفتِّشُ الأمة عن رصيدها فلا تُلفِي شيئاً !!. كذلك حدث للأمة الإسلامية! بدأت تنحرف شيئاً فشيئاً ثم راحت تتساقط سقوطاً مُتَهَالِكاً، حتى أضحت لا تساوي شيئاً في هذا العصر، من خير أمّة، تلك الأمّة التي أخرجت للنّاس، إلى ذلك الغثاء الذي يعرفه كل النّاس! فما هو السّبب؟ إنّهُ الابتعاد عن القرآن، وعدمُ التّعامل المطلُوب معه بجِدّيةٍ.

إنّ الأجيال المتأخِّرة لم تجد القرآن كما وجده جيل الصحابة، لأنها لم تشعر به كما كان يَشْعُرُ به أولئك الرّهط الكِرام « ونحن أيضاً مخاطبون بالقرآن في مثل ما خوطبت الجماعة الأولى وأنّ بَشَريتَنَا التي نراها ونَعرفها ونحسُّها بكُل خَصَائِصِهَا ، تملك الاستجابة للقرآن والانتفاع بِقيادته في ذات الطريق، إنَّنا بِهذِهِ النَّظْرة سَنَرى القرآن حَيّاً يَعْمَلُ في حياة الجماعةِ المسلمةِ الأولى ، ويملك أن يعمل في حياتنا نحن أيضاً، وسَنحُسُّ أنه معنا اليومَ وغداً، وأنه ليس مجرَّدُ تراتيل تَعَبُّدِيَةٍ مُهَوّمَةٍ بَعيدَةٍ عن واقعنا المحدّد، كما أنّه ليس تَاريخاً مضى وانقضَى وبَطُلَتْ فاعليتُهُوتَفَاعُلَهُ مَعَ الحَيَاةِ البَشَرِيَة »[1].

لأجل هذا كان ـ سيد ـ حريصاً على إعطاء هذه القراءة حقّها من العناية، وحظَّها من التّركيز رغبة في العودة إلى ما كان عليه الجيل الأول في علاقته مع القرآن ،لأنّ صورة المسلمين لا تعكس حقيقة ما جاء به الإسلام ،وصدق رسول الله ـصلّى الله عليه وسلّم ـ«بدأ الإسلام غريباً ،وسيعود غريباً كما بدأ ،فطوبى للغرباء » .[2]

بهذِه القراءة الحركية انفرد تفسيره في ظلال القرآن أصلاً عن التفاسير الأخرى ،كما أنّه اُعتبر «مدرسةً خاصةً في التفسير، يمكن أن نُطلق عليها اسم "مدرسة التَّفسيرِ الحركي" لأن المنهج الحركي ـأو الواقعي الجدي ـ لا يوجد في غيره ، وبهذا يمكن أن نعتبر سيد قطب مفسراً موهوباً، ومؤسساً لمدرسةٍ متميزةٍ فريدةٍ في التفسير في العصر الحديث وسيكون لها أثرٌ مباشرٌ ودورٌ رئيسيٌ في حركة

[1] ـ في ظلال القرآن. سيد قطب.ج4، ص : 394.

[2] ـ رواه :مسلم.رقم:232 ص : 72.

التفسير في المستقبل، بل سيتجاوز هذا ليؤدِّي دوره في الفكر الإسلامي وفي إقامة المجتمع الإسلامي المنشود...»[1].

وعند استعراضنا لبعضٍ من الآيات التي تطرّق إليها في ضوء المنهج الحركي، سوف نرُدِفُ ببعض التفاسير القديمة والمعاصرة له ، لنُلاحظ «تفرُّد سيد قطب في منهجه وطريقته في التفسير وأنّه تجاوز اهتماماتِ ومعالجاتِ ومناقشاتِ السابقين، وطَرق أموراً ومسائل ولفتاتٍ خاصة، تتّفق مع هدفه من الظلال ومنهجه فيه وأنه لم يلتق مع من سبقه في منهج ولا في طريقةٍ إلا لقاءات عرضيةٍ...»[2]

ونعود لنذكّر بالمنهج بأنه هو «الطريقة التي تضمن للباحث أن يصل الى الحقّ الذي يبتغيه ، ولا يضل في السّعي إليه بين السّبل المتشعبة ، ولا يلتبس الباطل عليه بالحق فيركن إليه ،ظانّاً أنّه الحق الذي يبحث عنه ويسعى إليه، سواء كان هذا الحق الذي يبحث عنه خيراً يريد أن يتبيّن صحته أو أن يعلم مضمونه ،أم أطروحة علمية يريد أن يعرف دلائل صحتها أو بطلانها ».[3]

لننظر الآن ما مدى التزامه بالمنهج والطريقة التي سار عليه ما في تفسيره ،فكل قراءة لا تحترم المنهج والطريقة الّذيْن أعِدّا سلفاً، ولا ترائي أهدافها المرجوة لا تؤتي ثمارها، و لا تثبت بحال ،بل لا تسمّى قراءة ،لأنّ القراءة الحقّة هي الّتي تملك رصيداً عمليّاً إلى جانب الرّصيد المعرفي ، ونجد من اهتمامات صاحبها بواقعه المعاش ومعالجته صدىً لما يقول،ولن يكون كذلك، إلاّ إذا كان رائداً في الّذي يأمر به أو ينهى عنه،وعندها يدرك خالص الذّهب من غيره .

أ- بيان حقيقة العقيدة:

العقيدة هي الموضوع الرّئيس في القرآن الكريم، والحديث عنها لا ينقطع في كتاب الله من أوّله إلى منتهاه، فالقرآن المكي الذي دام ثلاثة عشر سنة، كُلُّه كان في العقيدة قد استغرقَ المَسَاحَةَ كاملةً، بينما في المدينة كان القرآن يتنزَّل بالتشريع ولكن مستنداً إلى الحديث عن العقيدة ،لا يغفُلها تَماماً إنها في «السُّوَّرِ المدنِيَّة أشبهُ بالتيار الجاري تَسْتَنْبِتُ على شَاطِئيهِ الحياةَ عن كل جانبٍ لتترعرع وتزْدهر

---

[1] ـ مدخل إلى ظلال القرآن. الخالدي صلاح عبد الفتاح. ص : 154 – 155.

[2] ـ المرجع نفسه. ص: 263.

[3] ـ السلفية مرحلة زمنية مباركة.البوطي محمد سعيد رمضان.دار الفكر،دمشق،ط1؛ 1408هـ،ص : 60.

بعد أن تَشَبَّعَتْ بِها النّفس، فتجيءُ التنظيمات السياسيةُ والاقتصادية والاجتماعية والروحيةُ والفكريةُ، التي تُنظّم المجتمع المسلم فتشغُل معظمَ المساحةِ، ولكنّها تجيءُ مرتبطةً بالعقيدة مستَمَّدةً منها، نابتةً في ظلّها آوِيَةً في النهايةِ إليها»[1] وهذه الاستفاضة في الحديث عن العقيدة في القرآن الكريم لاحظه سيد قطب ووقف عنده طويلاً متأملاً حتَّى استَوعَبَهُ بصُورةٍ رائعةٍ، وعَاشَهُ، بل مات من أجْلِهَا.

وكلُّ تفسيره يدور على بيان هذا الأمر الخطير " العقيدة " ولا تخلو آية من كتاب الله إلاّ وأبرز هذا الهدف وهذه القاعدة الأساسية، وأخرج منها الْتِفَاتَاتٍ ودروسٍ عقيديةٍ وتربويةٍ وقد تَتَبَّعَ عقيدة لا إله إلاّ الله وما تستوجِبُهُ من أقصاها إلى أقصاها بالتّصحيح. والعرض والبيان.

وأوَّلُ شيءٍ لاحظهُ هو طريقةُ القرآن في عرضِ العقيدةِ الذي يختلف تماماً عن طريقةِ المتّكلمين الذين زاولوا ما يُسمّى علم التوحيد «فالتصور الإسلامي للألوهية وللوجود الكوني، وللحياة وللإنسان... تصورٌ شامل كاملٌ ولكنّه تصوّرٌ واقعي وإيجابي وهو يكره بِطبيعتهِ أنْ يتمثّل في مجرَّدِ تصوُّرٍ ذهنيٍ معرفيٍ لأن هذا يخالف طبيعته وغايته، ويجب أن يتمثل في أناسِيَ وفي تنظيمٍ حيٍّ وفي حركةٍ واقعيةٍ»[2] وبيَّنَ سيد أنّ العقيدة لابد أن تُقَدَّم من خلال القرآن، ولا تُبتر الأمور العقيدية من سيّاقها وتُدرَس في صورة نظريةٍ،كاشفاً قصور هذه الطريقة وهذا المنهج، الذي هو غريب على الحسِّ الإسلامي.

ولقد قلنا سابقاً إن سيد قطب يُخضع استنباطاتِهِ واستدلالاتِهِ للنّصوص القرآنية، وحركة الصحابة بالقرآن، وبهذا تعرّف على خطإ الذين فصلوا العقيدة عن سياقها وحوّلوها إلى نظرية «لأن خطاب المنهج القرآني للكينونة البشرية بجملتها، خطاب استحياء واستجاشة، وتنبيه لأجهزة الاستقبال المعطلة أو المشلولة... وبين خطاب الفلسفة واللاهوت وعلم الكلام للذهن بالتصورات التجريدية أو بالجدل البارد الذي لا يصل قط إلى الإقناع المؤثر المحيي للقلوب والعقول»[3]، والفرق بين الخطابين أصيل وضروري لفهم العقيدة وفهم طريقة عملها في النّفوس والحياة.

ولنمرّ إلى استعرض بعض قضايا العقيدة من خلال نماذج من القرآن الكريم، ولنشاهد كيف كان تفسير سيد لها؟ و لم ركّز عليها؟ مبيّنا المنهج القرآني، والطّريقة القرآنية في العرض.

---

[1] _ دراسات قرآنية. محمد قطب . ص:21.

[2] _ معالم في الطريق. سيد قطب. ص: 46.

[3] _ مقومات التصوير الإسلامي. سيد قطب. ص : 203.

1 ـ النموذج الأول الآية 136 من سورة النساء :

قال تعالى: ﴿**يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الّذِي نَزّلَ عَلَىَ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الّذِيَ أَنَزلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخر فَقَدْ ضَلّ ضَلاَلاً بَعِيداً**﴾[1]، هذه الآية من سورة النساء التي موضوعها «تربية الجماعة المسلمة بمنهج الإسلام، ومعالجة الرواسب الباقية من الجاهلية، وتعبئة النفوس ضد الضعف البشري الفطري ثم خوض المعركة بهذه الجماعة مع المشركين من حولها ومع المنافقين فيها» [2] إنها تتكلّم عن عناصر الإيمان التي يجب أن يؤمن بها الّذين آمنوا وهي :الإيمان بالله ورسوله، ورسالة الرّسول المتمثّلة في القرآن الذي أنزل إليه والكتب الّذي نُزّل من قبل، وبعد الإيمان بهذه العناصر يجيء التّهديد والوعيد ،ومن خلاله تُذكر عناصر الإيمان بالتّفصيل:الله والملائكة والكتب والرّسل واليوم الآخر.

وعناصر الإيمان هذه هي من أمور العقيدة، وقد عُولجت في مكّة بما فيه الكفاية ، وها هي في المرحلة المدنية تتواصل بذات المطالبة التي كانت في ما سبق، مما نفهم أن دروس العقيدة تظلّ تُطلب ويُذكّرُ بها، وليست تُعرَّف أو تقال في عَرض الإسلام وينتهي أمرها ،إنّما هي دروس تُعطى على الدوام

ولا شكّ أنّ ذكر مفردات الإيمان بالتّفصيل والتّأكيد عليها ملفت للنّظر « فهؤلاء الذين يطلب إليهم أن يؤمنوا هم مؤمنون بالفعل بنص النداء الذي يوجه إليهم! ولو كان الكلام: يا أيها الذين كفروا آمنوا، أو يا أهل الكتاب آمنوا، لما كان في التعبير ما يُلفت النظر، فهم غير مؤمنين يُدعون إلى الإيمان ، أمّا أن يُدعى المؤمنون بالفعل ليؤمنوا فشيءٌ يُلفِتُ النظّر بكل تأكيد!! إن المطلوب بلا شك ليس تحصيل حاصل لما هو كائنٌ بالفعل، إنَّما المطلوب هو التمسُّك بهذا الإيمان القائم في النفوس والاستزادة منه، والعمل على تنميته على الدوام،كي لا ينقص ولا يتأرجح»[3]

والقرآن الكريم يُركّز على هذه القضايا العقيدية بالتّفصيل حتى تتميّز هذه الأمّة بهذا الإيمان الذي حدّده القرآن بدقّة عن غيرها من الأمم التي تَدّعى الإيمان ليس التّركيز على العقيدة في مرحلة التّشريع يأتي عرضاً ،وإنما هو للتّذكير والاستزادة وللتّهيئة لإقامة العدل الربّاني في الأرض بين النّاس

---

[1] ـ سورة النساء. الآية :136.

[2] ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج2، ص : 779.

[3] ـ دارسات قرآنية. محمد قطب. ص : 477.

لأن هذه الآية تأتي في سياق التّوجيه والتّربية التي جاءت الآية السابقة أيضاً فيه ،لإحقاق العدل الربّاني بين النّاس في الأرض[1] وأن تكون هذه الأمة شاهدة بإيمانها وبإقامة العدل ، حتى لا يتغير الميزان الحقّ وأن تُقدم الشهادة لله "شهداء لله" ولكي تقيم ذلك ، فلابد من ذلك الإيمان المحدّد المفصّل والعميق اعتقاداً جازماً،والاستقامة عليه بالتّربية والتّكرار.

2-النموذج الثاني الآية 28 من سورة الحديد :

وقريباً من آية النساء السابقة في التركيز على العقيدة الذي ركز عليه سيد قطب في تفسيره بالشرح والتوضيح هذه الآية ﴿ **يَأَيُّهَا الّذِينَ آمَنُواْ اتّقُواْ اللّهَ وَآمِنُواْ بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفلَيْنِ مِن رّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رّحِيمٌ**﴾[2] ومما يلاحظ أيضاً أنَّ السورة مدنية ،وأن التأكيد بكلمة آمنوا ملفت للنظر ، مثله مثل سورة النساء، لكن سيد ا يُبّين شيئاً أكبر من هذا ،وهو موضوع السورة القائم على تحقيق حقيقة الإيمان في النفس، ومن ثم تأتي الآية لتخصّ المؤمنين أن يتجردوا من كل شائبةٍ تشوب الإيمان.

ومن أركان الإيمان تحدد الآية: الله ورسوله ويقتضي الإيمان بما جاء به الرسول : الإيمان باليوم الآخر والملائكة والكتب والرسل «والقَدر خَيره وشرِهِ» كما جاء في حديث «هذا جبريل أتاكم يُعلمكم أمر دينكم»[3]، فالسورة كلها تركيز على ترسيخ العقيدة في القلب، لأنّه حين تَترسَّخُ هذه الحقيقة تنبثق الأمور الأخرى التي جاءت السورة تُشرِّع لها فتأتي الاستجابة بعفوية وحبٍّ وإخلاصٍ وتنافسٍ عجيب.

وَإنّ ها هُنَا فَرقاً شاسعاً بين تنظيمات وتشريعات تستند إلى العقيدة ، وأخرى لا تستند إليها والواقع التاريخي يصدّق ذلك ،إنّه متى ما استقامت حَقيقة الإيمان في النفوس ،وخلصت القلوب «لدعوة الله فلا تَظِنُ عليها بشيء، ولا تحتجز دونها شيئاً... لا الأرواح ولا الأموال ولا خلجات القلوب ولا ذوات الصدور... وهي الحقيقة التي تستحيل بها النُّفوس ربانيةً بينما تعيش على الأرض، موازينها هي موازين الله، والقيَّم التي تعتزُّ بها وتتسابق إليها هي القيم التي تثقُل في هذه الموازين، كما

(1) ـ يُنظر: واقعنا المعاصر.محمد قطب. المؤسسة الوطنية للفنون وحدة الرغايه،الجزائ ط1 ؛1989، ص:63

(2)–سورة الحديد . الآية 28 .

(3) ـ رواه الشيخان. البخاري. رقم 50، ص: 25. ومسلم، رقم8 ،ص:27 .

هي الحقيقة التي تُشْعِرُ القلوب بحقيقة الله، فتخشع لذكره وتَرْجُفَ وتَفِرُّ من كل عَائِقٍ وكل جَاذب يُعَوِّقُهَا عن الفرار إليه»[1] فعملية البناء تتطلب الإيمان الدائم أولاً لكي يستقيم التشريع عليه ثانيًا.

وعلى طريقة القرآن في الوصول إلى القلوب تربيةً وتذكيراً ، فإن آية النساء السابقة قَدّمت تلك القضايا العقيدية مرتبطة في سيّاق الترهيب والوعيد بينما تقدّم آية الحديد (28) الجوانب العقيدية التي تدعو إلى الالتزام بها في سياق الترغيب، "كفلين من الرحمة" و "النور" و "المغفرة".

والترغيب والترهيب وسيلتان من وسائل التربية، يستعملهما القرآن في معالجة «الفطرة في دقّة بَالغة فيعالج كل وترٍ منها، وكل نغمةٍ تَصْدُر عن هذا الوتر فيضبطها بِضَبْطِها الصّحيح، وفي الوقتِ ذاته يعالج الأوتار مجتمعةً لا يعالج كُلاً منها على حِدة فَتُصبِحُ النغمات نَشَازاً لا تناسَق فيها، ولا يعالج بعضها ويهمل البعض الآخر، فتصبح النغمة ناقصةً غير معبرةٍ عن اللحن الجميل المتكامل الذي يصل في جماله الأخّاذ إلى درجة الإبداع»[2].

وهكذا يأتي التركيز على مفردات العقيدة، كل مفردة تشغل المساحة المعلومة والمقدر لها في كتاب الله، وأول هذه المفردات الألوهية ، فإذا كانت العقيدة هي الموضوع الكبير والمهيْمِن في القرآن فإن الألوهية هي الموضوع الرئيس للعقيدة، إنّه يأتي التركيز على العقيدة أولاً وآخرا لا لأن المشركين كانوا ينكرون بعض قضاياها ولكن الله يعلم أن الحياة الإنسانية لا تستقيم بغير عقيدة الإسلام ﴿**أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾،[3] من أجل ذلك يعْرض المولى عز وجل هذه العقيدة وفي مقدمتها الأُلوهِيَة في القرآن بشتى الوسائل وكل السبل لتنغرس في قلوب عباده ويعمقها ويطلب منهم أن يرعوها حق رعايتها.

أنظر: كيف عرض القرآن الموضوع الأساسي لعقيدة الأُلوهيَة. [4]

أ ـ فتارة يعرضها من خلال آيات الله في الكون، الدالة على عظمته وقدرته وعظيم سُلطانه وآية من هذه الآيات تكفى للذين هم يسمعون بقلوبهم ﴿ **قُلْ أَإِنّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدّرَ**

---

[1] ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 6 ، ص : 3475.

[2] ـ منهج التربية الإسلامي. محمد قطب. ج 1 ، ص : 18.

[3] ـ سورة الملك. الآية : 14.

[4] ـ ينظر:لإله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة. محمد قطب.دار الشّروق،القاهرة ، ط1؛1415ـ 1995م،ص:30.

فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِيَ أَرْبَعَةِ أَيّامٍ سَوَآءً لّلسّآئِلِينَ ثُمّ اسْتَوَىَ إِلَى السّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ فَقَضَاهُنّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىَ فِي كُلّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيّنّا السّمَآءَ الدّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[1]

ب ـ وتارة يعرض الألوهية من خلال مشاهد القيامة التي ترتجف لها الأوصال وتقشعر لها الأبدان كهذا المشهد الذي تصوّره هذه الآيات :

قال عزّ وجلّ : ﴿وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسّمَاوَاتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىَ عَمّا يُشْرِكُونَ وَنُفِخَ فِي الصّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاّ مَن شَآءَ اللّهُ ثُمّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىَ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنّبِيّيْنَ وَالشّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ وَوُفّيَتْ كُلّ نَفْسٍ مّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ وَسِيقَ الّذِينَ كَفَرُواْ إِلَىَ جَهَنّمَ زُمَراً حَتّىَ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـَذَا قَالُواْ بَلَىَ وَلَـكِنْ حَقّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ قِيلَ ادْخُلُوَاْ أَبْوَابَ جَهَنّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبّرِينَ وَسِيقَ الّذِينَ اتّقَوْاْ رَبّهُمْ إِلَى الْجَنّةِ زُمَراً حَتّىَ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُواْ الْحَمْدُ للّهِ الّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوّأُ مِنَ الْجَنّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ وَتَرَى الْمَلاَئِكَةَ حَآفّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبّحُونَ بِحَمْدِ رَبّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقّ وَقِيلَ الْحَمْدُللّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ﴾[2]

ج- وتارة يعرضها من خلال الرسل الكرام- عليهم السّلام - واستسلامهم لأمر الله وطاعتهم له كهذا الحوار : ﴿وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنّاسِ اتّخِذُونِي وَأُمّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنّكَ أَنتَ عَلاّمُ الْغُيُوب مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاّ مَآ أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ

[1] ـ سورة فصلت. الآية : 9 حتى 12.

[2] ـ سورة الزمر. الآيات : 67 حتى 75.

اللّهَ رَبّي وَرَبّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمّا تَوَفّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىَ كُلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1]

أو كهاته الوصية الجامعة التي تبيّن حقيفة الميراث، وإيمان الرّسل-عليهم السّلام- : ﴿وَوَصّىَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيّ إِنّ اللّهَ اصْطَفَىَ لَكُمُ الدّينَ فَلاَ تَمُوتُنّ إَلاّ وَأَنْتُم مّسْلِمُونَ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـَهَكَ وَإِلَـَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[2]

د ـ وتارةً يعرضها من خلال الجدل الذي يجري بين الرّسل والأقوام الجاحدين و إحقاق السنن الربانية عليهم بانتصار أصحاب الحق ،وإزهاق الباطل وأصحابه ،وهذا نموذج:

﴿وإلَى عَاد أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّن إِلَهٍ غَيْرُهُ أفلاَ تَتَّقُونَ قَالَ المَلأُ الذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وإنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ ولَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العَالَمِينَ أبَلِغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ امِينٌ اوَ عَجِبْتُمُ أن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ بَصْطَةً فِي الْخَلْقِ فَاذْكُرُوا ءَالاَءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ قَالُوا أجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إن كُنْتَ مِنَ الصَادِقِينَ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم رِجْسٌ وَغَضَبٌ أتجا دِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا أنْتُمْ وآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِن سُلطَانٍ فَانتَظِرُوا إنِّي مَعَكُم مِّنَ الُمنتَظِرِينَ فَأَنْجَيْنَاهُ والذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَا وقَطَعْنَا دَابِرَ الذِينَ كَذَّبُوا بِئايَتِنَا ومَا كَانُوا مُومِنِينَ﴾[3]

هـــ ـ وتارة كان يعمق العقيدة ويرسخها من خلال تعريف النّاس بربهم بأسمائه الحسنى ﴿هُوَ اللّهُ الّذِي لاَ إِلَـَهَ إِلاّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ هُوَ الرّحْمَـَنُ الرّحِيمُ هُوَ اللّهُ الّذِي لاَ إِلَـَهَ إِلاّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدّوسُ السّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبّارُ الْمُتَكَبّرُ سُبْحَانَ اللّهِ عَمّا يُشْرِكُو ن هُوَاللّهُ الْخَالِقُ الْبَارِىءُ الْمُصَوّرُ لَهُ الأسْمَآءُ الْحُسْنَىَ يُسَبّحُ لَهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَهُوَ

[1]ـ سورة المائدة. الآيتان : 116 ، 117.

[2]ـ سورة البقرة. الآيتان : 132 ، 133.

[3]ـ سورة الأعراف. الآية : 65 حتى 71.

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1]،وأسماء الله وصفاته تحيط بالقلب البشري في القرآن من جميع الجهات ومن خلالها يتعرف الإنسان على ربه ويحقق العبودية له.

وإلى جانب القرآن في هذا النّطاق قدمت السنّة [2] تفصيلات عملية لكل ما يقوم به المسلم بالليل والنهار، عند الاستيقاظ وعند النوم، وعند الأكل والشرب، عند الطهارة والملبس، عند المسجد والبيت، عند الخوف وعند الرجاء، عند الحزن والفرح، عند كل صغيرة وكبيرة، فكانت السنّة تفسر وتبيّن ،وتثبت وتؤكد وتفرّع ما جاء به القرآن.

وكان صلى الله عليه وسلم هو القدوة في ذلك ،علم أصحابه أن يكون الحبل بينهم وبين الله موصولاً لا ينقطع أبداً «يا حيّ يا قيوم برحمتك استغيث أصلح لي شأني كُلَّهُ ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين» [3] ولأجل ذلك كان سيد يركز على العقـــيدة أولاً وآخـــرًا، وهو على يقين أنها محور الارتكاز في إصلاح الحياة على هذه الأرض.

3-النموذج الثالث: سورة الأنفال الآية 24

﴿**يَا أَيُّهَا ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُون**﴾ تقع هذه الآية في الدرس الأوّل من سورة الأنفال المدنية المتكون من (29) آية والذي موضوعه بيان حكم الله في الأنفال وهو أيضاً متعلق بموضوع السورة الذي يبين الروابط المتعلقة بالسلم والحرب على أساس العقيدة، والآية تهيب بالذين آمنوا وتهتف بهم أن يستجيبوا لله وللرسول ،وهذا الهتاف للذين آمنوا يسير وفق خطي الترغيب في الاستجابة والترهيب من الاستمرار في الإعراض.

وترتبط الآية بالتي سبقتها حيث يقول:لا تكونوا مثل﴿**إِنّ شَرّ الدّوَابّ عِندَ اللّهِ الصّمّ الْبُكْمُ الّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلّواْ وّهُمْ مّعْرِضُونَ**)[4] ويُطلب منهم الاستجابة بصيغة الأمر«والاستجابة هي السّماع الصّحيح وكم من ناس تفهم عقولهم ولكن

---

[1] ـ سورة الحشر. الآيات : 22 ،23 ، 24.

[2] ـ ينظر: لاإله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة. محمد قطب . ص: 36.

[3] ـ رواه النسائي،في الترغيب والترهيب .المنذري. ج1رقم:313 .

[4] ـ سورة الأنفال. الآيتان : 22 ،23 .

قلوبهم مطموسة لا تستجيب» [1] والذين يستجيبون لله وَ للرّسول هم الذين لا يقعدون عن مقاومة الفساد ،لأن السرة في إهلاك المفسدين لا تأخذ الّذين أجرموا فقط،وإنّما تطال كذلك الين لم ينهوا عن المنكر من الصّلحاء نعم تأتي على الجميع ولا تستبقي أحدًا، فالإسلام يريد من معتنقيه المحافظة على نعمة الحياة التي يحيونها.

والاستجابة هذه تكون كاملة وتامة لدعوة الرّسول التي فيها الحياة بكل ما تعنيه الحياة و العيش في ظل العقيدة الربّانية ،وفي ظلّ شريعته وسلطانه أحراراً وأعزاء مكرّمين ، والحياة الحقيقيّة التي يكون الناس فيها أعزّاء وأحراراً، يجدون السّعادة والطّمأنينة في نفوسهم وفيما حولهم، لا توجد إلا في هذا الدّين، هذا الدّين الّذي ارتضاه الله لعباده جميعاً،ومن ثمّ الله أعلم بنا وبما يصلح أحوالنا،ومتى نسعد ومتى نشقى، وعند استعراض الأحداث التاريخية يمكن معرفة قيمة الحياة في ظل الإسلام التي نعِم بها المسلمون وغير المسلمين .

وبهذا الشكل يربط ـسيد ـبين موضوع السورة وموضوع الدرس ، وبين آيات الدرس الواحد وأنت بين آيات الدرس تحسُّ بذلك التسلسل الذي ينتقل فيه من آية إلى آية بغير عنت ولا كزازة كأنّما هويسرده سرداً .

ونأتي إلى المفاجأة التي تحمله ا الآية في نصفها الأخير :(**واعْلَمُوا أَن الله يُحَولُ بَيْنَ المَرْءِ وقَلْبِهِ**) «ويا لها من صورةٍ مُخيفة للقدرة القاهرة اللّطيفة (يحول بين المرء وقلبه) فيفصل بينه وبين قلبه ويَستحوذ على هذا القلب ويحتجزه ويصرفه كيف شاء، ويقلّبه كما يريد، وصاحبه لا يملك منه شيئاً، وهو قلبه الّذي بين جنبيه»[2] وبعد التّحذير من التعلّق بما سوى الله سبحانه وتعالى أورد حديث الرّسول صلى الله عليه وسلم: «اللّهم يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك» [3] مبيّناً عظمة هذا الدّعاء الذي كان يُكثر منه الرّسول المعصوم ـ صلّى الله عليه وسلم– فكيف بالنّاس العادين ؟والّذين هم غير معصومين .

---

[1] ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 3، ص: 1494.

[2] ـ المصدر نفسه. ج 3، ص: 1495.

[3] ـ رواه البخاري برقم : 5998، ومسلم برقم: 2317.

4-النموذج الرابع : سورة الأعراف: الآية :172

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبّكَ مِن بَنِيَ آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرّيّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىَ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبّكُمْ قَالُواْ بَلَىَ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنّا كُنّا عَنْ هَـــذَا غَافِلِينَ﴾ .

من أعظم ما يميز الإسلام أنّه دين الفطرة، فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وهو أعلم بمن خلق ،إذ جعله مفطوراً على الإيمان، إذِ الفطرة «الْجِبِلَّةُ القَابِلة لِدين الحق»[1] فبنو آدم كلّهم مؤمنون بفطرتهم، يستوي في إيمان الفطرة المسلمون والكفّار، وقد أشهدهم ربّهم على هذا الإيمان الّذي ذكر في الآية، وقد ذكر العلماء وجهين من التّفسير لهذه الشّهادة ، الّتي أخذت من الخلق للاعتراف بالرّبوبية : شهادة بلسان الحال وأخرى بلسان المقال.

ويكون تفسيرهما:«أن معنى أخْذِه ذرية بني آدم من ظهورهم، هو إيجاد قرن منهم بعد قرن وإنشاء قوم بعد آخرين كما قال تعالى:﴿كَمَآ أَنشَأَكُمْ مّن ذُرّيّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾[2]، ومعنى (**وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىَ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبّكُمْ**) أن إشهادهم على أنفسهم بما نصب لهم من الأدلة القاطعة بأنه ربهم المستحق منهم لأن يعبدوه وحده، وعليه فمعنى قالوا : بلى ،أي قالوا ذلك بلسان حالهم لظهور الأدلة عليه... الوجه الآخر في معنى الآية أن الله أخرج جميع ذرية آدم من ظهور الآباء في صورة الذرّ، وأشهدهم على أنفسهم بلسان المقال (**أَلَسْتُ بِرَبِكُمْ قَالُوا بَلَى**) ثم أرسل بعد ذلك الرسل مذكرةً بذلك الميثاق الذي نسيه الكل، و لم يولد أحد منهم إلا وهو ذاكرٌ له وإخبار الرُّسُل يَحْصُل بِهِ اليقين بوجوده »[3].

والصّورة الأخيرة لشهادة عالم الذرّ، هي التي ركّز عليها ـ سيد قطب ـ عند تفسيره هذه الآية، لأن هذا الوجه من التفسير يَعْضُدُهُ الكتاب والسنّة، فمن ذلك قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿**وَمَا كُنّا مُعَذّبِينَ حَتّىَ نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴾[4] والتي تقطع الأخبار في أن الذي تقوم به الحجة هي إنذار الرسل وتذكير الفطرة بالعهد المأخوذ عليها في عالم الذر، وكذلك مَالَ إليه صاحب أضواء البيان وَأَيَّدَهُ.

---

[1] ـ أساس البلاغة. الزمخشري . ص:476.

[2] ـ سورة الأنعام. الآية : 133.

[3] ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. الشنقيطي محمد الأمين بن محمد المختار.دار الكتب العلمية، بيروت، ط1؛ 1417هـ-1996م، ج2. ص: 250 و 251.

[4] ـ سورة الإسراء . الآية:15.

وقد ساق ـسيدـ مقطعا من تفسير ابن كثير هو نَفْسُ وجهي التفسير السابقين كما ركَّز على الحديث المروي في الصّحيحين عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال:رسول الله عليه وسلم« كل مولودٍ يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمَجِّسَانِهِ »[1] وكذلك حديث عياض بن حمار قال: قال: رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «يقول الله عز وجل خلقت عبادي حنفاء "و في رواية مسلمين" فاجتالتهم الشياطين» [2] ولكن سيد قطب للأمانة العلمية لا يستبعد وجهي التفسير معاً، ويكل علم ذلك لله رب العالمين.

ويستخرج من شهادة لسان المقال حقيقة طلاقه المشيئة الإلهية التي لا تمنعها الموانع حين تشاء، ويتبيّن لنا وهو يركز على طلاقة المشيئة الإلهية ثقته المطلقة بما جاء عن الرسول صلى اله عليه وسلم في الأحاديث التي تَخُصُّ شهادة المقال.

ومن سمات هذه القراءة أنها تضرب صفحًا عن التمحُّلات التي تحاولها العقول، في تعليل بعض الآيات التي تَصِفُ مشاهد لأفعال الله سبحانه وتعالى ، محاولة إدراك كيفياتها «والله ليس كمثله شيء فلا سبيل إلى إدراك ذاته ولا إدراك كيفيات أفعاله، . .. وكذلك جهل وضل كل من حاول ـ من الفلاسفة والمتكلّمين ـ وصف كيفيات أفعال الله وخلطوا خلطاً شديداً»[3]

إن سيّد يريد من النصِّ أن يقرّر ابتداءً، أمّا هو فيستمع ويستجيب، ولهذا فهو يستنبط هذه الحقائق والتصوُّرات مباشرةً من النّص القرآني والحديث، دون حاجة إلى رأي فلان أو علاّن وطريقته في دفع القارئ إلى النّتيجة العملية والخروج به من الأوجه المُحتملة معروفة ، وذلك في الوقوف عند حدود ما يطلبه النّص، لأن القضية قضية امتثال للأوامر واستماعٍ ، وليست قضيَّة استعراض للأوجه المختلفة ، التي على وجاهتها قد تذهب بالأمر المراد.

ولقد كان وقّافًا عند أمر الله المطلوب ، فـفي هذه الآية يكتفي دون أن يمضي قُدماً فيقول:«وفي أيّ من الحالين يخلص لنا أنّ هناك عهداً من الله على فطرة البشر أن نوحّده وأنَّ حقيقة التّوحيد مركوزةٌ في هذه الفطرةِ، يخرج بها كل مولودٍ إلى الوجود، فلا يميل عنها إلاّ أن يُفسِد فطرته

---

[1] ـ أخرجه البخاري. فتح الباري، ج 3 رقم 1291 . ومسلم ج5 / رقم : 2658.

[2] ـ أخرجه : مسلم ج5 / رقم : 2865.

[3] ـ في ظلال القرآن.سيد قطب. ج3، ص : 1393.

عامل خارجي عنها ! عامل يَستغِلُّ الاسْتعْدَادَ البشريَّ للهدى والضَّلالِ، وهو استعداد كذلك كامن تُخْرِجُهُ إلى حَيِّز الوجودِ ملابساتٌ وظروف ».[1]

وغَنيٌ عن البيان، أن العقيدة تُعرض في القرآن الكريم من زوايا شتّى كما سبق، وفي هذه المرّة يُلفتنا سيد إلى الباب الواسع، باب الفطرة لأنّ «الله خلق بني آدم وفطرهم على قبول الإسلام والميل إليه دون غيره، والتهيُّؤ لذلك، والاستعداد له بالقوة»[2] فالإيمان حَاجَةٌ فطرية في الإنسان، وقد يُغطّي الْفِطْرَةَ الرّكامُ ويحجبها عن الاهتداء إلى الله الواحد، ولكن هناك حالات تنتفض فيها وتعود لتتوجّه إلى بارئها الحق، وتوحّد الله توحيداً عظيماً فيه الإخلاص.

ويحدث هذا عند ما تتعرّض النفس البشريةُ للشدائد والأهوال كما يصّورها القرآن في هذه الآيات ﴿ **هُوَ الّذِي يُسَيّرُكُمْ فِي الْبَرّ وَالْبَحْرِ حَتّىَ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلّ مَكَانٍ وَظَنّوَاْ أَنّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَـَذِهِ لَنَكُونَنّ مِنَ الشّاكِرِين فَلَمّآ أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ**﴾ [3].

وكهذه الآية العجيبة أيضاً من سورة يونس ﴿ **وإِذَا مَسَّ الإنْسَانُ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أوْ قَاعِداً أوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأن لَّمْ يَدْعُنَا إلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ للْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[4].

ويُصوِّر القرآن حالة النفس الإنسانية حينما تنبهر بروعة الكون وترتفع درجة إحسَاسِها كما في قوله تعالى: ﴿**إنَّ فِي خَلْقِ السَمَوَاتِ والأرْضِ واخْتِلافِ الليْلِ والنَّهَارِ لَايَاتٍ لأولِي الألبَابِ الذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وقُعُوداً وعَلَى جُنُوبِهِمْ ويَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماوَاتِ والأرضِ رَبّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَد اَخْزَيْتَهُ ومَا لِلظَّالِمِينَ مِن**

(1) ـ في ظلال القرآن.سيد قطب. ج3، ص: 1394.

(2) ـ إيقاظ الهمم المنتقى من جامع العلوم والحكم. سليم بن عيد الهلالي.دار ابن الجوزي، السعودية، ط4؛ 1419هـ-1998م. ص:343.

(3) ـ سورة يونس. الآيتان 22 ، 23.

(4) ـ سورة يونس الآية : 12.

أَنْصَارٍ﴾[1] أو كما في آيات الأنعام (**74** حتى**83**) التي تُصوِّرُ فطرة ابراهيم المستقيمة التي رفضت تلك الآلهة المزعومة من الكواكب وغيرها، وتوجهت للحي القيُّوم الذي فطر السماوات والأرض، أو كما في غير ذلك من آي الذّكر الحكيم .

والفطرة لا تحتاج إلى مجرد إله بل تحتاج إلى الإله الحق ؛ الذي ينجي من الكرب ويكشفه، الذي له الدّين، تحتاجُ إلى الإله الذي فطر السماوات والأرض، الإله الذي أرسل الرسل للتّعريف به، ومن ثم فالإله المركوز في الفطرة والذي تستمع إليه هو ذات الإله الموجود في العقيدة الإسلامية .

فما إن تستمع الفطرة إلى نداء العقيدة حتى تؤوب وتنتفض وتتذكّر ذلك العهد المأخوذ عليها وتقول: ﴿**رّبّنَآ إِنّنَآ سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبّكُمْ فَآمَنّا رَبّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفّرْ عَنّا سَيّئَاتِنَا وَتَوَفّنَا مَعَ الأبْرَارِ** ﴾[2] ولأجل هذا فالفطرة الإنسانية أمام الرُّسل والدّعاة إلى الله تُعَدُّ رصيداً مّدخراً يُساعدهم في الدُّخول إلى قلوب المدعوّين وتحريك هذا العامِل المساعدِ يساعد في الاستسلام للهِ ربّ العالمين.

ومهما يكن الواقع ثقيلاً، وضخماً في العقائد والتصوُّرات، والقيّم والموازين والعادات والتّقاليد، والأخلاق والمشاعر، فإن الفطرة تكون أغلب، كما حدث أن جاء الإسلام أوّل مرّة وانتصر على واقع الجزيرة العربية، والعالم من وراءِهِ يوم ذاك، «لقد وقع الذي وقع من غلبة هذا المنهج، لأنه تعامل من وراء الواقع الظاهري مع رصيد الفطرةِ المكنونِ، وهو رصيد _ كما أسلفنا _ ضخمٌ هائلٌ لا يغلبه هذا الرّكام الظّاهري حين يُستَنْقَذ ويُجَمَّعُ ويوجَّه، ويطلق في اِتِجَاهٍ مرسومٍ »[3] والنَّفس الإنسانية هي النفس الإنسانية ورصيد التّجربة باقٍ وخير معينٍ لأصحاب العقيدة ولِلّه الأمر من قبل ومن بعد.

لقد كان ما يُميّزُ الرّجل وهو يَغْرفُ من القرآن :الصّدقُ الذي يلمسه القارئ لعمله ،فلقد أخبرنا عن صدق التّعامل مع القرآن الذي لأجله تُفتح كنوز القرآن، فلو عدنا نُحصي ما تعرض له من وقفاتٍ عند هذه الآية لعلمنا أنّه قدَّم خيراً كثيراً، فمن ثقته المطلقة بالنص القرآني، إلى رفضه منهج

---

[1] _ سورة آل عمران : الآية 190 حتى 192.

[2] _ سورة آل عمران. الآية : 193.

[3] _ هذا الدين . سيد قطب. دار الشروق، القاهرة، ط 8؛ 1403هـ - 1998م. ص: 54.

المتكلمين والفلاسفة في تناول صفات الله وأفعاله ، إلى مسايرة العقيدة للفطرة في توجهها إلى الخالق الأحَد واعتبارِها رصيداً للعقيدة في التمكُّن من القلوب إلى غير ذلك من الوقفات التي كان يقدمها في عرضٍ جميلٍ ومُوح ،تلحظ من خلاله البَتَّ في كثيرٍ من القضايا، إنْ تَقْرَأهَا عند غيره لا تتبيّن استقرارها من عدمه.

وقبل أن ينهي الآية يقف عند رحمة الله في إرسال الرُّسل لهدايةِ عبادهِ «وقدَّر ألاّ يُحَاسبَهُم على عهد الفِطرة هذا كما أنّه لا يُحاسبهم على ما أعطاهم من عقل يُميِّزون به، حتى يُرسِلَ إليهم الرُّسُلَ، ويفصّل لهم الآيات، ولِاستنقاذ فطرتهم من الرُّكام والتعطُّلِ والانحراف واستنقاذِ عقلهم من ضغط الهوى والضعف والشهوات»[1] .

وبِهذِهِ الوقفة الخاصة برحمة الله بعباده يكون المفسر سيد قطب قد خرج إلى الآية التي تليها بشكل سلسٍ إلى تفصيل الآيات التي جاء بها الرسل وهي الحجة المقامة من الله على عباده، وليس وكْلهم إلى الفِطرِ والعقولِ.

ب ـ قراءة السنن الربّانية:

اقتضت مشيئة الله وحكمته أن تكون هناك سننٌ ربانية تحكم الكون فهو مُطَّرد في سيره إلى أن يشاء الله، وأخرى تحكم حياة الإنسان فرداً وجماعات، وهذه السنن ثابتة لا تتبدل ولاتتحول ﴿**فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً و لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً**﴾ [2] والسنن الربانية التي تَتَحَكَّمُ في الأفراد والمجتمعات قد تتحقق في حياتهم وقد لا تتحقق، وكثيرًا ما تُقرأ السنن الاجتماعية من خلال التاريخ بل هي التاريخ عينه ﴿**قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ**﴾[3].

والسنن الربانية أيضًا «لا تفرض سلوكاً قهرياً معيناً على الإنسان ولا تقع بمعزلٍ عن إرادته إنما هي تفرض نتائج حَتْمِيةً على السلوك الذي يَتَّخِذُه الإنسان باختياره»[4] والقرآن الكريم يلفتنا إلى أخذ

---

[1] ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 3،ص: 1395 و1396.

[2] ـ سورة فاطر. الآية: 43.

[3] ـ سورة آل عمران. الآية: 137.

[4] ـ مذاهب فكرية معاصرة . محمد قطب. ص: 407.

العبرة ممن سبق ويحذرنا من أن نكون مثلهم لأنهم لم يمشوا أسوياء حسبَ الصِّراط المستقيم، ولقد وقف سيد عند هذا المقصد القرآني طويلاً وجعله نصب عينيه في تفسيره كلما وجد لذلك سبيلاً، مبيناً أن الحياة البشرية محكومةٌ بضوابط كالحياة الكونية سواءٌ، وليست الأمُور فوضى وعبثاً تَتَخَبَّطُ فيها المجموعاتُ وتَضْمَحِلُّ فيها الأفراد بلا ناموسٍ ولا دليل .

1- **النموذج الأول** : سورة الأنعام الآية **44** :

﴿**فَلَمّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ** ﴾ بَيَّن سيد قيمة الابتلاء بالرخاء وأنَّه أشدُّ من مرتبة الابتلاء بالشِّدَّةِ، وأَورَدَ حديث الرّسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يفسر تفرُّدَ المؤمن في ابتلائي الرَّخاء والشِّدَّةِ بالخير عن غيره من النَّاس. إن صبر وشكر والحديث الذي أورده « عجباً للمؤمن إنَّ أَمرَه كلَّه خير وليس ذلك لأحَدٍ إلاّ للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له »[1].

وكعادة سيّد في طريقة تفسيره فإن الآية مرتبطةٌ بموضوعِ السُّورة الذي يتناولُ الأُلوهيَة بالتعريف، في مَوجاتٍ مُتتابعَةٍ مُتَدَفِّقَةٍ، كان الرّجل وهو يَقرؤُهَا ويُقَدِّمُ لها مبهوراً بتلك « الروعة التي تُبْدِهُ النّفس وتُشْدِهُ الحِسَّ وتُبهِرُ النّفس أيضاً... حقيقةً أجدها في نفسي وحسي وأنا أتابع سِيَّاق السُّورة ومَشَاهِدَهَا وإيقاعاتها، وما أظن بشر ذا قلب لا يجد منها لوناً من هذا الذي أجد...إن الروعة فيها تبلغ فعلاً حدَّ البَهرِ، حتى لا يملكُ القلبُ أن يتابعَهَا إلاّ مبهوراً مَبْدوها!!»[2].

ويربط الآية أيضاً بالدرس الذي وردت فيه وموضوع الدرس هنا مواجهةُ فِطرة المشركين بِبَأسِ الله الذي لا يُردُّ، وهي أيضاً مرتَبطةٌ بما قبلها من الآيات وما بعدها، فالآية التي قبلها أن الأقوام السَّابقة، ابتلاهم الله بِالبَأسَاءِ والضَّرَّاء، فلم يرجعوا و لم يتوبوا، واتَّبَعوا الشيطان ولّما تَقَدّر في علمه أنَهم مهلكُون، أتاهم من حيث لم يحتسبوا، ففتح عليهم أبواب كل شيء، والسنة تقول :إنْ لم يصبروا أو لم يشكروا فسيحقّ عليهم النذير ، كما تقُول: لِغيرهم إنْ لم تَصْبِرُوا و لم تشكروا سَيَكُون هلاكُكُم كَهَلاكِهِم !!.

---

[1]ـ رواه مسلم. برقم :2999 .

[2] ـ في ظلال القرآن.سيد قطب. ج2، ص: 1016 و1017.

وبداية إحقاق السنّة قوله تعالى (**فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِ شَيءٍ**) وهي سنَّةُ الله في الاستدراج ومدّهم في طغيانهم، والتعبير القرآني «يصور الأرزاق والخيرات والمتاع والسُّلطان متدفقةً كالسُّيول بلا حواجز ولا قيود! وهي مقبلةً عليهم بلا عَنَاءٍ ولا كدٍّ ولا حتَّى محاولةٍ! إنَّهُ مَشْهَدٌ عجيبٌ يرسم حالةً في حركةٍ على طريقة التصوير القرآني العجيب»[1]

وبعد فتح الأبواب اِتَّجَهَ سيّد إلى الجزء الثاني من الآية (**حَتَى إذَا فَرِحُوا بِمَا أوتُوا**) فبيّن اِستغراقهم في المتاعِ وفرحهم بِهِ مما جعل قُلوبَهُم تفسد ويتبعها فساد الأوضاع والنُّظُم، عِنْدَئِذٍ جَاءَ مَوعِدُ السُّنَّة التي لا تتبدّل وهو الجزء الأخير من الآية (**أخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإذَا هُمْ مُبْلِسُونَ**) فقد أهلكهم الله بِجُمْلَتِهم، ثم ربط الآية بالتي بعدها بِذِكْرِ هذه النعمة، نعمة تطهير الأرض من الظالمين الذين نسوا الله وتَنَكَّبُوا الطَّريقَ القَويمَ، والقَصص القرآني الذي يمثّل الغالبيةَ العظمى من القرآن، يقوم على هذه القاعدة الكلية في التَّدمير على المكذّبين والعَاقِبَةُ للمتقين كُلٌّ بما كسبت أيديهم وإحقاق سنّةِ اللهِ في الطرفين شراً وخيراً.

ويذكر- سيد قطب - أنّه عَاشَ هذه الآية وهذه السّنةَ لما كان في أمريكا ورأى تدفُّق الخَيْرَاتِ على الرَّجُلِ الأبيضِ، الّذي كان يستعبد المُلوَّنينَ أصحاب الأرض ،وهو صَلَفٌ وطغيانٌ لا يرقى إليه طغيان النازيةِ، وكان يَحُسُّ بهذه السُّنة وهي تدبُّ إلى الغافلين الذين لا يدركون أنَّ الله يستدرجهم وفقها والتي «يدورون في فلكها يُبهرهم اللّألاءُ الخاطِف، ويتعاظمهم الرَّخاء والسّلطان ويخدعَهم إملاء الله لهذه الأمم، وهي لا تعبد الله أو لا تعرفه، وهي تتمرد على سلطانه، وهي تدّعي لأ نفُسِهَا الألوهيةِ وهي تَعيث في الأرضِ فساداً وهي تظلم النّاس بعد اعتدائها على سلطان الله»[2].

وقبل أن ينتقل إلى الآية التي تليها يبرز حقيقة أصيلة لها علاقة بسنّة تدمير الباطل وهي أن يقوم هناك حق يتمثل في أناسٍ، لأن السنّن الربانية لا تعمل إلا من خلال أيدي الناس «فلا يقعدون أهل الحق كُسالى، يرتقبون أن تجري سنة الله بلا عمل منهم ولا كدٍّ، فإنهم حينئذٍ لا يمثّلون الحق ولا يكونُون أهله، وهم كسالى قاعدون. والحقُّ لا يتمَثَّلُ إلاّ في أمة تقُومُ لِتُقِرَّ حاكميه اللهِ في الأرض،

---

[1] - في ظلال القرآن. سيد قطب. ج2، ص : 1090.

[2] - المصدر نفسه. ج2، ص: 1091.

وتَدفَع المُغْتصِبين لها من الذين يّدعون خصائص الألوهية. هذا هو الحق الأوّل والحق الأصيل... ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض...»[1]

وهكذا كان يُبيِّن سُنَنَ التَّدمير وسُنَنَ التّمكين، وعلاقة ذلك بصاحب الكيد المتين ، كما كان يُبيِّن الالتباس الذي يحصل للذين لا يحسنون قراءة السنن ،ويظنُّون أنّها تأخرت، وينسون إملاء الله واستدراجه للظّالمين من حيث لا يعلمون،و يفسّر واقعنا المعاصر الذي يجري فيه طرفاً منها.

2 ـ **النموذج الثاني** : سورة البقرة الآية: 124

﴿وَإِذِ ابْتَلَىَ إِبْرَاهِيمَ رَبّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمّهُنّ قَالَ إِنّي جَاعِلُكَ لِلنّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرّيّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظّالِمِينَ﴾

بيّن أن هذه الآية تأتي في مقدمة درس يتحدث عن قضية النّسب الحقيقية، فأهل الكتاب يرجعون بأصولهم إلى إبراهيم عن طريق إسحاق عليهما السلام، ويعتزون بوعد الله لهم ولذُرِّيتِهِ بالخير والبركة ويحسبون أنهم مهتدون، والمشركون العرب من قريش ترجع بأصولها إلى إبراهيم عن طريق إسماعيل ـعليهما السّلامـ ومن هذا النّسب تَستمد القوامةُ على البيت وعمارة المسجد الحرام، ومنه تُستمدُّ سلطانها الدّيني على العرب، وسائر الفَضْلِ والشَّرف والمكانةِ، والآيةُ إذ تُفصِّل في حقيقةِ النَّسب كما سَنَرى، فإنها ترتبطُ بموضوع السُّورة المزدوج المترابطِ الذي يتحدَّثُ عن بناء الجماعة المسلمةِ الوليدةِ في المدينةِ المنوَّرة، وموقف بني إسرائيل من هذه الجماعة ودعوتها الجديدة.

تتكلم الآية عن تلك البشرى العظيمة التي بشر الله بها إبراهيم بعد أن نجح في الابتلاء المبين و جعله إمامًا يتخذ ه النّاس قدوةً ويقدُمهم إلى الخير، وفي تلك اللحظة العالية المقرّبة من الله العلي الكبير تحركت في ابراهيم نوازعُ فطرة البشر [2]المفطورين على حب الازدياد ، فأحبّ أن يكون هذا العهد سَارٍ في ذريته (**قَالَ ومِنْ ذُريتِي**) ؟ ولكن جاءه الردُّ الحاسم من ربه وهو في أعزّ مترلة ؛ مترلة الاصطفاء (**قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَالِمِينْ**) فَسنّةُ الله لا تُحابي أحداً ولو كان من نسل الأنبياء وكذلك حقّت على ابن نوح عليه السلام فكان من المهلكين.

---

[1] ـ في ظلال القرآن.سيد قطب .ج 2، ص: 1091 و1092.

[2] ـ يُنظر: قصص الأنبياء والمرسلين.محمد متولي الشعراوي.المكتبة العصرية، بيروت ط 2؛ 1422هـ – 2002م، ص:59.

ومن خلال تقرير هذه القاعدة الكبرى في أنَّهُ لا يُنال العهد من طرف الظالمين ولو كانوا أبناء أنبياء يأتي «بيانُ أنَّ العقيدة تراث القلب المؤمن، لا تراث العصبيَّة العمياء وأن وراثة هذا التراث لا تقوم على قرابة الدّم والجنس، ولكن على قرابة الإيمان والعقيدة، فمن آمن بهذه العقيدة ورعاها في أيّ جيل ومن أيِّ قبيل فهو أحق بها من أبناء الصلب وأقرباء العصب! فالدين دين الله، وليس بين الله وبين أحد من عباده نسبٌ ولا صهرٌ!!! »[1] وكان أن دبت سنّة الله إلى بني إسرائيل لما انحرفوا عن الهدى الرباني، فنُزع منهم الوصاية على العهد، وسُلمت لخير أمة أخرجت للناس، من سماتها دَرْءُ الظلم وإقامة العدل الرّباني في الأرض.

ويبين سيد ارتباط الآية بما بعدها، فلقد وَعَى إبراهيم –عليه السلام – الدّرس فلم تعد تتوق نفسه لكل ذريته، وراعى ذلك الأدب الذي علَّمه ربُّه إيّاه ، فها هو يحترس ويدعوا أن يرزق الله أهل البلد ولكن (**مَن آمنَ مِنْهُمْ بالله واليَوم الآخِر**) وهكذا مضى يبيّن ذلك الترابط المتسلسل بين بقية آيات الدرس الذي اختاره والمكون من الآيات 124 حتى141.

3ـ **النموذج الثالث** : سورة آل عمران الآية **112**

يقول الله تعالى: ﴿ **ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوَاْ إِلاّ بِحَبْلٍ مّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مّنَ النّاسِ وَبَآءُوا بِغَضَبٍ مّنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْاْ وّكَانُواْ يَعْتَدُون** ﴾ هذه الآية تتوسط الدّرس الذي يبدأ من الآية 93 حتى الآية 120 والذي يدور موضوعه عن دَسِّ اليهود وكيدهم للجماعة المسلمة يوم ذاك، وتبيان حقيقة اليهود.

كما يلاحظ جداً أن السّورة كلّها مسرح لإبراز السّنن الربّانية وتوقيت إيقاعها، وهذه الآية تبين أن بني إسرائيل ضربت عليهم الذلة والمسكنة نظراً لأعمالهم الإجرامية التي ذكرتها الآية وفي آية الأعراف أنّ السنّة جاريةٌ إلى يوم القيّامة فيهم ﴿ **وَإِذْ تَأَذّنَ رَبّكَ لَيَبْعَثَنّ عَلَيْهِمْ إِلَىَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ إِنّ رَبّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنّهُ لَغَفُورٌ رّحِيمٌ**﴾[2].

---

[1]ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 1، ص: 111.

[2]ـ سورة الأعراف. الآية: 167.

ولكن حالة اليهود في الوقت المعاصر تُظهر استثناء من هذه الذلّة ، فهم إلى جانب ما يملكون من مال ، لهم نفوذ سيّاسي وعسكري يرتجف منه العالم، ممّا « يبدو أن اللعنة قد توقّفت، وأنّ يهود قد عزّت واستطالت»[1] ومن هذا الواقع الذي يجري اليوم ،يسرى الوهم وينشأ الاضطراب في قراءة السُّنن ويُحْسَبُ أنّ سنّة الله تخلّفت، وحاشاه سبحانه إنه لا يخلف الميعاد .

وهذا الاستثناء الذي هو(**إلا بِحَبْلٍ مِنَ الله وحَبْلٍ مِنَ النَاسِ**) قد فسّره بعض المفسرين بأنّه ذمة المسلمين التي تعصم أموالهم ودماءهم ولا يعرفون العزّ والأمن إلاَّ في ظلِّ الإسلام، ومن هؤلاء الرازي في مفاتيح الغيب والقاضي البيضاوي والعلامة ابن عاشور وغيرهم، ولكن أين هم المسلمون الذين يعطون اليوم الذِّمة لليهود، فالمسلمون اليوم ليسوا بقادرين حتى على حماية أنفسهم.

وللأستاذ محمد قطب وقفة عند هذه الآية وخصوصاً : (**إلا بِحَبْلٍ مِنَ الله وحَبْلٍ مِنَ النَاسِ**) موضّحاً حبل الناس الّذي يصلون به يهود : «وقد يُظن بعض الناس أن الحبل من الناس معناه سَنَدُ أمريكا وروسيا لليهود! كلا إنّ الأمر أوسعُ من ذلك بكثيرٍ، إنّه مَدَدُ كل النّاس إلا من عَصَم اللهُ....إنّ اليهود أنشأوا بيوت الزينة وبيوت الأزياء ليكسبوا منها كسبين في آنٍ واحدٍ الكسبُ المادِّيُ الفاحشُ،والكسبُ الآخر هو إفساد الأممّين بإفساد المرأة وإخراجها إلى الطريق فتنةً هائجة مائجةً تفتن الرَّجُل وتفتنُ نفسها معه،وانساق الأُمَمِيِّون ...»[2].

ولأن عقيدة المسلمين ضعفت وأخلاقهم تلاشت، فقد أصبحوا في مَصْيَدَةِ اليهود التي عبّروا عليها في البروتوكول الحادي عشر « إنّ الأُمَمِيّنَ (غير اليهود) كقطيع من الغنم، وإنّنا الذئاب فهل تعلمون ما تفعل الغنم حينما تَنْفُذُ الذّئاب إلى الحظيرة؟ إنّها لتغمض عيونها عن كل شيء، وإلى هذا المصير سيُدفعون...»[3]، وانقلبت السنّة وانعكست ،كانت سارية على اليهود فأصبحت تنطبق على المسلمين!!!بما كسبت أيديهم من تتبّعهم سَنَنَ اليهود ؛شبرا بشبر ، وعصيانهم أوامر دينهم ممّا حقّ عليهم النّذير.

---

[1]_ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 3، ص: 1386.

[2]_ دراسات قرآنية. محمد قطب. ص: 348 و349.

[3]_ برتوكولات حكماء صهيون. حكماء صهيون .تر:خليفة التّونسي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية،وحدة الرغية، الجزائر، ط1؛ 1991، ص:86.

وسيد حريص على أن ينظر إلى عصره من خلال القرآن، فهو واثق ثقةِ المطمئنِّ بالله أنّ هذا الاستثناء سيزول، لأن يهود تجبّرت وعلت وستعودُ من جديدٍ لتلبس الذلّة والمسكنة ،لأن هناك سنّة أخرى بالمرصاد ،في سورة الإسراء :﴿ **وَإِنْ عُدتّمْ عُدْنَا** ﴾ [1] كُلّما عتوا وبغَوا وأفسدوافي الأرض.

والقضية التي راقبها أيضا هي :أن سنة الذلة الآن تسري اليوم على المسلمين ، فهم مهزومون مذلولون لعصيانهم أوامر الله « فينالون عليها كل ما كتبه الله على اليهود من الهزيمة والذلة والمسكنة،فإذا قال أحد منهم: لماذا نُغلب في الأرض ونحن مسلمون؟ فلينظر قبل أن يقولها: ماهو الإسلام، ومن هم المسلمون ؟! ثم يقول ! »[2] وسنة الله لن تتبدّل ولن تتحوّل ، ولا تُحابِيَ أمةً أو أحداً من العالمين.

4 ـ النموذج الرابع : سورة آل عمران الآية **165**

﴿**أَوَلَمّا أَصَابَتْكُمْ مّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنّىَ هَـــذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنّ اللّهَ عَلَىَ كُلّ شَيْءٍ قَدِير** ﴾ هذه الآية تأتي ضمن درس يتكون من الآية 121 حتى الآية 179 يتكلم عن غزوة أحد التي تزاوج فيها النصر والهزيمة، والّتي قدّم فيها المسلمون ضريبة غالية ، طالت أعزّ إنسان ه و محمّد ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ ، ومعركة أحد كما هي معركة في الميدان فهي معركة في الضمير أيضاً ، والسورة كلّها بيان للسنن وتصحيح الفُهُوم المخطئة، وإزالة الغبش الذي يرين على الأبصار والعقول مما يعتاده الإنسان من واقعه.

والقرآن إذ يربّي المسلمين على قراءة سنن الله والتّعامل معها فلأنها أهمّ من النّصر، وأهمّ من الغنيمة، التي تسابق إليها الرّماة ، في غزوة "أحد" وكان رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلم ـ قد أمرهم أن لا يبرحوا أماكنهم ،فنزلوا من قواعدهم ظنّاً أنّ المعركة انتهت ، فدارت الدائرة على المسلمين و لم تستثنِ أحداً، و لم تحاب أحداً بما فيهم إصابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو الحبيب القريب[3] والدرس موضوعه الأساس أنّ الانتصار في الميدان يسبقه الانتصار في النفس وإلا فلا انتصار.

---

[1] ـ سورة الإسراء. من الآية: 8.

[2] ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج1، ص: 450.

[3] ـ كُسرت رباعيته وشُجّ وجهه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في غزوة أحد، أنظر: فقه السيرة النبوية من" زاد المعاد في هدي خير العباد" (ترتيب) السيد الجميلي. دار الفكر العربي، بيروت، ط2؛ 1990م، ص: 180.

تُصوّر هذه الآية دهشة المسلمين لَما صارت إليه الأمور ، وتصحّحُ لهم التصوُّرات التي كانت لديهم ،والتي منها: أنّهم ما داموا مسلمين والآخرين كفّار، فإنّ النّصر دائماً حليفُهم ولذلك قالوا أنّى هذا؟ وكان الجواب (**قُل هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ**) «فإنّ كونهم مسلمين لا يقتضي خرق السّنن لهم وإبطال النّاموس، فإنّما هم مسلمون لأنهم يطابقون حياتهم كلّها على السّنن، ويصطلحون بفطرتهم كلّها مع النّاموس» [1] وسيد قطب من خلال هذه السنّة يبرز طبيعة هذا الدّين في العمل، بأنّه يتم تحقيقه في حياة البشر بجهد البشر، وليس بطريقة سحرية خارقة.

وكثيراً ما ينشأ الخطأ من عدم إدراك طبيعة هذا الّدين في العمل فيحسبون أنّه مادام الدين دين الله، ونحن المسلمون المؤمنون به فسوف ننْتَصر « ولقد عرّف الله المسلمين سنته وشرطه في النصر والهزيمة، فخالفوا هم عن سنته وشرطه، فتعرضوا للألم والقرح الذي تعرضوا له. .. ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد، فقد كان من وراء المخالفة والألم تحقيق قدر الله في تميّز المؤمن من المنا فق في الصف، وتمحيص قلوب المؤمنين وتجلية ما فيها من غبش في التصوّر ومن ضعفٍ وقصور...»[2].

وقدر الله أنفع للبشر من أنفسهم ، فالله هو العليم بالقلوب وبما تضمر، ومن ثمّ هو وحده يعلم متى تستحقّ هذه القلوب النّصر، وفي غزوة أحد يربيهم بالهزيمة ، حتى يتّضح التصور الإسلامي عن حقيقة هذا الدّين، وطبيعتُه في العمل، ومعرفة السنن ودورها في حياة الأفراد والجماعات، وحتى يكونوا أهلاً للنّصر، فكان في الهزيمة خيرٌ كثيرٌ.

وعند قوله تعالى:﴿ **مَا كانَ الله ليَذَر المؤمنين عَلَى مَا أَنتم عَلَيه حَتَّى يميز الخبيث من الطّيب** ﴾[3] أكّد –سيد– على سنّة الله في التّمحيص، هذه الحقيقة الّتي تلحق كل من آمن فرداً أو جماعة ، ليتبيّن صدق ما يحمله من إيمان ، وقد لجأ إلى قراءة كثير من الآيات الّتي تقترب من هذه الآية حسب سنّة الله في التّمحيص ، مبيّنا أنّ النّص القرآني صريح في أنّ الله لن يترك دعوى الإيمان هكذا، حتى تظهر الحقيقة.

---

[1]_ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 1، ص : 513.

[2]_ المصدر نفسه. ج 1، ص: 515.

[3]_سورة آل عمران.الآية: 179.

والنّص قطعي الّدلالة في أنّ الله «ليس من مقتضى ألوهيته ، وليس من فعل سنّته،أن يدع الصّف المسلم مختلطا غير مميّز ؛يتوارى المنافقون فيه وراء دعوى الإيمان ، ومظهر الإسلام ، بينما قلوبهم خاوية من بشاشة الإيمان ومن رو ح الإسلام ، فقد أخرج الله الأمّة المسلمة لتؤدّي دوراً كونيا كبيراً،ولتحمل منهجاً إلهيا عظيماً، ولتُنشئ في الأرض واقعاً فريداً، ونظاما جديداً، وهذا الدّور يقتضي...أن يُصهر الصّف ليخرج منه الخبث، وأن يضغط لتتهاوى اللّبنات الضّعيفة وأن تسلّط عليها الأضواء لتتكشّف الدّخائل والضّمائر،ومن ثمّ كان شأن الله ـسبحانهـأن يميّز الخبيث من الطّيب،و لم يكن شأنه أن يذر المؤمنين على ماكانواعليه قبل هذه الرجّة العظيمة»[1]

والآية الكريمة جاءت تعقيباً على غزوة " أحد "الّتي زُلزل فيها المسلمون زلزالاً عظيماً واشرأبّت فيها أعناق يهود،ونجم فيها النّفاق، وتكالبت الأعراب فيها على استباحة المدينة،فكانت امتحاناً، تميّز المؤمنون فيها كالشّامة وسط الطّوائف يوم ذاك لإيمانهم ، وحدثت غربلة للصفّ الإسلامي فسقط كلّ مدخول الإيمان وضعيفه، ومن العجب العجاب أنّ المؤمنين الحقيقيين إيمانهم يزداد وقت المحن، ويثبّت الله من يشاء ،وفي القرآن الكريم كثيرا ما تذكر زيّادة الإيمان مرتبطة بالمعركة.[2]

هذا التّعامل مع "سنن الله "، ركّز عليها أثناء التّفسير ، كمعلم بارز في قراءة النّتائج المترتّبة عن حركة الإنسان فردا أو جماعة،و كان المؤلّف يستند إلى هذا النّاموس المتمثّل في سنّته سبحانه وتعالى وينظر مدى مطابقته النّتائج أو مخالفتها مع تسجيل إيحاءات النّص التي لا تغفل أي زمان.

وعلى هذا المنوال تعرّض لكثيرٍ من آي القرآن مستلهمًا النص، كأنما تاركُه يتكلم عن نفسه بنفسه، فلا أثر للتأويلا ت[3]التي تذهب بروحه، وتحجب المطلوب، مما يجعل القارئ وجهًا لوجه مع الحقيقة التي تدفعه ليستجيب أولا يجيب، والسير حسب السنن الربّانية يعطي للتّفسير وجهه الحركي العملي، الذي يربط المتلقّي بالحذر، ومراقبة ما كسبت يداه.

---

[1]_ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 1، ص : 524.

[2]_ ينظر: لطائف قرآنية . الخالدي صلاح عبد الفتّاح . دار القلم ، دمشق ، ط1؛1412 هـ-1992م: 155.

[3]ينظر: قراءة النّص الدّيني بين التّأويل الغربي والتّأويل الإسلامي. محمد عمارة. ص : 43.

• المبحث الثّاني: النّظرة الكلية للقرآن

لا يوجد باحث اِطّلع على فكر- سيد قطب- إلا ولمس فيه نظرته الشاملة التي تعالج الأمور من جذورها، وتنظر إليها من جميع زواياها، وهذه النظرة قد لازمته في المساجلات الأدبية التي كان يخوضها، والنّظرات النّقدية التي كان يؤصلها، إلا أنه بعد توجّهه نحو الدر اسات القرآنية قد صارت أظهر، فأبان من خلالها خصائص التصور الإسلامي، وأمّهات العقيدة وجميع القضايا التي طرقها القرآن الكريم.

والذي أعانه على إيجاد هذه النظرة الكلية عنده، صحبته الواعية الدّارسة للقرآن وتحصيله المعرفي، ورصيده الثقافي الواسع، وبالموازنة بينهما، تأسست لديه النظرة الكلية للقرآن والتي خرجت منه النظرة الشاملة للكون والحياة والإنسان، وانبنى كل فهمه عليها فيما بعد لِمواضيع القرآن ولطبيعة الإسلام، وهي ذات النظرة التي كان يحياها جيل الصحابة (ض)، من أنَّ هذا الدين جاء ليهيمن على الحياة، وطاعته في الشأن الكبير كطاعته في الشأن الصغير سواء.

وكان من بديهيات إيمان الصّحابة (ض) هذه النظرة الكلية للقرآن الكريم لديهم ، وتجلى في فهم الصديق (ض) كنموذج على ذلك، حينما امتنع "بنو حنيفة" عن أداءِ الزكاة فقال . «والله لا أقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة...» [1] فكان ذلك الفهم الذي يرى في الإسلام صورةً واحدةً لا تقبل التجزئة،ولم يكن فهماً يعشش في الرؤوس، وليس من التطبيق في شيء.

ويدور الزمن اليوم، على أمّةٍ كانت هذه نظرتها الكلّية للقرآن الكريم ترى فيه أنّه هو مصدرها وملهمها، فإذا النّظرة تضيق وتقصر، وإذا الموازين تختلط و تتغيّر، وإذا الهزيمة الرّوحية والعقلية تأخذ منها كل مأخذ، فترى أن ما عند الآخر خيرٌ مما عندها !! وتسقط عند أول بارقةٍ من اللألاءِ المتعاظم الذي يستند إلى التقدم العلمي والتكنولوجي، فزهدت فيما بين يديها وطمعت في العرض التّافه.

أمّا النّظرة الكلّية للقرآن الكريم عند ـسيد قطبـ فهي العودة بالفهم الصحيح إلى ما كان عليه الجيل الأول في نظرته، من أنّ هذا القرآن «يتناول الحياة كلّها، ويتولىّ شؤون البشرية كبيرها وصغيرها، وينظم حياة الإنسان، لا في الحياة الدنيا وحدها ولكن كذلك في الدار الآخرة ،ولا في عالم

[1] – فقه السنة. السيد سابق. دار الجيل بيروت (دط) ؛1416هـ- 1995م. ج1، ص: 323.

الشهادة وحده ولكن كذلك في عالم الغيب المكنون عنها، ولا في المعالات المادية الظاهرة وحدها، ولكن كذلك في أعماق الضمير، ودنيا السرائر والنّوايا فهو مؤسسة ضخمة هائلة شاسعة ».[1]

ويقطع ـ سيد قطب ـ الطريق على أولئك الذين يريدون تجديد قراءة القرآن، بالتوسُّل بمناهج معاصرة [2]يراد منها إهدار الفهم الصحيح والتطبيق العملي لما كان عليه جيل الصحابة (ض) « إنّني لم أجد نفسي مرَّةً واحدة في مواجهة هذه الموضوعات الأساسية. في حاجةٍ إلى نصٍّ واحدٍ، من خارج هذا القرآن ـ فيما عدا قول الرسول ـصلى الله عليه وسلم ـ وهو من آثار هذا القرآن،بل إن أيّ قولٍ آخر ليبدو هزيلاً حتى لو كان صحيحا، إلى جانب ما يجد الباحث في هذا الكتاب العزيز».[3]

ونتيجةً لهذه النظرة الكلية للقرآن الكريم، فقد كان يقف أمام الموضوع الواحد يقلّبه ويستخرج كنوزه كأنما يغرف من بحر، فحينما كان يتكلم عن القرآن كموضوع على سبيل المثال: يتناوله من جهة غِنَى النصوص بالمعاني والدلالات، ومن ناحية الصوّر والظلال والإيحاءات ومن ناحية عرضه للحقائق، ومن ناحية إعجازه،ومن ناحية بركته الشاملة... إلى غير ذلك من الجوانب التي طرقها حينما كان يمعن النظر ويطيله.

والقرآن الكريم من حيث المنهج والطريقة، كلاهما يتصف بالشمول والنظرة الكلية التي عبر عنها القرآن ﴿ **إِنَّمَآ إِلَـــهُكُمُ اللّهُ الّذِي لآ إِلَـــهَ إِلاّ هُوَ وَسِعَ كُلّ شَيْءٍ عِلْماً** ﴾[4] ولكن هذه الحقيقة الواضحة تنوسيت في هذا العصر فأراد ـ سيد قطب ـ أن يعيد لها وقعها على النفوس ويذكّر بها لعلها تنفع المؤمنين، فأعاد عرض كل المواضيع التي عالجها القرآن، وبين سبب انحسارها في نفوس المسلمين من بينها «الهزيمة الداخلية التي تخّيل لبعض الناس أن العلم هو المهيمن والقرآن تابع، ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم، أو الاستدلال له من العلم...»[5] ولا يدركون أن ما جاء به القرآن هو حقائق نهائية فصل فيها ربّ العالمين.

---

[1] ـ معالم في الطريق. سيد قطب. ص :36.

[2] ـ ينظر: "نظرات في القراءة المعاصرة للقرآن الكريم في دول المغرب العربي".محمد بن زين العابدين رستم.جامعة شعيب الدكالي، المغرب ؛2011، ص:5 .

[3] ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 3، ص : 1423.

[4] ـ سورة طه. الآية : 98.

[5] ـ المصدر نفسه. ج1، ص: 182.

والنظرة الكلية عند سيد قطب للقرآن الكريم تعني فيما تعني، الإيمان الجازم أن في القرآن الكريم غناءٌ وكفاء، لا يتدسس إليه ريب، والثقة المطلقة بالنص القرآني والتسليم التام بدلالته وهذا هو الجزء الأكبر في مشروعه القرآني، الذي كان يريد به ربط المسلم بالقرآن الكريم، وفي المبحثين التاليين : نرى تجلياتِ هذه النظرة الكلية الشاملة للقرآن الكريم.

أ ـ الوحدة الموضوعيّة للسّور القرآنية:

إذا تأكد لديك أن سيد قطب، قد فرّغ قلبه من كل شيء إلا من القرآن ليستجمعهُ عليه تلاوةً وتدبراً، أنساً واستصحاباً، فاعلم أنَّه قد خرج من هذا جميعه بمكسب عظيمٍ ألا وهو نظرته الشاملة إلى القرآن الكريم، التي أبانت أنه وحدةٌ موضوعيةٌ، أي أنه صورةٌ واحدةٌ تناسقاً وتناسباً، لا تفارقِ أو أجزاء من الصورة،وقد أشار القرآن الكريمُ إلى هذه الظاهرة الحقيقية بقوله: ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرون القُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً** ﴾[1] فهو كلٌ واحدٌ لا تناقضَ فيه، وقد دأب في ظلال القرآن على إظهار هذه الخصّيصة بأكثر تفصيلٍ وأحسن تعبيرٍ.

ولاشك أنَّ الصّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وهم أعلم هذه الأمة بعد نبيِّها ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالقرآن الكريم ،كان العلم بتناسقِ القرآن معروفاً لديهم، لأنهم جيلُ القرآن، وأهلُهُ وخاصتُهُ، وفيهم نزل، وبه عاشوا حياتُهم، ومع علمهِم بتفاصيله ودقائقه، وكنوزه وذخائرِهِ ، لم يصنفوا فيه تصانيف و لم يخطّوا لأجله الكتب بل كان القرآن كتابهم الأوحد له يسمعون، وعليه يعكفون.

وكطبيعة كلِّ علمٍ من حيث التَّأسيس، يولد بالممارسة رَدْحاً من الزمن قبل ذلك ،إلى أن يقيظ الله له من يخدمونه، فيُقعِّدُونَ له القواعد ويوضِّحونه من غيره من العلوم ، وكان القرآن الكريم من بركته الشّاملة أن تفجّرت منه تلك العبقريّات التي أثمرت وأبدعت في شتّى الفنون.

و عُرفت الوحدة الموضوعية في القديم تحت اسم "المناسبة" أو "التَّناسب" بين آيات القرآن وسورهِ، وكان ممن ألَّف فيه من الأقدمين برهان الدِّين إبراهيم البقاعي (809هـ/885م) مؤلَّفه " نظم الدُّرَرُ في تناسب الآيات والسوّر" الذي عرف بتفسير البقاعي وكان نظر في كل القرآن من هذا الجانب فأبدع فيه، وتوالت التآليف في هذا الميدان وكان للسيوطي (ت 911 م) القدح المعلَّى بِكتبه

[1] ـ سورة النّساء. الآية : 82.

الثلاثة، "أسرار التنزيل" و "تناسقُ الدُّرَرْ في تناسب السُّوَّر" و"مراصِد المطالع في تناسب المقاصِدِ والمَطَالِع"، وفي الحقيقة ما خلا تفسيرٌ من التَّفَاسِير، ولو يُدرج صاحِبهُ شذراتٍ من هذا العلم فيه.

وعند المُحْدَثِين أصْطُلحَ على هذا العلم، علمُ المناسَبَةِ بِمُسَمَّى آخر ألا وهو "الْوِحْدَةُ الْمَوْضُوعِيَةُ" كما هو معلوم عند سيِّد قطب، وعند الدكتور محمد عبد الله دراز "بالوِحدةِ العضويةِ" وعند غيره "بالوحدةِ البنائيةِ "، وعُرفت عند علاَّمةُ الهند عبد الحميد الفراهي (ت1943م) "بنظام القرآن " في كتابه « نظام القرآن وتفسير الفُرقان بالفُرقان».

وقد رأى الدكتور أحمد يزوي الضّاوي أن يُصطَلح على هذا الأساس المنْهجي« "بالوحدةِ النَّسَقِيَّةِ للسُّورة القرآنية " عوضا عن الوحدة الموضوعية والعضوية التي لا تفي بوصفِ حقيقةِ واقِعِ الخِطابِ القرآني، كما أنها توحي بمشابهته للنُّصوصِ الأدبيَّةِ والفكريةِ التي يُبدعها أو يؤلّفها البشر، ومعنى ذلك أنها لا تحفظ للنصّ قُدسيتهُ، وهي من كليات العقيدة الإسلامية... »[1] والمصطلحات ـ قديمها وحديثها ـ كلها متقاربةٌ لأنها تُفضي إلى ذلك التَّرابط الذي يجعل السّوَّرَ واحداً، أو آيُ السُّورة الوَاحِدَةِ كُلاًّ واحِداً.

والأمر في شأن الوحدة الموضوعية عند الأقدمين والمحدَثين في التعّرض لها سواء غير أنهم يختلفون في طريقةِ الاستقصاءِ وفي شمولِهَا القرآنَ وفي حُسْنِ التَّعْبيرِ عنها أو إظهارها «أما سيد قطب فإنه سيِّدُ هذه السَّاحَةِ وقُطْبُ رَحَاهَا لأنَّه قَدَّمَ لَنَا ـ في الظلال ـ السوّر والآياتِ كَلَبِنَاتٍ وحَلَقَاتٍ مُتَنَاسِقَةٍ مُتَرَاصَّةٍ في النَّصِّ القرآني المُتَنَاسِقِ المُعْجزِ الجميلِ»[2] فأحسن تطبيقها بصورةٍ لم تُعهد من ذي قبل مِمّا جعلها سِمَةً من سِمَاتِ الظِّلالِ وصِفَةً ملازمةً لهُ هَدَفَ إليها وهو يفسر القرآن الكريم.

ويرى أحد الباحثين فيما قدمه سيد قطب في هذا الشأن أنه «أوَّلُ مفسِّرٍ في تاريخ القرآن الكريم أبرز الوحدةَ الموضوعية في السُّورةِ القرآنيةِ المفردةِ طالت أم قصرت أبرزه بشكل عملي مكتوب، أو طَبَّقهُ أروع تطبيقٍ وأعمقه في كتابه العظيم ، والذين سبقوا سيداً من المفسِّرين منهم من لم يلاحظها و لم يُسَلِّم بوجُودها، ومنهم من ذهب إلى القول بها ولكنّه عجز عن ملاحظتها وتقديمها في ما كتبه للنَّاسِ من تفسير لكتاب الله تعالى، ثم جاء سيد ليؤكّد على هذه الوحدة المحورية في

---

[1] – الوحدة النّسقية للسّورة القرآنية". أحمد بزوي الضاوي.جامعة شعيب الدكالي، المغرب، نقلاً عن الشبكة العنكبوتية (د.ت).

[2] ـ المنهج الحركي في ظلال القرآن.الخالدي صلاح عبد الفتاح. ص : 154.

السُّورةِ الواحدةِ ولِيَضَعَ أيدينا بعد ذلك بِرِفْقٍ وسهولةٍ ولينٍ على وجهِ الانتقال من موضوع إلى موضوع...».[1]

وسيد قطب وهو يقدّم الوحدة الموضوعية في القرآن لا تحسّ أنك تجد معه تكلّفا يخلّ بالطّرح يستوقِفكَ، وإنَّما يجد القارئ تيارا ينبض بالحركة غير مبْتُوتٍ وسبيلاً واضحاً هو ذاتُ السّبيلِ في كل تفسيره، فَكَيْفَ عَثَر على هذا الهدف ؟ وما هي أسباب النجاح التي حالَفَتْهُ فأنجز هذا الهدف على خير وَجْهٍ؟

إنّ انجَاز هذا الهدف بتوفيقٍ من الله ـ سبحانه عزّ وجل ـ هو ضَربٌ مِنْ كَشْفِ سِرٍّ من أسْرَار الإعجاز القرآني. كما سَنَرى لاَحِقاً في الفصل الموالي بِإذن الله، ولكنَّا هُنَا في معرضِ القراءة الفكرية الحركية بتبيان بعض معالمها ، من بينها الوحدة الموضوعية للقرآن، والّتي جرى سيِّد في إبرازها وتطبيقها، لِمَا رأى من انْعِجَامِ الألِسَنةِ، وتَبَلُّدِ الأحاسيس، والبُعْد عن المفهوم الحقيقي لطبيعة القرآن الكريم في العمل وفي التّعامل معه ،وتوضيح التّناسق الموجود في القرآن للأجيال وتقريبها منه .

والهدف من بيان الوحدة الموضوعية كما يَبْدُو أنه يَتَفَرَّعُ إلى ثلاثة أهداف ظاهرةٍ من الجهة الفنّية وهي «أساليب العرض الفني الموحَّدَةِ، وطَرَائِقَ الأدَاءِ الفَنِّي المعجزَةِ، والخصائص العامَّةِ المتفرِّدةِ للجمال الفنِّي التَّصْويري في القرآن» [2] وكل هذه المظاهرُ الثَّلاثَةُ تَخْدُمُ المِحْوَرَ العامّ وهو التسليم في القرآن جملةً واحدةً والاستجابة إلى الصَّغِيرَةِ كالاستجابة إلى الكبيرة منه سيّان .

وقد يَهِمُ بعض الباحثين في تَتَبُّعِهِمْ أَمْرَ الوِحْدَةِ الموضُوعيَةِ هذا المَعْلَم البَارِز عند سيد قطب فيوفُّونه حقَّه من الوجهة الفنية، ويَغْفُلُونَ عن الجانب الحركي الذي يهدف إليه، ناسِين أن الفنَّ هو في خِدمَةِ الدِّين، فإذا اسْتَقَلَّ الفَنّ بالدراسة والبيان وخاصَّةً في القرآن بعيداً عنْ مقاصده الأساسيةِ الّتي أُنْزِلَ من أجلها، فإنَّ الدِّراسة تصيرُ شَوْهَاءَ ولن تَفِيَ بِالغرض المطلوب.

وقد بَيَّن الدّكتور عدنان زرزور السَّبَب الأهم في نَجَاحِ سيّد بالقول بالوحدة الموضوعية ، وجعل العثور عليها سهلاً ؛ هو ملاحظته « أنّ بناء الإنسان في القرآن الكريم يقوم على قاعدة الفِكْر

---

[1]_ المنهج الحركي في ظلال القرآن. الخالدي صلاح عبد الفتاح.ص :154. نقلا عن علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه. عدنان زرزور.ص : 432 بتصرف.

[2]_ المصدر نفسه. ص : 155.

والاعتقاد أو يعتمد على العقيدة وينطلق منها» [1] ولذلك قرّر أن موضوع القرآن الكريم الأساس هو العقيدة، وموضوع العقيدة الرئيس هو الأُلُوهِيَةُ، وكُلُّ تصورٍ للفروع والجزئيات، مهما كانت ضخامته إلا وأَصْلُهُ مُنْطلِق من العقِيدة .

ظاهرةٌ أخرى إلى جانب مجال العقيدة الواسع والرَّحب، تُلْفِتُ إلى أنّ هناك وحدة موضوعية لكلِّ سورةٍ، هو وُجُود آيات مدنيةٍ في سوَرٍ مكيَّةٍ كآية المزمِّل رقم (20) ، المدنية في سورة المزمِّل المكيَّة ووجود آيات مكيَّة في سوَرٍ مدنيَّةٍ كالآية التي نزلت في مِنًى بحجة الوداع رقم (281) وألحقت بسورة البقرة المدنيَّةِ، على سبيل المثال لا الحصر (*) فلم يكن الزمان والمكان هما اللذين يُحدِّدان مكانها في المصحف.

التَّنَزُّل الحقُّ التَّوقِيفِيُّ للآيِ القرآنيةِ على هذا الشكل، هو الذي يحدد مكانها في السوّر المدنية أو السوّر المكية، ممَّا يثير الانتباه على أنَّ هناك تناسقاً يكتمل بوجود هذه الآية في هذه السورة وليست في تلك «وإلا فلو كان القرآن مختلط الموضوعات بلا رابطه، كما يقول الذين لا يتدبّرون القرآن ولا يفهمونه من المستشرقين وتلامذتهم من "المسلمين" ما كان هناك معنًى لإلحاقِ آيةٍ مدنيةٍ بسورةٍ مكيَّةٍ ولا آيةٍ مكيَّةٍ بسورة مدنيَّةٍ، ولكان الأولى أن توضع حيث نزلت في أَيَّةِ سورةٍ متجانسةٍ معها في الزَّمانِ والمكانِ» [3]

فالقرآن الكريم بِتَرْتِيبِهِ ـالتَّوقيفيـ الذي هو عليه الآن هو بناءٌ متناسقٌ ونظامٌ واحدٌ، وإن بدا للمتعجِّلين أنَّ فيه مواضيع مختلفةٍ ،والذي يُطالع الظّلال يَجِد أن سيداً أثناء تفسيره، عرض ا لوحدةِ الموضوعيةِ [4] كالتالي:

1ـ التَّناسب بين السّورة والسّورة.

2 ـ التَّناسب بين دروس السّورة الواحدة.

---

[1] ـ علوم القرآن وإعجاز و تاريخ توثيقه. عدنان محمد زرزور. ص : 432.

(*) ـ الآيات من 30 حتى 36 نزلت بمكة وألحقت بسورة الأنفال المدنية ، الآية 85 نزلت بالجحفه في أثناء الهجرة وألحقت بسورة القصص المكية.

[2] ـ ـ دارسات قرآنية. محمد قطب. ص 19.

[3] ـ ينظر: المنهج الحركي في ظلال القرآن. الخالدي صلاح عبد الفتاح. ص : 156.

3 ـ التَّناسب بين مقاطع الدرس الواحد.

4 ـ التَّناسب بين آيات المقطع الواحد.

5 ـ التَّناسب بين كلمات الآية الواحدة وجملها.

فَبالنّسبة لتناسب السُّورِ فيما بينها، أثبت في مقدّمة سورة الأعراف أنّ سوّر القرآن، تشبه نماذج البشر، فسُوّر القرآن تتجمع على الموضوع والغاية، وتفترق في السِّمات والطَّرائق والمجال الّذي تتحرّك فيه، فهي كالبشر كلُّهم إنسان وله الخصائص الإنسانية ويفترقون كونهم نماذج مختلفةٍ متشابهةِ الملامحِ وفي هذا الصّدد يقول ـ سيد قطب ـ «هكذا عُدْتُ أتصوَّرُ سوَّر القرآن وهكذا عُدْتُ أحُسُّها، وهكذا عُدْتُ أتعامل معها، بعد طول الصُّحْبَةِ، وطول الأُلْفَةِ، وطول التّعامل مع كلٍّ منها، وفق طباعِه واتجاهَاتِه وملامحِهِ وسِمَاتِه» .[1]

والقرآن الكريم كلٌّ ينتظمه مِحْورٌ واحدٌ، وهو موضوع العقيدةِ، وأخصّ خصائص العقيدة الألوهية ،التي عليها مدار الأمر في هذه وفي الأخرى ، ويتميّز القرآن المكي بأنَّ مَوْضُوعَهُ الوَحِيد هو الاقتصارُ على العقيدة، والتربية عليها، في حين أنَّ موضوع القرآن المدني هو العقيدةُ ، والشريعةُ المستمدة منها.

ويقف سيّد عند جزء بكامله كالجزء الثلاثين الأخير المبدوءِ بسورة النّبَإِ والمنتهي بسورة النَّاسِ، مبيِّناً وحدته الموضوعية، رغم أنَّ هذا الجزءَ متباينٌ من حيث طول وقِصر سُوَّره ،كما أنّ فيه سُوَّرا مَدَنِيَّة إلى جانب السوّر المكيّة، غير أنّ «الأهمّ من هذا هو طابعها الخاص الذي يجعلها وِحْدَة عَلَى وجه التَّقْرِيبِ في موضوعها واتجاهها،وصُوَّرِهَا وظِلاَلِهَا وأسْلُوبِهَا العام ».[2]

وقد يقف أحياناً مُستجلياَ الوحدةَ الموضوعيةَ في سورتينِ متتاليتينِ كما في سورتي الفيل وقريش أو غير متتاليتين كما في سورتي الرعد وفاطر [3] أو أربع سوَّرٍ فيما بينها، كمثل ما وقف عند سورة الأنعام والأعراف ويونس وهود متعجباً من الشبه الكبير بينَها من حيث الموضوع ومن حيث عَرْض الموضوع كذلك.

---

[1] ـ المنهج الحركي في ظلال القرآن. الخالدي صلاح عبد الفتاح. ص : 155.

[2] ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 6 ، ص : 3800.

[3] ـ أنظر: المصدر نفسه. ج5، ص: 2918. و الجزء 6، ص: 3983.

ومن الاشتراك في الموضوع الواحد ما رآه من أن: «سورة الأنعام تتناولُ حقيقةَ العقيدةِ ذاتها وتواجهُ الجاهليةَ بها، وتُفنّد هذه الجاهلية عقيدة وشعوراً، وعبادةً وعملاً، بينما سورة الأعراف تتناول حركة هذه العقيدة في الأرض وقصتها في مواجهةِ الجاهلية على مدار التّاريخِ وكذلك نحن هنا مع سورتي يونس وهود في شَبَهٍ كَبيرٍ في الموضوع وفي طريقة العرضِ أيضاً إلاّ أن سورة الأنعام تَنْفَرِدُ عن سورة يونس، بارتفاعٍ وضخامةٍ في الإيقاع، وسرعةٍ وقوةٍ في النَّبْضِ، ولألاَءٍ شديدٍ في التَّصويرِ والحركة، بينما تمضِي سورةُ يونُس، في إيقاعٍ رَخِيٍ ونبضٍ هادئ، وسلاسة وديعةٍ فأمّا هود فهي شديدةُ الشَّبَهِ بالأعْرَافِ موضوعاً وعرضاً وإيقاعاً ونبضاً، ثم تبقى لكل سورةٍ، شخصيتها الخاصَّةَ، ومَلامِحَهَا المميِّزةَ، بعد كل هذا التَّشابُهِ والاختلافِ» [1] ومما لاشك فيه أن إنْعام نظره المستمرّ في القرآن، وخِبْرته الكبيرَة بالنِّتَاجِ الأدَبِي الْبَشَرِي وأَصحابِهِ، جَعَلَ العثور على الوحدة الموضوعية عنده عملاً سهلاً، لا شطط ولا تكلُّف فيه.

وأما بشأن السّورة الواحدة، من حيث التّناسب بين أجزائها، واكتشاف موضوعها العام فهو اطِّراد كامل سجله سيد قطب في ظلال القرآن من «أنَّ لكل سورة شخصيّة مميزة ! شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حيٍّ مميزِ الملامِحِ والسِّماتِ، والأنْفاس ولها موضوع رئيسيٌّ أو عِدَّةُ موضوعات رئيسيَّةٍ مشدودةٍ إلى مِحورٍ خَاصٍّ، ولها جَوٌّ خاصٌّ يُظلِّلُ موضوعاتها كلِّهَا، ويجعل سيَّاقَهَا يَتَنَاولُ هذِه الموضوعاتِ من جوانب معيَّنَةٍ،تُحقِّقُ التَّناسُقَ بينها وفقَ هذا الجوِّ، ولها إيقاع موسيقيٌّ خَاصٌّ إذا تغير في ثنايا السّياق فإنما يتغيّر لمناسبَةِ موضوعيةٍ خاصَّةٍ، وهذا طابع عام في سُوَّر القرآن جميعاً» [2]، فقد كان يقف أمام كل سورة مبرزًا شخصيتها وموضوعها المحوري الذي تستند إليه وبقية المواضيع التي تخدم الموضوع العام.

فسورة البقرة رغم أنها ظلّت مفتوحةً طِيلة العهد المدني، وهي تحمل عدّة موضوعات مختلفة وأنها أطول سوّر القرآن الكريم،إلا أنها ذات «محور مزدوجٍ يترابط الخطَّان الرئيسيان فيه ترابطاً شديداً... فهي من ناحيةٍ تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية... وهي من النَّاحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة المُسلِمة في أول نَشْأَتِهَا وإعدادها لحمل أمانة الدّعوة والخلافة في

[1] ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 3، ص: 1745 و 1746.

[2] ـ المصدر نفسه. ج 1، ص: 27 و28.

الأرض...»[1] وتظل السّورة مفتوحةً مدة عشرة سنوات، ويبقى موضوعها هو ذات الموضوع وهذا من الإعجاز.

وسورة آل عمران تتكوَّن من مقطعين اثنين، المقطع الأوّل يبين موقف أهل الكتاب المنحرفين عن كتابهم، من الجماعة المسلمة والعقيدة الجديدة ، ويبدأ من بداية السُّورة إلى الآية 120ليبدأ المقطع الثاني بالآية 121 بقوله تعالى: ﴿**وإِذْ غَدَوْتَ مِنَ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُومِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ واللهُ سَ ميعٌ عَلِيمٌ**﴾[2]وهو خاصٌّ بغزوة أُحُد التي كانت المعركة فيها سِجال ويشتمل المقطع على تقريرات في حقائق التصَّوُّر الإسلامي والعقيدة الإيمانية، وتوجيهات في بناء الجماعة المسلمة.

والعلاقة ظاهرة بين المقطعين في السورة تبرز«عملية بناء التصَّور الإسلامي وتجليته في مجال المعركة والحديدُ ساخن ،كما يتولّى عملية تثبيت هذه الجماعة على التّكاليف المفروضة على أصحاب دَعْوة الحقِّ في الأرض مع تعليمهم سنّة الله في النّصر والهزيمة ويربِّيهم بالتّوجيهات القرآنية كما يربّيهم بالأحداث الواقعيّة...»[3] وهكذا يكون الموضوع الواحد الذي تدور حوله السورة هو بناء التّصوّر الإسلامي والمعركة قائمةٌ مع اليهود والمشركين في المنشط والمكره.

وسورة المائدة تتقارب مع سورة البقرة وآل عمران والنساء وقد بيّن سيّد الهدف الذي تلتقى عليه هذه السور الأربع ، وهو إنشاء الأمة التي تكون شاهدة على الناس وقدوةً لهم ، وتصحيح التصوُّر الإعتقادي وتخليصه من الوثنية، والخرافات أهل الكتاب ، إلاَّ أنَّ للسّورة شخصيتها وطابعهَا الخاص« وهو طابَعُ التَّقرِير والحسْمِ فِي التعبيرِ... سواءٌ في ذلك الأحكام الشرعية التي تقتضي بطبيعتها التقرير والحسم في القرآن كُلِّه، أو المبادئ والتّوجيهات التي تتّخذ في غير هذه السورة صُوَّرًا أُخرى، ولكنها في هذه السورة تقرّر في حسمٍ وصرامةٍ، في أسلوب التَّقرير الدَّقيق، وهو الطابَعُ العامُ الم ميّز لِشخصيةِ السُّورةِ من بدئها إلى مُنتَهَاها »[4]، وقبل أن يباشر في سورة المائدة بالتّفسير قدّم للسّورة مقدمةً في تِسْعِ صفحاتٍ من الحجم الكبيرِ مبرزًا الخيط الرفيع الذي ينتظم السورة مع من سبقها من السُّوّر الطّوالِ وعلاقتها بسورةِ الفتحِ وتمييز كل سورةٍ في المجال الذي تُعرضُ فيه.

---

[1] _ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 1، ص: 28.

[2] _ سورة آل عمران. الآية: 121.

[3] _ المصدر نفسه. ج1، ص: 356.

[4] _ نفسه. ج2، ص: 833.

أمَّا التَّناسب بين آيات المقطع، فكان سيد يَتنقَّل من آيةٍ إلى آية مبينًا سِرَّ التّرابط بينهما مع أن «السوّر لم تكن تَتَنزّل جُملةً إلاّ نادرًا وأنّ الآيات الواردة فيها لم تكن تتترل متتاليةً تواليها في المُصحَفِ، ولكن ترتيب هذه الآيات في السوّر ترتيب توقيفي، فلابد من حكمة في ترتيبها على هذا النّسق، وقد كشفت لنا جوانب من هذه الحكمة حتى الآن في السوّر التي عرضناها في تماسك بنيان السوّر واتِّحادِ الجوِّ والظّلال في كل سورة، والعلم بعد ذلك لله إنما هو اجتهادٌ والله الموفق إلى الصَّواب»[1].

والذي يُنْبئ عن تقييم النجاح الذي كان يصل إليه في اكتشافهِ الوحدةَ الموضوعيةَ [2]لِسُورَةٍ مَا أو مقطع مَا، هو ذلك الاطمئنانُ الذي يجِدُهُ عقب تأمُّلِهِ الطَّويل وتذوقه السَّليمِ، الذي يعتمدهما كأدواتٍ بعد الاتصال الوثيق بالله رب العالمين لأن «النظام لا يُبْرَزُ إلاَّ بالتَدَبُّرِ، فإن كُنْتَ موقِنًا بِعَدَمِهِ مُسْتَبِدًا بذلك الرأي نَبَا بِهِ سَمْعُكَ واستكرهت التَّدَبُّرَ فيه» [3] لأن هذه الظاهرة الاجتهادية مآلها فتحٌ يُكْرِمْكَ اللهُ بِهِ بقدر قربك منه.

وكان مما استوقفه ورود هاتين الآيتين اللتين تُبَيِّنَانِ حُكْمَ الصلاة في الخوف والأمن وهما قوله عزَّ وجل:﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَات والصَّلاة الوُسطَى وقُومُوا لله قَانِتِينَ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبانًا فإذا أمَنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونوُا تَعْلَمُون**﴾[4].

والآيتان توَّسطتا مقطعا يمثِّل درسًا خاصًا بأحكام الأسرة في الإسلام، من زواج ومعاشرة، وإيلاءٍ، وطلاقٍ وخلعٍ وعِدةٍ ونفقةٍ ومتعةٍ ورضاعةٍ وغيرها من الأحكام، مما يبدو للوهلة الأولى غير متجانسٍ، فتوقف يبحث عن بيان الرابط وعن دور السياق، وأين تناسب الآيات في المقطع ؟ ولكن لم يقف على سر ذلك، فطلب من القراء أن يساعدوه في كشف الأمر لكنَّه لم يرتح للذي وَافَوْهُ بِهِ.

وبعد سنوات سبعٍ، فتح الله عليه بإدراك السر الذي ارتاح له واطمأن إليه فسجله في الطبعة المنقّحةِ بأنها كلها عبادة لله، وأنّ مفهوم العبادة في الإسلام شامل ولا ينتهي عند الصّلاة : «و تندمج عبادة الصّلاة في عباداتِ الحياة، الاندماج الذي ينبثقُ من طبيعة الإسلام ومن غاية الوجود الإنساني

[1]_ في ظلال القرآن. سيد قطب . ج 4، ص : 2147.

[2]_ ينظر:المنهج الحركي في ظلال القرآن. الخالدي صلاح عبد الفتاح. ص 164.

[3]_ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان. الفراهي عبد الحميد ،الدائرة الحميدية، الهند،ط1؛ 2008م،ص: 22.

[4]– سورة البقرة. الآيتان: 238 و 239.

في التصّورُ الإسلامي ويبدوا السياق موحيًا هذا الإيحاء اللّطيف، إنَّ هذه عباداتٍ و طاعة الله فيها من جنس طاعته في الصلاة، والحياةِ وِحدَةٌ، والطّاعاتُ فيها جُملةٌ، والأمر كلُّه من الله، وهو منهج الله للحياة»[1] وحمد الله على أن هداه لهذا السِّرِّ واطمأن إليه.

وفي سُورةِ المَائدةِ استوقَفَهُ تَركيبُ هذه الآية ودَلاَلَة هَذَا التركيب في قوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ عَلَى الّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوَاْ إِذَا مَا اتّقَواْ وَآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصّالِحَاتِ ثُمّ اتّقَواْ وَآمَنُواْ ثُمّ اتّقَواْ وّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[2] وتركيب الآية في تكرار الإيمان والعمل الصالح، والتقوى والإحسان، تركيبٌ محيرٌ للعلماء، كلهم قال فيه رأْيا و لم يجزم به .

وكان قد أشار في الطبعة الأولى إلى أنه توكيد عن طريق التفصيل بعد الإجمال، الذي يأتي في بداية الآية، مع تبيان حقيقة التقوى التي هي شعورٌ دائم، وكان يجد راحة في الضمير كلّما تعرض لشيءٍ بالبيان، فإذا لم يجد في ذلك راحة واطمئناناً فإن الأمر يحتاج إلى مزيد وبيان وهذا هو المعيارُ المعتمَدُ لديه عقب تعرُّضه لكثيرٍ من القضايا في القرآن، وفي هذا الموطن يقول «وأنا اللّحظة لا أجد في هذا القول ما يُريح أيضاً... ولكنه لم يُفْتَحْ عَليَّ بشيءٍ آخر... واللهُ المستعان» [3] وهذا هو الموطن الوحيد الذي أعلن عَجْزَهُ عنِ اكتشافِ وِحدتِهِ الموضُوعيةِ لهذه الآية الكريمة [4]، وبعد أن سجل اعترافاته، وعدم ارتياحه للّذِي وجدَهُ وقَرأه، ترك الآية في تواضع العلماءِ وانتقل إلى بَيَان الآية الموالية.

وَآيتا المائدة والبقرة السَّالفتين، والتي تريَّث فِيهِمَا طويلاً، وخاصةً آية المائدةِ التي صَرَّح أنه لم يدرك وِحْدَتَها الموضوعية، لهو نموذج عالٍ يحمل «في عباراته العديد مِنَ الإيحاءَاتِ والدَّلاَلاَتِ،على نفسيةِ سيّدٍ وتواضعِهِ، وصلته بكتاب الله، ومنهَجِهِ في تفسيرِهِ، وطريقته فِي بَيَانِ الوِحْدَةِ السَّارِيَةِ في نصوصِهِ وموضُوعَاتِهِ، وأثَرُ المِفتَاحِ الحركِي والمنهاجِ الحركِي الذي التزمَه في الطبعةِ المنقَّحَةِ من الظلال، حيث أدرك بِه مهمّة القرآن العمليَةِ، وأَغراضِهِ الأساسيةِ، إدراكاً جعله وسيلةً إلى التناسُقِ

---

[1]_ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج1، ص : 238. وأنظر الحاشية من نفس الصفحة.

[2]_ سورة المائدة. الآية : 93.

[3]_ المصدر نفسه. ج2، ص : 979.

[4]_ ينظر:المنهج الحركي في ظلال القرآن. الخالدي صلاح عبد الفتاح. ص:163

والانسجَامِ بين موضُوعَاتِ القرآنِ، والرَّبْطِ المحكم بين نُصوصِه» [1] ولِشدّة تطبيقِهِ لهذهِ القاعدةِ "الوحدةُ الموضوعيةُ"أحسنَ تطبيقٍ، في السوَّرِ الطوالِ كما في السوَّرِ القصارِ، تكون هذه القاعدة أبرز سماتِ الظِّلال من بين التفاسير بِعامَّةٍ، ويكون الرَّجُل من خِيرةِ المفسرين الرُّوادِ مترلةً ودرجةً.

ب- دفع التعارض الموهوم:

وصف الله سبحانه عزّ وجل القرآن بأنه حكيم، والحكيم كلامه محكم ومفصل لا لبس فيه ولا غموض، ولكن النظرة المتعجلة لبعض قارئي القرآن يرى أنّ في بعض الآيات ش يئا من التعارض كأن تتحدّث الآية الأولى عن أمر تثبته ، في حين تنفى الأخرى هذا الأمر، ويُؤْتى النّاظر هنا من عِدةِ أسبابٍ، أهمها : مدى ما يكون مع هذا الناظر من العلم، كما يُعْزَى هذا الجهل إلى تفشّي العجمة وانحدار السليقة .

ومن جهة أخرى يجد أعداء الله وخصوم هذا الدين وفي مقدمتهم في هذا العصر "المستشرقون وتلامذتهم" مغمزًا يصبّون طعونا تهم لكتاب الله بالتشكيك والتضليل ﴿**يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاّ أَن يُتِمّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾[2]

وقديمًا تعرض العلماء للجمع بين الآيات التي يظهرُ فيها التعارض، ودفع الإيهام وإزالة م ا يبدوا مشكلاً ، مستعينين بالله أن يُلهمهم السّداد، ويوفقهم إلى الصّواب ، ومن ذلك:

- قوله تعالى: ﴿**أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى**﴾ [3]
- قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَنَابَزُواْ بِالألْقَابِ** ﴾[4]

فلآية الأولى تعبير من الله عن الصحابي الجليل عبد الله بن أم مكتوم" بالأعمى "، وفي الآية الثانية نُهي عن التنابز بالألقاب : «والجواب هو ما نبّه عليه بعض العلماء، من أن السّر في التعبير عنه

---

[1] ـ المنهج الحركي في ظلال القرآن. الخالدي صلاح عبد الفتاح. ص : 165.

[2] ـ سورة التوبة. الآية : 32.

[3] ـ سورة عبس. الآية : 2.

[4] ـ سورة الحجرات. الآية : 11.

بلفظ الأعمى للإشعار بعذْره في الإقدام على قطع كلام الرسول -صلى الله عليه وسلم -لأنّه لو كان يرى ما هو مشتغل به مع صناديد الكفار، لما قطع كلامه» .[1]

- ومن ذلك هذا القسم، في الآيتين الكريمتين:

- قوله تعالى ﴿**لا أقسم بهذا البلد**﴾ [2]

وقوله تعالى﴿وهذا البلد الأمين ﴾[3]

فيتبادر من الآية الأولى أنه لا يقسم بهذا البلد وهو مكة المكرمة، مع أنه أقسم به في الآية الثانية والجواب من عدة أوجه :

أولها : وعليه الجمهور أن "**لا**"هنا صلةٌ على عادة العرب فإنها تلفظها من غير قصد معناها الأصلي، بل لمجرد تقوية الكلام و توكيده ، والأمثلة في القرآن وكلام العرب كثيرة.

ثانيها: أن "**لا**"نفي لكلام المشركين المكذبين للنبي صلى الله عليه وسلم وقوله، (أُقسم) إثبات مستأنفٌ.

ثالثها : أن اللام لام الابتداء أُشبعت فتحتها والعرب ربما أشبعت الفتحة بألفٍ والكسرة بياءٍ والضمة بواو .[4]

والذبُّ عن كتاب الله بالحجج الدّامغة، وتبيان عدم الاختلاف فيه، هو من أعظم القراءات الفكريّة عبر عصور التّاريخ الإسلامي كله ، وكان ينطلق من أن القرآن هو الحقّ وأن ما عداه هو الباطل ﴿**أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىَ إِنَّمَا يَتَذَكّرُ أُوْلُواْ الألْبَابِ**﴾[5]

والقرآن كان ولا يزال والسنة أيضًا هم السلاح القوي في الحجاج لمن تمسك بهما « فليس شيءٌ أنفعَ للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته : من تدبر القرآن، وإطالة التأمل وجمع فيه الفكر على

---

[1] ـ دفع ايهام الاضطراب عن آيات الكتاب.الشنقيطي محمد.دارالكتب العلمية،بيروت،ط1؛ 1417هـ،1996م،ص: 207 .

[2] ـ سورة البلد. الآية : 1.

[3] ـ سورة التين. الآية : 3.

[4] ـ ينظر: دفع ايهام الاضطراب عن آيات الكتاب، ص: 215 وما بعدها.

[5] ـ سورة الرعد. الآية : 19.

معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرها وعلى طرقاته ما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما...وبالجملة تُعرّفه الربّ المدعو إليه وطريق الوصول إليه وماله من الكرامة إذا قدم عليه »[1].

ففهْم القرآن يبدأ من الإيمان به أنه الحقّ، ومن ثم تتأسَّس المعلومات التي تكون تاليةَ الإيمان الّذي يحجزُ صاحبه، أن يتقوّل «على الله بغير برهان فيرجع إلى الكذب على الله تعالى ... فعن عمر بن الخطاب (ما أخاف على هذه الأمة من مؤمنٍ ينهاه إيمانه ولا من فاسقٍ بيّن فسقُه ولكني أخاف عليها رجلاً قد قرأ القرآن حتى أذلقه بلسانه، ثم تأوّله على غير وتأويله)»[2] فالصّحابة رضوان الله عليهم من مميزاتهم أنهم كانوا يؤتون الإيمان قبل أن يؤتوا القرآن ، ولذلك لم يجدوا إشكالاً في فهم القرآن والعمل به .

وقد اهتمّ ـ سيد قطب ـ بهذا الأمر وهو الجمع بين النصوص الموهمة، وإزالة التعارض الّذي يظهر لنا من قصورنا و جهلنا ، ماشيًا على درب الذين يرون أن الدّراسات الإنسانية لا تعرف الكلمة النّهائية في البحث ويجعلون «في نهاية بحوثهم "والله أعلم"وهذا القول لا يصدر منهم في بداية دراستهم أو بحوثهم أو فتاواهم وإنما بعد أن يدلوا بدلوهم بين الدّلاء وبعد أن يصبروا على دقائق البحث، وأسرار الموضوع، الذي يودون الحكم له، أو عليه أو الوقوف على جوهره وطبيعة»[3] فكانت له في "ظلال القرآن "و في "خصائص التّصوّر الإسلامي ومقوّماته " وقفات كثيرةٌ وفّقه الله فيها لتصحيح التّصورات والمفاهيم المخطئة.

ويبدأ أنْ "لا اختلاف ولا تعارض في القرآن" عند سيد قطب من التصوّر الإعتقادي الذي قطع فيه القرآن قطعًا حاسمًا بقوله تعالى ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً**﴾[4] ويقوم العقل بعملية التدبر في مجاله المحدد له الذي يحدّده له الدين ،لا أن يكون

---

[1] ـ مدارج السالكين بين إياك نعبدوإ ياك نستعين.ابن قيم الجوزية. دار الكتب العلمية، بيروت، ط2 ؛ 1408هـ، 1988م ج1، ص: 485 و486.

[2] ـ الموافقات في أصول الشريعة.الشاطبي أبو إسحاق. تح: عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، ط2؛ 1395هـ،1975م.ج 2، ص: 422 .

[3] ـ فصول في البلاغة. محمد بركات حمدي أبوعلي.دار الفكرللنشروالتوزيع، عمان،ط1؛ 1403هـ، 1983م،ص: 313.

[4] ـ سورة النساء. الآية : 82.

حكمًا على الدّين «فالأداة العظيمة _ أداة الإدراك البشري_ هي بلا شك موضوع التكريم من الله ومن ثم يكل إليها إدراك الحقيقة الأولى، حقيقة أن هذا الدين من عند الله، لأن هناك ظواهر يَسهُل إدراكها وهي كافية بذاتها للدلالة على هذا الإدراك البشري ذاته على أن هذا الدين من عند الله، ومتى أصبحت هذه القاعدة الكبيرة مسلمًا بها. أصبح من منطق هذا الإدراك ذاته أن يسلم بعد ذلك تلقائيًا بكل ما ورد في هذا الدّين »[1] و مهمةُ العقل أن يقوم بما هو في استطاعته؛ التدبر في آيات الكتاب المقروء والكتاب المفتوح .

وأحيانًا يلعب الظّرف دوره في القراءة ، فيدفع طرفًا لتوظيف النّص واستغلاله لصالحه ويظهر النّص من خلاله بأنّه التّفسير الطّبيعي المراد ، والأمر ليس كذلك إذ لابد من جمع النّصوص وبيان الدّلالة الحقيقية لكل نص، مثل ما يُتبادر من قوله تعالى :﴿ **لَتَجِدَنّ أَشَدّ النّاسِ عَدَاوَةً لّلّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنّ أَقْرَبَهُمْ مّوَدّةً لّلّذِينَ آمَنُواْ الّذِينَ قَالُوَاْ إِنّا نَصَارَىَ ذَلِكَ بِأَنّ مِنْهُمْ قِسّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ**﴾[2]

فيسري الوهم بأنّ النّصارى أخْير من اليهود والمشركين ، وأقرب منهم إلى المسلمين ، خاصّةً حينما يكونون في مركز القوّة، ويرى المسلمون منهم شيئاً من المودّة ، فيظنّون أنّ هذا وصال غير مبتوت ،وينسى هؤلاء الدّ لالات التاريخية،و الواقع التّاريخي الذي يشهد لحروب الإبادة التي مارستها الصليبية العالمية،[3]في الأندلس وفلسطين، والغار ات التّترى هنا وهناك، وحملات الاستعمار والتبشير التي لازالت تلبس لبوسًا شتّى وينخدع فيها الكثيرٌ.

فلننظر كيف دفع سيد قطب هذا التّعارض الموهوم ،حيث قام بإيراد الطّرق التالية :

1) أورد ثلاث روايات مأثورة من تفسير القرطبي ومن سيره ابن هشام تبيّن تحديد ملامح هذا الفريق من النّصارى والّذي كان حالة معينةً على عهد الرسول صلّى الله عليه وسلم .

2) سِّياق السورة يبين أن هذه الحالة خاصة وليست عامة في النصارى.

[1] _ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 2 ، ص : 723.

[2] _ سورة المائدة. الآية : 82.

[3] _ ينظر:أحجار على رقعة الشطرنج.وليام غاي كار.(تر) سعيد جزائر لي،دار النفائس، بيروت،ط8؛ 1406هـ،1986م، ص:55

3) تحدد الآية صفات هذا الفريق بأنه يشهد شهادةً إيمانية، تجعله من هذه الأمة المسلمة.

4) يبين سياق السورة في نهايته أن هناك منهم من سمع الحق ومنهم من كفر وكذب.

5) أورد خمس آيات كتعبير مألوف في القرآن، وحكم معهود في أهل الكتاب وهي :

1-قوله تعالى:﴿**لَمْ يَكُنِ الّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكّينَ حَتّىَ تَأْتِيَهُمُ الْبَيّنَةُ**﴾[1]

2-وقوله تعالى:﴿ **لقَدْ كَفَرَ الّذِينَ قَالُوَاْ إِنّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـــهٍ إِلاّ إِلَـــهٌ وَاحِدٌ وَإِن لّمْ يَنتَهُواْ عَمّا يَقُولُونَ لَيَمَسّنّ الّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[2]

3-وقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الّذِينَ قَالُوَاْ إِنّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِيَ إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبّي وَرَبّكُمْ إِنّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنّةَ وَمَأْوَاهُ النّارُ وَمَا لِلظّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**﴾[3]

4-وقوله تعالى:﴿ **إِنّ الّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنّمَ خَالِدِينَ فِيهَآ أَوْلَـــئِكَ هُمْ شَرّ الْبَرِيّةِ**﴾[4]

5-وقوله تعالى:﴿**لُعِنَ الّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِيَ إِسْرَائِيلَ عَلَىَ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وّكَانُواْ يَعْتَدُونَ**﴾ [5]

فليس كُلُّ الذين قالوا: أنهم نصارى يدخلون في ذلك الحكم :(**وَلَتَجِدَنّ أَقْرَبَهُمْ مّوَدّةً لّلّذِينَ آمَنُواْ الّذِينَ قَالُوَاْ إِنّا نَصَارَىَ**) « كما يحاول أن يقول من يقتطعون آيات القرآن دون تمامها إنما هو الحكم مقصور على حالةٍ لم يدع السياق القرآني أمرها غامضًا، ولا ملامحها مُجْهلةً، ولا موقفها متلبسًا بموقف سواها في كثير ولا قليل ».[6]

---

[1] ـ سورة البينة. الآية : 1.

[2] ـ سورة المائدة. الآية : 73.

[3] ـ سورة المائدة. الآية : 72.

[4] ـ سورة البيّنة. الآية:6.

[5] ـ سورة المائدة. الآية:78.

[6] ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 2، ص : 964.

ويتكفّل الغزو الفكري بمستشرقيه ومستغربيه،و الطاعنين في القرآن والحاقدين عليه بالتوجيه « إلى أوائل مثل هذا النّص القرآني دون متابعةٍ لبقيته، ودون متابعةٍ للواقع التّاريخي الذي يقصد به هذا كله...إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ؛ وهو لا يناقض بعضه بعضًا فلنقرأه إذن على بصيرةٍ »[1] وقد كان هذا ديدنه مع جميع النصوص التي يتبادر منها التعارض يُجمّعها كلها ثم يتأملها جيدًا ثم يقوم بعد ذلك بعملية الاستنباط .

وعندما وقف عند قوله تعالى: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْـــمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهُ**﴾[2] تطرّق إلى قضية الإيمان والعمل، وهل يقبل العمل بدون إيمان، ولكنّه التزم بظاهر النّصوص و لم يغادر جوها إلى مطوّلات تحجب المطلوب التي جاءت الآيات لتؤكّد عليه .

ونص "الزّلزلة" يفيد ظاهره أنّ الأعمال الحسنة تنفع صاحبها يوم القيامة حتى ولو كان كافرا باعتبار(مَنْ) من صيغ العموم،في الوقت نفسه توجد نصوص أخرى تفيد أن الكافر لا ينفعه عمله يوم القيامة حتى ولو كان فيه ا الخير مثل قوله تعالى: ﴿**مّثَلُ الّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدّتْ بِهِ الرّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاّ يَقْدِرُونَ مِمّا كَسَبُواْ عَلَىَ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضّلاَلُ الْبَعِيدُ**﴾[3].

ويبدأ سيد في معالجة النصين بتبيان الحقيقة الأساسية التي يقوم عليها العمل وهي الإيمان الذي « هو أصل الحياة الكبير، الذي ينبثق منه كلّ فرعٍ من فروع الخير وتتعلق به كل ثمرةٍ من ثماره، وإلا فهو فرع مقطوع من شجرته ، صائر إلى ذبول وجفاف ، وإلا هي ثمرةٌ شيطانية وليس لها امتداد أو دوام» [4]ومن هنا لا يوجد عمل بدون إيمان حيث استدرك_ سيد_ خطأ الذين ذهبوا إلى أن أن الكافر ينفعه عمله الصالح يوم القيامة.

والفرق بين عملين يحدّدهما الباعث الحقيقي، أكان العمل لله أم لغير الله، ذلك في ميزان الله الدقيق الذي يحصي الذرّة، فإذا لم يعتبر العمل بالباعث والقصد والغاية فما الفرق بينه وبين الآلة

---

[1] _ في ظلال القرآن.سيد قطب. ج 2، ص : 967.

[2] – سورة الزلزلة. الآيتان : 7 ، 8.

[3] _ سورة إبراهيم. الآية : 18.

[4] _ المصدرنفسه. ج 2، ص : 967.

الصماء ؟ والعمل كما هو معروف «يعمّ أفعال القلوب والجوارح» ،[1] فالإيمان هو الأصل، وتترتّب الأعمال بعد ذلك على الإيمان .

وقد نظر_ سيد_ إلى الآيتين السابقتين من جهةٍ أخرى، غير جهة العمل والإيمان ، جهة الأعمال لّما تتحول إلى رماد وتذهبها الرّيّاح ولا تصير كسبا موجودا حيث جمع «بين هذين النصين بأن آية سورة إبراهيم صريحة أصيلة في أن أعمال الكفار " الحسنة "لا تنفع أصحابها لأنهم لم يجدوها هناك، أما آية سورة الزلزلة فهي خاصة بالمؤمنين يوم القيامة وإن جاءت بصيغة العموم فهي عام أريد به الخصوص»[2] مع العلم أن سورة الزلزلة مدنية.

وبناء الأعمال على الإيمان في القبول يؤكده مطلع سورة القتال ﴿**الّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ أَضَلّ أَعْمَالَهُمْ وَالّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصّالِحَاتِ وَآمَنُواْ بِمَا نُزّلَ عَلَىَ مُحَمّدٍ وَهُوَ الْحَقّ مِن رّبّهِمْ كَفّرَ عَنْهُمْ سَيّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ذَلِكَ بِأَنّ الّذِينَ كَفَرُواْ اتّبَعُواْ الْبَاطِلَ وَأَنّ الّذِينَ آمَنُواْ اتّبَعُواْ الْحَقّ مِن رّبّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ لِلنّاسِ أَمْثَالَهُمْ**﴾. [3]

ويعتبر الكتاب القيّم خصائص "التّصوّر الإسلامي ومقوّماته" الّذي صبّ فيه الكاتب عصارة فكره ،مجالا لبناء المفاهيم الحقيقيّة،وفي نفس الوقت ردّاً لشُبه تَرد إلى أصحابها من خلال مقرّرات سابقة، تسلّلت إلى عقولهم بفعل الجهل بالإسلام ، أو من جرّاء الغزو الفكري الّذي ما فتئ يصنع "إسلاماً"لذرا ري المسلمين ويزحزحهم عن دينهم الحق الصّحيح، فيحسبون أنّ الأديان من حيث الاعتقاد على الأقلّ سواء وهذا وهمٌ يُدخل صاحبه في تيه عريض، فليس ثّمة شيء صحيح على وجه اليقين؛ غير ما جاء به محمّد _ صلّى الله عليه وسلّم _ ومن خلال الثّقة الكبيرة فيما نملك،و الإيمان الرّاسخ بما نعتقد ، تتّضح حقيقة ذلك السّراب الّذي يجري وراءه البعض للقبض عليه في مؤتمرات"مقاربة الأديان".

---

[1] _ الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية. الكفوي أبو البقاء أيوب. تح :عدنان دروسي ومحمد المصري، مؤسّسة الرسالة، بيروت. ط 2 ؛1432هـ، 1993م.ص: 616.

[2] _ المنهج الحركي في ظلال القرآن. الخالدي صلاح عبد الفتاح. ص: 144.

[3] _ سورة محمد. الآيات: 1، 2، 3

وعند قوله تعالى :﴿**إنّما الله إله ٌ وَاحدٌ سُبحانه أن يكون له ولدٌ له مَا في السّماوات وَمَا في الأرض وَكَفَى بالله وَكيلاً** ﴾. [1] أشار ـسيدـ إلى تصحيح القرآن الكريم لعقائد أهل الكتاب المليئة بالخرافات والأساطير، سواء افتراءات اليهود على الله ـ عز وجل ـ أو عقيدة التّثليث الّتي يزاولها النّصارى،وأنّ القرآن الكريم يعتبر عقائد أهل الكتاب ، وعقائد المشركين العرب كلّها باطلة وكلّها شرك وليست على شيء من الصّواب.

والإسلام لم يكتف بتصحيح عقائد هذه الفئات الثّلاثة فقط ،بل جاء ليصحح « العقيدة في الله للبشر جميعاً،وينقذها من كلّ انحراف ومن كلّ اختلال ،وكلّ غلوّ، وكلّ تفريط ،في تفكير البشر أجمعين ، فصحّح- فيما صحّح-اختلالات تصوّر التّوحيد في آراء أرسطو في أثينا قبل الميلاد، وأفلوطين في الإسكندرية بعد الميلاد؛وما بينهما وما تلاهما من شتّى التّصوّرات في شتّى الفلسفات الّتي كانت تخبط في التّيه، معتمدة على ذبالة العقل البشري،الّذي لابدّ أن تعينه الرّسالة ليهتدي في هذا التّيه»[2].

وهناك وقفاتٌ ووقفاتٌ ، تعرّض لها سيد بهذا العرض الرائع، أو كما قال: سابقًا يجب أن نقرأ القرآن على بصيرة، ونحا هذا النّحو في تفسيره في ظلال القرآن، دافعًا كُلّ شبهة تعرض للناظر العجلان، مشيرًا إلى الثغرات التي يعوّل عليها أصحاب البدع والأهواء في طعنهم الدين، مبينًا أن لا تعارض بين نصوص القرآن، وأن النصّ القرآني معجز بما فيه من دلالات تعلّل ربانيتهُ وصدقه، وصدق الله العظيم ،﴿ **إِنّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقّ فَاعْبُدِ اللّهَ مُخْلِصاً لّهُ الدّينِ** ﴾[3].

---

[1] ـ سورة النّساء. االآية: 171.

[2] ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 1، ص : 815.

[3] ـ سورة الزمر. الآية : 2.

- المبحث الأوّل: **الإعجاز البياني**

لا يختلف اثنان في من تصدى للوقوف على أسرار الإعجاز، أن يكون على قَدْرٍ عالٍ من التَّقوى والعلمِ، وأن يضرب فيهما بسهم وافرٍ لا يُضَاهى، وقديماً اشترط المفسِّرون فيمن اضطلع بهذا العِبْءِ الثَّقيل، أن يكون رجلاً: كهذا الذي يُصوِّره الزّمخشرى ـ رحمه الله ـ وأحسب أنه يتلمّس كلماته ويتفرَّسها كلمة كلمة، لِيتحقّقَ ممَّا يقول: «ولا يغوص على شيءٍ من تلكَ الحقائق ؛إلاّ رجلٌ قد برع في علمين مختصّين بالقرآن؛ وهما :علم المعاني وعلم البيان، وتمهل في ارتيّادِهِمَا آونةً، وتعب في التّنقيرِ عَنهما أزمنةً، وبَعثته على تتبُّع مظانّهما همَّةً في معرفة لطائف حجَّة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله ،بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظٍ ، جامعاً بين أمرين تحقيقٍ وحفظٍ؛ كثير المطالعات ، طويل المراجعات؛ قد رجع زمانا ورجع إليه، وردّ وردّ عليه ؛ فارساً في علم الإعراب، مقدَّماً في حَمَلَةِ الكتاب، وكان مع ذلك مُسترسِلَ الطَّبيعةِ، منقادَها، مُشتَعِلَ القريحَةِ وقّادها ؛ يقظان النّفس درّاكاً لِلَمْحَةِ وإن لَطُف شَأنُها، منتبهاً على الرّمزة وإن خَفيَ مكانها ، لا كزّا جاسيا ،ولاغليظا جافيا ،متصرفاً ذا دراية بأسَاليب النّظم والنّثر، مُرتاضاً غير رَيِّضٍ، بتلقيح بناتِ الفِكْرِ، وقد علم كيف يرتّب الكلام ويؤلّف وكيف يُنظّم ويُرصّف، طالما دُفع إلى مَضَايقِهِ ووقع في مَداحِضِهِ ومَزَالِقِهِ .»[1] ومن أجل هذا، إذا عُدَّ الإعجاز يون فإنهم عددٌ قليلٌ بين العلماء .

والملاحظ أن هذا العددَ القليل ينقسم إلى قسمين؛ قسم اِتّجه إلى الجانب التَّنْظيري وأَبدع فيه حيث قنّن للدّراسة الإعجازية من شُروطٍ وحُدودٍ وغيرها ،وقطع فيها شوطاً كبيراً من حيث الإنجاز، وعَلَى ضخامة ما قدّم، كان للدكتورة بنت الشاطئ رأي فيه «المصنفات في الإعجاز على اختلاف مذاهب أصحابها، جاءت أشْبَهَ بمباحثَ بلاغيةٍ، مما قَدَّروا أن إعجاز القرآن يُعرفُ بها، وإن استوعبت أقوال المتكلمين في وجوه الإعجاز، فرسائل الخطابي السُّنّي، والرُّمّاني المعتزلي، والبَاقلاّني الأشعري تأخذُ مكانها في المكتبة البلاغية»[2] .

---

[1]_ الكشاف. الزمخشري جار الله . ج1،ص:96، 97.

[2]_ الإعجاز البياني في القرآن ومسائل ابن الأزرق.بنت الشّاطئ عائشة.دار المعارف،مصر، ط5؛ 1971م،ص:83،84 .

وأمّا جانب التّطبيق فمحدود، وأصحابه قليلون وهم القسم الثّاني، ومنهم صاحب"دلائل الإعجاز" عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) الذي قَدَّم «النظرية الهيكلية ـ إنْ صَحَّ التّعبير ـ أو التَفْسير الأساس لإعجاز القرآن، كما أنّه أسَّسَ في الوقت نفسه لنظرية الصيّاغةِ أو (التّصوير) ولِنظرياتٍ وقَضايا لُغويّةٍ ونقديّةٍ وبلاغيةٍ كثيرةٍ، ما يزال كثيرٌ من المشتغلين فيها يُسرِجُون مصابيحهم من زيت هذا الإمام الفذّ ـ رحمه الله ـ »[1] وكل الآراء تَدينُ له بالولاءِ في نظره الثاقب والعميق .

وكان عبد القاهر الجرجاني ـ رحمه الله ـ أبْصَر بِقُصُور التّحليل البلاغي في الاستدلال ذالك التحليل الذي ينتهي عند الوجه الظاهري للقواعد، ولا يتعداها إلى معاني النحو المستفادة منها إذ «لا يكفي في علم الفصاحة، أن تنصّب لها قياساً ما، وأن تصفها وصفاً مجملاً وتقول فيها قولاً مرسلا... بل لا تكون من معرفتها (معرفة الفصاحة) في ش يء، حتى تُفصِّل القول وتحصل اليد على الخصائص التي تُعرَضُ في نَظْمِ الكلم، وتَعُدها واحدة واحدة، وتسميها شيئاً فشيئاً، ومتى جشمت ذلك وأبيت إلا أن تكون هناك، فقد أمَمت إلى غرض كريم وتعرضت لأمر جسيمٍ، فقد آثرت التي هي أتمّ لدينك وفضلك »[2]. والغرض الكريم الذي قصده هو التحليل الأسلوبي، الذي يكون أقدر على مواجهة النص واستخراج خباياه ومن ثم يكون التّحليل الأسلوبي الذي يعنيه عبد القاهر هو الهادي إلى ضروب الإعجاز.

وبغية كل مفسر الاهتمام بالوظيفة الفنية الجمالية، التي هي فوق الوظيفة الإخبارية للكلام أو السِّحر الذي يَنْبَعث من الكلام، الساري في النفوس، في شكل معاني ورُؤَىً وأحاسيس، يهتز الإنسان لها، وتدفعه إلى الاستجابة ، قد درج المفسرون على الوقوف عند ها، طمعا في اِستكْنَاه السِّرِّ والإبانة عنه بأسلوب جميل .

وعندما وقف ـسيدـ على تقييم الأثر الجمالي في كتب التّفسير، أشَادَ بِرَجُلين بَلَغَا شأوا فيه: الزمخشري (ت538هـ) رحمه الله وقال عنه «رجل ـ متأخر نوعاً ـ كان يقع له بين الحين والحين شيءٌ من التَّوفيق في إدراك بعض الجمال الفنِّي في القرآن» [3]والرجل الثاني هو صاحب دلائل الإعجاز

---

[1]ـ علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه. زرزور عدنان محمد . ص: 494 .

[2]ـ دلائل الإعجاز. الجرجاني عبد القاهر.مكتبة الخانجي، القاهرة، تعليق محمود شاكر، (د،ط) ص: 37.

[3]ـ التصوير الفني في القرآن. سيد قطب. ص :28.

وأسرار البلاغة الذي قال فيه «رحم الله عبد القاهر، لقد كان النّبع منه على ضربة معولٍ فلم يضربها»[1] وذلك في شأن خِصّيصة من الخصائص العامة للعمل الفنّي وإدراكها .

وكتب التّفسير كلّها تسير حسب هذا النّمط، تُزَاوِجُ بين التفسير والإشارةِ إلى مواطن الإعجاز، التي يفتح اللهُ على المفسّرين بمعرفتها، وهم بين مُقِلٍّ ومُكثِرٍ في الوُقوفِ عليها، لأن كشف بعض الأسرار المتعلّقة بالإعجاز، هي فتوحاتٌ من الله، فوق ما يملك المفسِّر من فطرةٍ وذوقٍ، وموهبةٍ، وبرهانٍ لغويٍ، وحُسن بيان .

وموضوع الإعجاز يقومُ أساسه على أنَّ " القرآن كلام الله، ومحمد رسول الله "ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهي التي لم يسلّم بها المشركون وأهل الكتاب لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودارت المعركة باللسان والسِّنان عليها منذ اللّحظة الأولى ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لِهَـذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**﴾[2].

وهي معركةٌ لازالت تدور رحاها اليوم بذات الضراوة التي كانت بها في السابق، ويمثِّل المستشرقون جزءها الكَبيرَ، نظراً لما يجتمعُ لديهم من علمٍ كبيرٍ بهذا الدين عموماً، وبهذه القاعدة، " القرآن كلام الله ومحمد رسول الله " خصوصاً، والتي يجدونها حتماً مقضياً من دراستهم للإعجاز القرآني، ويعرفونها كما يعرفون أبناءهم ، وتقوم كل تخرُّصاتهم ومحاولاتهم العابثة ،في تقويض هاته القاعدة للإعجاز، ولا يزالون منذ قرنين من الزمان تقريباً يكرّرون القولَ"ببشرية القرآن "(*) ويصوّبون سهام حقدهم الدّفين نحو الوحي وما يتعلّق به ، ولم يهتدوا إلى الحق الذي يجدونه ، ولم يستمعوا له. وصدق الله العظيم ﴿... **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِيَ آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَـئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ**﴾[4].

---

(1) ـ التصوير الفني في القرآن. سيد قطب. ص: 33.

(2) – سورة فصلت.الآية: 26.

(*)ـ وأشباههم أيضا، ممن كتب باسم القراءة المعاصرة والذين يجدون في المستشرقين مثلهم الأعلى،أنظر: هذا الاتجاه في: "قراءة في ضوابط التّأويل وأبعادها المنهجية في الدّراسات القرآنية المعاصرة ".رقية جابر العلواني.بحث قدّم في(ندوة دراسة التطورات الحديثة في الدّراسات القرآنية المعاصرة)،بيروت 11ـ12شباط،2006م،ص04وانظر :حواشي البحث.

(3)ـ سورة فصلت. الآية : 44 .

وقد مرّ فهم الإعجاز بثلاث مراحل هي:

1ـ **المرحلة الأولى** : هي الّتي كان عليها أهل القرون الثلاثة من نزول الوحي، إذ كان معنى الإعجاز ينصرف إلى الطّابع الذي يحمله بأنّه كلام الله، ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يستطيع تَقَوُّلَهُ، فهو رسولُ اللهِ، ومن ثم كانت وظيفة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والذين معه، إسماع الكفارِ القرآنَ، لأن العرب في فترة الوحي كانوا يدركون عند سماعهم القرآن بأنّه مباينٌ لكلامهم، لِعِلمهم بِلسانهم، وعدم القدرة على الإتيان بمثله، وبناء على عجزهم كان يتحدد هدفهم من القرآن، فلما يَتَبَيَّنَ عجزُهُم من سماعهم للقرآن، يؤمنوا فيهتدوا أو يجحدُوا فَيَضِلُّوا فكان الإعجاز الذي عرفه مؤمنهم وكافرهم، هو وسيلةٌ لغايةٍ ساميةٍ هي: الإيمان بربانية مصدر القرآن والنبوة الخاتمة .

2 ـ **المرحلة الثانية**: تبدأ ببداية القرن الرابع الهجري، وتتجه إلى دراسة التعبير القرآني نفسه، وكان الأمر طبيعياً، لأن اللسان العربي خالطه شيءٌ من العُجْمة، بسبب الذين دخلوا في الإسلام وكان لابد من بيان أساليب البيان، أو النظم الرائع، وانصبّت جهود العلماء على القرآن والبحث عن أسرار الإعجاز ودلائله. فتحول إعجاز القرآن من وسيلة إلى غايةٍ في حد ذاته وانداح عن ذلك الهدف الأساس ـ نوعًا ما ـ إلى علمٍ مستقلٍ بذاته، وفي هذه المرحلة تصدى العلماء بالدراسة للإعجاز البياني الذي أخذ نصيب الأسد من بين الوجوه الأخرى .

3 ـ **المرحلة الثالثة**: تبدأ بدراسة القرآن في العصر الحاضر ولا تركّز على التعبير القرآني وإنما تستخرج منه دلائل أخرى[1]، علميةٍ وغيبيةٍ وتشريعيةٍ وموضوعية وغيرها يُثْبتُ بها أن "القرآن كلام الله ومحمد رسول الله "، وهذه الدّلائل القرآنية التي يشارك جميع العلماء ؛ مؤمنهم وكافرهم في إظهارها ، يشهد العالم طرفاً منه بصورة معجز ه، فالمرحلة الثالثة والتي نعاصرها تركّز على مضامين القرآن، ويرى دارسو هذا الجانب أنّه الإعجاز المناسب لهداية البشرية في هذا العصر.

إن حديث سيد قطب عن الإعجاز القرآني، ذو شجون! فهو ينطلق من كونه أنّه قضية عقدية وبلاغية، وليس بلاغيةً فقط، كما آل إليه الأمرُ في الدِّراساتِ الإعجازية أخيراً، فكلُّ إدراكٍ لآية من

---

[1]ـ ينظر:مباحث في إعجاز القرآن.مسلم محمّد مصطفى.دار المسلم للطباعة والنشر والتوزيع ،الرّياض،ط2؛ص:168. 1416هـ،1996م،ص:168.

آيات القرآن، تنحني أمامها الذاتُ الإنسانية لا تَريمُ، هي إعجازٌ، حُقَّ على السّامع لها أن يخرجَ من حالته تلك إلى الإيمان الذي يدعونا الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن نستجيب له ﴿**يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للّهِ وَلِلرّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾[1] والإعجاز القرآني عند سيد قطب إذا لم يخرج من الدراسة البلاغية بتحديد الهدف منها إلى قضية عقدية، لم يكن قد أدَّى وظيفته التي فهمها به الأوائل .

ويسوقنا الحديث إلى أنّ سيد يَفْصِلُ فصلاً تاماً بين المعجزةِ والإعجازِ، رغم أنّ فِعلهما واحدٌ هو (أعْجَزَ)، فالأساسُ في المعجزة كما يقول :العقاد « أنَّهَا تخرقُ النَواميس المعروفة، وتشذ عن السُّنَنِ المطَّردة في حوادث الكون، وعلى هذا الوجه يجب أن يفهمها المؤمنون بها والمنكرون لها على السواء»[2] وهي بهذا التَّعريف سليمةٌ من المعارضة ، كما أنّها غيرُ مقرونةٍ بالتحدّي، وإنماهي آيات بيّنات، تُبيّنُ صِدق النّبي، وقد انتهت معجزات الأنبياء عليهم السلام بوفاتهم.

في حينٍ أن الإعجاز القرآني « هو آية لا تشبه شيئا من آيات الرّسل منذ آدم عليه السّلام... أوتيها نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ دون سائر الرّسل. »[3] آية فريدة في تاريخ البشرية منذ وجدت على هذه البسيطة،بحيث يصبح الإعجاز القرآني سِمة للقرآن الكريم دون الكتب المنزّلة، وصفة خاصة للأمة الإسلامية دون الأمم الأخرى .

إذن فالإعجاز هو: «عدم قدرة الكافرين على معارضة القرآن، وقصورهم عن الإتيان بمثله، رغم توفُّرِ ملكتهم البيانية وقيّام الداعي على ذلك، وهو استمرارُ تحدّيهم وتقريرُ عجزهم عن ذلك»[4]، والتحدي لا يتحقق إلا إذا كان الطرف الآخر على درايةٍ وعلمٍ بالمتحدَّى به، وإلا لانتفى التحدّي وبطُل الإعجاز، وعرف القوم أنه المُحالُ الذي ليس لهم قدرةٌ عليه، لأنهم مجرد ون من سلاحهم .

---

[1]ـ سورة الأنفال. الآية : 24.

[2] ـ ساعات بين الكتب. عباس محمود العقاد. ص : 23.

[3]ـ مداخل إعجاز القرآن . شاكر محمود محمّد.مطبعة المدني ،مصر ،ط1؛1422هـ،2002م، ص:47.

[4]ـ إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الربّاني. الخالدي صلاح عبد الفتاح .دار عمار، الأردن، ط1؛1421هـ 2000م. ص:17.

وهذا الفصل بين المعجزة والإعجاز السّالف الذّكر، كان قائماً في ذِهن سيد، وهو يتكلم في كتابه(التّصوير الفني في القرآن) عن سرِّ الإعجاز، فأوضح «أنّه ليس من الحتم أن يكون الأمر المُعجز هو المجهولُ السِّرّ فيكفي ألاّ يستطيعه أحدٌ مع التحدّي، و لم يستطع أحدٌ أن يرقى إلى مستوى التناسُقِ الفنّي في هذا التّصوير، فإدراكه إدراك لسرّ الإعجاز على الأقل في هذا الأوان، وليس ما يمنع من ظهور أسرار أخر غير ما ظهر منها حتى الآن»[1] وكان هذا السِّرُ الذي يتحدث عنه هنا، مشيراً إلى الإعجاز البياني وما يتفرع عنه من وجوهٍ إعجازية في التأثير والتصوير، وطريقة العرض القرآني.

وقد خرج سيد بفكرتين أساسيتين حول الإعجاز القرآني، استلهمهما من صحبته للقرآن الكريم، الأولى :أنّ الإعجاز مطلق لا حدود له، وكُلُّ جيلٍ يذوقُ طرفاً من حلاوته غير الذي ذاقه وعرفه جيلٌ آخر قبله «فليس هوإعجاز اللّفظ والتعبير وأسلوب الأداء وحده ولكنه الإعجاز المطلقُ الذي يلمسه الخُبَرَاء في هذا، وفي النُّظُم والتشريعات والنفسيات وما إليها...» [2] واقتصر على الإعجاز البياني فقط في كتابه (التصوير الفني في القرآن) أما في الظلال: فكان حديثه عن أنواع أخرى من الإعجاز، كالإعجاز الموضوعي، والإعجازفي النُّظُم والمناهج والإعجاز الحركي، والإعجاز التربوي، وغيرها مما ذُكر من أنواع الإعجاز.

والفكرة الثانية : تتعلّق بشمولية الإعجاز في كلّ ما خلق الله، فالبشر والجن مهما ارتقوا في الأسباب واجتمعوا لها، فهم عَجزةٌ، لا يملكون حولاً ولا قوةً، والله القادر هو الذي يُمدّ كلّ شيءٍ بالحياة وكذلك «الشأن في هذا الإعجاز هو الشأن في خلق الله جميعاً ،وهو مثل صنع الله فى كل شيء وصنع الناس... حروف وكلمات يصوغ منها البشر كلاما وأوزانا ،ويجعل الله منها قرآنا وفرقانا والفرق بين صنع البشر وصنع الله من هذه الحروف والكلمات هو الفرق ما بين الجسد الخامد والروح النابض ،هو الفرق ما بين صورة الحياةِ وحقيقة الحياة! »[3]، والقرآن من ناحية الإعجاز فهو من جنس الإعجاز الموجود في الخلق، فالقرآن معجزٌ لأنه كلام الله، وكل مخلوق معجزٌ لأنه من خلق الله ، والبشر أمام هذا وذاك، لا يستطيعون .

---

[1] _نظرية التصوير الفني عند سيد قطب. الخالدي صلاح عبد الفتاح ، ص: 360.

[2] _ في ظلال القرآن.سيد قطب ، ج3 ، ص: 1785.

[3] _ المصدر نفسه ، ج1، ص: 38.

وحسب هذه المعطيات التي تلقّاها سيد من القرآن الكريم في نظرته للإعجاز القرآني ،مضى يشير في ظلاله إلى مواطن الإعجاز، ويقصُّ علينا في ما يجده منه ،وأنّ الذين هم أقرب الى تلمّس طرف من هذه الحقيقة، وأجدر من غيرهم «الذين زاولوا فنّ التعبير والذين لهم بصرٌ بالأداء الفنّي، يدركون أكثر من غيرهم مدى ما في الأداء القرآني من إعجاز في هذا الجانب ،والذين زاولوا التّفكير الاجتماعي، والقانوني، والنّفسي، والإنساني بصفةٍ عامةٍ يدركون أكثر من غيرهم من الإعجاز الموضوعي ما في هذا الكتاب، أيضاً...» [1] ورغم الإقرار بهذه الحقيقة إلا أنّه كان يقدِّرُ العجز من جرَّاء الخوضِ في موضوع الإعجاز سلفاً ، وكذلك صعوبة تصويره بالأسلوب البشري، لا لشيء إلا لأنه الإعجاز.

بقيت ملاحظة هامّة لابدّ من التّذكير بها لأنّها كثيراً ما تنسى في دروب البحث عن الإعجاز وهي أنّ الإعجاز القرآني «متعدّد النّواحي متشعّب الجهات ومن المتعذّر أن ينهض لبيان الإعجاز القرآني شخص واحد ولا حتّى جماعة ما ، مهما كانت سعة علمهم واطّلاعهم ،وتعدّد اختصاصهم إنما هم يستطيعون بيان شيء من أسرار القرآن في نواح متعدّدة حتّى زمانهم هم ،ويبقى القرآن للنّظر لمن يأتي بعدنا في المستقبل، ولما يجدّ من جديد، وسيجد فيه أجيال المستقبل من ملامح الإعجاز وإشاراته ما لم يخطر لنا على بال ».[2]

أ_ظاهرة التّشابه والتّنويع :

من ظواهر الإعجاز البياني، ما عرف بظاهرة التكرار في القرآن الكريم؛ وقد جاء في التعريفات أنّه «الإتيان بالشيء مرةً بعد أخرى وهو اسم مصدرٍ من التكرير» [3] وقد انطلق النحاةُ والبلاغيون من مُسلّمةٍ أنّ التّكرار اللغوي ظاهرة تعمُّ القرآن الكريم، فراحوا يلتمسون الدليل وينعتونه أحياناً

---

[1] _ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 3، ص: 1786.

[2]– لمسات بيانيّة في نصوص من التّنزيل. السامرائي، صالح فاضل. دار عمّار للنّشر والتّوزيع ، الأردن،ط3 ؛ 1423هـ-2003م، ص:5،6 .

[3]_ التعريفات.الجرجاني، علي بن محمَّد بن السيد بن الشريف.تح: نصر الدين التونسي،8 شارع جوهر_الدراسة، القاهرة،ط1؛2007م،ص:113.

بالتوكيد، ويتتبعون الألفاظ والمعاني المكرّرة في القرآن، ولِمَ هدف إلى التكرار منها ، وصولا إلى الوقع الذي يُحدثه في المتلقي .

ووصل الاهتمام بالتكرار عند القدامى أن أبدعوا في ذكر محاسنه وعرّفوا «بفائدته العظمى التقرير، وقد قيل الكلام إذا تكرّر تقرّر، وقد أخبر الله سبحانه بالسّبب الذي لأجله كرّر الأقاصيص والأخبار في القرآن فقال:﴿**وَلَقَدْ وَصّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلّهُمْ يَتَذَكّرُونَ** ﴾[1]وقال:﴿**وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلّهُمْ يَتّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً**﴾[2] وحقيقته إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى خشية تناسى الأول لطول العهد به .»[3] وكان من أمرهم أن رصدوا التّكرار اللّغوي على جميع الأصعدة، في الحروف والكلمات والجمل.

وقد رأت جماعة أخرى بعدم وجوب التّكرار في القرآن الكريم، لأن المعول فيه على المعنى حتَّى وإن تكررت الألفاظ، «لأنا نعلم أنّ الحروف والكلمات متكررةً في كل الكلام وإنما المعتبر بالأغراض والمقاصد...» .[4]

ومن المعلوم أنه هناك مواضيع مكررة في القرآن الكريم، هي موضوعات العقيدة بمفرداتها الستة، وهي: الإيمان بالله، واليوم الأخر، والملائكة والكتاب، والنبيين. والقدر خيره وشره وكذلك قصص الأنبياء، وقصة آدم ـ عليه السّلام ـ والشيطان ،وأخلاقيات الإيمان،وأيضاً الجهاد في سبيل الله وطبعاً هذه المواضيع ليست معنية بما يقال عن التّكرار .

وقد اختار أحد الباحثين مصطلح «التردّد» بدلاً من التّكرار م عتمداً على أنّ هذا المصطلح استعمل من قبل عند الزركشي باسم "الترديد" وبيّن أنّ الأوائل فطنوا إلى ما لمصطلح الترديد من ميزات ، تفوق مصطلح التكرار«فليس التردّد مرهوناً وحده بظاهرة التكرار بل التردّد خاصّة أسلوبية ذات همّ تبليغي ... » [5] لكن القضية ليست قضية مصطلح نستبدله بآخر، وإنما هو القيام

---

(1) ـ سورة القصص. الآية :51

(2) ـسورة طه. الآية: 113.

(3)ـ البرهان في علوم القرآن.الزركشي. تح: محمد أبوالفضل إبراهيم.دار المعرفة، بيروت؛1391هـ-1984م.ج3 ص:10.

(4)ـ المغني في أبواب العدل والتوحيد.القاضي عبد الجبار. تح: أمين الخولي،دار الكتاب، مصر،ط1؛ 1960م،ج 16،ص: 400.

(5)ـ التردّد السردي في القرآن الكريم .حبيب مونسي.ديوان المطبوعات الجامعية ،بن عكنون، الجزائر؛2010م ص:31.

بمسح شاملٍ للقرآن الكريم كله، لنتعرف على أوجه الت ردّد أو التكّرار إن وجدت فيه ، مع أن للتّكرار فوائد تعليمية وتربوية وفنّية معروفةٍ .

وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم من أنّه كتاب التربية الذي يجب أن تتربّى عليه هذه الأمة، فإنّ التكرار أمر ضروري والتذكير به مطلو ب، لأن قضية التربية بالنسبة لفردٍ واحدٍ أمرٌ شاقٌ فكيف بالنسبة لدعوة البشرية كلها أن تتربى على هذا القرآن، ومن ثم «تزول عنا غرابة هذه الظاهرة وتصبح بعض حكمتها على الأقل مفهومة لدينا .... ومن ثم نستطيع أن نقدر الهدف التربوي من عملية التِّكرار في القرآن ».[1]

فإذا راعينا الوقت الذي استغرقه تنزّل القرآن، فإن هنالك بعداً زمنياً بين الآية وشبيهتها، وهو ما يستدعي التّركيز على عامل التّكرار بصورة مقصودة، لأنّ القضية خطيرة لا تنتهي عند حدود الدراسة بإيجاد مخرج لها والتّدليل عليها، وإنما هي قضية إيمان أو ضلال، إنها قضية انتفاع من التّكرار،أو عدم الانتفاع منه ومع كل هذا الأمر الهام فقد بيّن بعض العلماء أنّ التّكرار لا يصل إلى حدّ التماثل في القرآن الكريم، كما هو مُشاهدٌ لأول نظرةٍ !.

وقد قدّمت مدرسة التّفسير الحركي تصويبات رائدة لكثير من الآراء ، مسّت جوانب كثيرة في الفكر والاعتقاد،وساهمت في إرساء بعض المفاهيم وتصحيحها، ومن بينها هذه الظاهرة الإعجازية، الّتي ليست تكراراً كما يبدو في أوّل الأمر ، فالتّكرار نادر في القرآن الكريم، وإنما الظّاهرة الحقيقية هي التّشابه الذي يؤدّي إلى التنوّع .

التشابه: كيف؟؟ « تشابه فقط دون تماثل، تشابه كذلك الذي قد يوجد بين الإخوة والأقارب ولكنه ليس تكراراً بحالٍ من الأحوال، إنه مثل ثمار الجنة﴿**كُلّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رّزْقاً قَالُواْ هَـذَا الّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مّطَهّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾[2] فهم حين

[1]_ دراسات قرآنية. محمد قطب ، ص : 245.

[2]_ سورة البقرة. الآية : 25.

يتناولون الثمرة لأول وهلة يقولون هذا الذي رزقنا من قبل فإذا تذوّقوه عرفوا أنه مختلف عنه، يُشبهه ،ولكنه لا يماثله، ومن ثم يعيشون في مذاقات متجددة على الدّوام وإن بدت لأوّل وهلة مكرّرة»[1] .

وهذه المدرسة ليست ترى بسلبية التكرار، فنحن هنا أمام النّص القرآني الكريم ،الذي يرى العلماء أنّ كلّ كلمة بل كلّ حرف فيه له دلالته ، حسب الموضع الذي يرِد فيه ، فهي ترى في "التكرار"إلى جانبه الفنّي في التعبير ، دوره الفعال والناجع في التربية، كما تنظر إليه من جهة أخرى ثالثه على أنه لون بيانيٌ يخرج عن مسمّاه إلى التّنويع و التّشابه،الّذين يتجلّى فيهما الإعجاز، وهذا الذي نحن بصدد الوقوف عليه .

وكان أعظم ما قدّمه_ سيّد_ تلك النّظرة المتفحصة التي قدم لنا بها السّور القرآنية مبيناً أنّ «كلّ سورة من سور القرآن ذات شخصية متفرّدةٍ، وذات ملامح متميّزة، وذات منهج خاصّ وذات أسلوب معيّن وذات مجالٍ متخصّص...وأنا أجد في سور القرآن – تبعا لهذا– وفرة بسبب تنوع النماذج وأنساً بسبب التّعامل الشخصي الوثيق، ومتاعاً بسبب اختلاف الملامح والطباع والاتجا هات والمطالع! »[2]

واصْطحابالسُّورة من أولها إلى آخرها في رحلةٍ متجددة، يسبح في جوانبها ويَغوصُ في أعماقها، ويُطلعنا كل مرّةٍ بالجديد والعجيب، لم يكن مجرّد دراسة تنتهي عند حدود الاكتشاف،وإلا لم كان الإعجاز ؟؟ فلابد من تقوى ومن إيمان يخلف معرفة الإعجاز، فكلما تعّرض للقرآن من جديد ، يعطيه الجديد، وقد بين أن السّور القرآنية من خلال مصاحبته لها الصحبة الطويلة كما كان يعبّر مرارًا، قد أصبح شأنها عنده كالشأن في بني آدم، كلهم إنسان لهم أصْلٌ واحد يتشابهون ولكن لكل واحدٍ صفاته وملامحه الخاصة به .

وكما ربط في مقدمة سورة الأعراف بين السُّوَّر والنّاس في التَّشابه الذي يؤدي إلى التّنويع وهو من الإعجاز، فالبشر يتشابهون ولا يتماثلون والسور تشابه ولا تتماثل رغم الموضوع الواحد، ولكلّ شخصيته الخاصة سورة أو بشرا، فكذلك ربط بين إعجاز القرآن وخلق الإنسان وهو يتعرض لفواتح

[1]_ دراسات قرآنية. محمد قطب. ص :247.

[2]_ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج3، ص : 1243.

البقرة وآل عمران من الحروف المقطعة «وهكذا القرآن حروف وكلمات يصوغ منها البشر كلاماً وأوزاناً ويجعل الله منها قرآنا وفرقاناً. والفرق بين صنع الله من هذه الحروف والكلمات هو الفرق ما بين الجسد الخامد والروح النابض. هو الفرق ما بين صورة الحياة وحقيقة الحياة .»[1] ومن ثم لم يقل بالتّكرار لا في سور القرآن ولا في صور الإنسان إنما هو التشابه والتنويع .

فالموضوع الواحد مثلاً من مواضيع العقيدة، يعرض مرارًا بتنوعاتٍ مختلفة، وكل مرّة نجده في ثوب غير الذي رأيناه فيه من قبل، هذا بالنسبة لطريقة العرض، أما في طريقة التلاوة التي يكرّر بها القرآن كل مرّة، ويقرأ صباح مساء ، فإن في ذلك عجباً ما بعده عجبٌ، واسأل أهل القرآن الذين يجدون في كل مرّةٍ متجدَّدًا على الدوام .

ولما قرّر سيد قطب القاعدة السليمة وهي : أن لكل سورةٍ شخصيتها المتميزة وجوّها الخاص فلم يكن يتكلم من فراغ !! أو يلقي الكلام على عواهنه، وإنما كان يؤكد على قضية أن لا تكرار ، فكل آية أو نصٍّ وإن بدا متشابها لآخر فإنه يتبع السورة التي ورد فيها ويأخذ من ملامحها وجوّها الخاص ،ويخضع لموضوعها العام .

ترى النّصين متشابهين في سورتين مختلفتين، وقد يتحدّان في الموضوع ،غير أنهما مختلفان ملمحاً ودلالة !! وهذا هو الإعجاز، فللموضوع الواحد يُعرض مرارًا وفي كل مرةٍ له ذوق خاصٌ به ﴿**اللّهُ نَزّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مّتَشَابِهاً مّثَانِيَ تَقْشَعِرّ مِنْهُ جُلُودُ الّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبّهُمْ ثُمّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىَ ذِكْرِ اللّهِ ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَاد**﴾ .[2]

1 النموذج الأول : من سورتي البقرة و إبراهيم

فعند الآية من سورة البقرة ﴿ **وَإِذْ نَجّيْنَاكُم مّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلآءٌ مّن رّبّكُمْ عَظِيمٌ**﴾[3]

---

[1]_ في ظلال القرآن.سيد قطب. ج 1، ص : 38..

[2]_ سورة الزمر. الآية : 23..

[3]_ سورة البقرة. الآية : 49.

والآية الأخرى من سورة ابراهيم ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىَ لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ وَيُذَبّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلآءٌ مّن رّبّكُمْ عَظِيمٌ**﴾[1]

قد يبدو أنّ النّصين متماثلان غير أنهما متشابهان فقط، في الآية الأولى الخطاب من الله تبارك وتعالى إلى بني إسرائيل، يذكّرهم بنعمه عليهم ويمنّ عليهم بأن نجاهم من آل فرعون الذين يسومونهم سوء العذاب.

والآية الثّانية خطابٌ من موسى ـعليه السّلامـ إلى قومه، يذكّرهم بنعمة الله عليهم وخاصّة نعمة إنجائهم من آل فرعون يسومونهم سوء العذاب، كذلك هناك اختلاف في صيغة الفعل(نجّيناكم وأنجيناكم) الأوّل متعدٍّ بالتّضعيف والثّاني بالهمزة، والأول بضمير المتكلم والثّاني بضمير الغائب،ولكن جزأي الآيتين الأخيرتين، يبدو عليهما التطابق والتماثل إلا من حرفٍ واحدٍ هو حرف الواو انظر:كيف وُجد التشابه لا التكرار.

﴿منْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلآءٌ مّن رّبّكُمْ عَظِيمٌ﴾

﴿منْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ **(و)** يُذَبّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلآءٌ من رّبّكُمْ عَظِيمٌ﴾

حرفٌ واحدٌ أحدث تغييراً في الصّورة بكاملها، وأضاء المشهدين فظهر الاختلافُ جلياً فيما بينهما إنّه حرف الواو الذي في الآية الثانية من سورة ابراهيم قبل الفعل يُذبِّحون، ففي «الصّورة الأولى ينحصر العذاب في قتل الأولاد واستحياء النساء وفي الصورة الثانية، يصبح هذا الأمر واحداً فقط من ألوان العذاب التي تُصبّ على بني اسرائيل، وإن كان السياق يوحي بأنه من أبرزها وأشدها وأخبثها،إذ أجمل سوء العذاب وفصل قتل الأولاد واستحياء النساء »[2] .

---

[1]ـ سورة إبراهيم. الآية : 6.

[2]ـ لا يأتون بمثله. محمد قطب. دار الشروق، القاهرة، ط1؛1422هـ-2002م. ص: 12.

هذا بالإضافة إلى ارتباط كل آية بجوّ السورة وبالمحور الذي تعالجه، وهو ما ينفي فكرة التكرار التي تظهر بادي النظّر المتسرّع، ويحيل إلى التشابه المؤدّي إلى التّنويع ، المفضي إلى الإعجاز ويتجلّى التّشابه لا التّماثل بكثرة في قصص الأنبياء ،وفي مشاهد القيامة، وفي الآيات التي تدل على القدرة الربّانية العظيمة التي لاحدّ لها .

2 **النموذج الثاني** : من سورتي النحل وفاطر

قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ **فِيهِ** وِلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]

قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ **فيهِ** مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2]

الآيتان تتشابهان ولا تتماثلان، وفيهما فروقات دقيقة، أبرز العلماء حِكماً منها:

أنّ آية الملائكة قُدّم فيها الظرف(فيه مواخر) على عكس آية النحل التي فيها أخّر و يوجد فيها واو العطف (ولتبتغوا) لأن الابتغاء في فاطر علق بـــ (مواخر) « إيقافا على الغرض من تقديم الظرف، وفي آية النحل ذُكر المَخْر في عداد الامتنان ... فلما أُريد الانتقال إلى غرض آخر وهو العود إلى الامتنان بالمخر لنعمة التجارة في البحر عطف المغاير في الغرض»[3]

وجاء بناء الآيتين الكريمتين بهذا الشكل المثير للانتباه « فآية النحل بنيت على تأخير المجرورات عما تعلقت به، وجرى الكلام جريًا واحدًا للتناسب والتشاكل، " فقيل لتأكلوا منه " و"تستخرجوا منه" و "مواخر فيه "...»[4] أما آية (فاطر) فَبُنيت على تقديم المجرورات ، فقال: تعالى : (ومِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًا) ،(فِيهِ مَوَاخِرَ) وهو كما ترى من التناسب الذي يُفضي إلى الإعجاز .

بينما يرصد ـ سيد ـ الاختلاف بين الآيتين وينظر إليه من زاوية أخرى ، و ذلك من خلال الموضوع العام الذي تعالجه السورة ، إنّهما ملمحان متشابهان في السّورتين، ولكنّهما مختلفان تبعاً

---

[1] ـ سورة النحل. الآية : 14.

[2] ـ سورة فاطر. الآية : 12.

[3] ـ التحرير والتنوير.محمد الطّاهر بن عاشور. الدار التونسية للنشر، تونس، (دط)، 1984م، ج22 ، ص: 281.

[4] ـ ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتّعطيل في توجيه المتشابه اللّفظ من آي التنزيل. الغرناطي أحمد بن ابراهيم.تح:سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، السعودية، ط 2 ؛ 1428 هـ، 2007م، ص: 146.

لِموضوع كلّ منهما ، فآية النحل وردت في إطار «التوجيه القرآني العالي إلى الجمال، في مظاهر الكون بجانب الضرورة والحاجة، لتتملّى هذا الجمال، وتستمتع به، ولا نحبس أنفاسنا داخل حدود الحاجات».[1]

ولأجل ذلك جيء بالفصل بالظرف وحرف العطف حتى يُتَأمّل الماء ومخرُ السفن فيه، وينعم الإنسان بجمال حركة المخر التي أبدعها الخالق ، والاستمتاع بالجمال كابتغاء الرزق ، كلاهما مقصود في الآية الكريمة ، وذلك للاتصال بالرزّاق البديع ، فالقرآن يدخل إلى النّفس الإنسانية من جميع الجهات ، ويربطها بأسمائه الحسنى .

أما آية فاطر فجاءت في معرض الخلق والتنويع وتسخير هذه المخلوقات للإنسان ، فكل المشاهد المعروضة سِيقت مساق الاستدلال على بطلان الشرك وتقرير حقيقة الربوبية «ولما كان طفوُّ الفلك على الماء حتى لا يغرق فيه، أظهَر في الإستدلال على عظيم الصنع من الذي ذكر من النعمة والامتنان، قُدم ما يدل عليه وهو الظرفية في البحر » .[2]

3 – **النموذج الثالث** : من سورة فاطر الآيتان 27 ـ 28

قال الله تعالى ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ أَنزَلَ مِنَ السّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النّاسِ وَالدّوَآبّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنّمَا يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنّ اللّهَ عَزِيزٌغَفُورٌ**﴾.

هاتان الآيتان تفتحان صفحةً واسعة على الكون، لا يعلمها إلاّ الله في بضع كلماتٍ، حيث تلفتنا لفتةً كونيةً عجيبةً «تطوف في الأرض كلها تتبع فيها الألوان والأصباغ في كل عوالمها في الثمرات والجبال وفي الناس، وفي الدواب والأنعام، لفتةً تجمع في كلماتٍ قلائل بين الأحياء وغير الأحياء في هذه الأرض جميعًا، وتدع القلب مأخوذًا بذلك المعرض الإلهي الجميل الرائع الكبير الذي يشمل

---

[1] ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج4، ص : 2163.

[2] ـ التحرير و التنوير. محمد الطّاهر بن عاشور.ج 22 ، ص : 280.

الأرض»[1]،والقرآن يرتكز على حقائق الكون ،لإثبات الألوهية والرّبوبية ، بل يرتكز أيضا على النّفس الإنسانية وهي طريقته في عرض العقيدة والتعريف بها .

وتشير الآيتان إلى الإختلاف الحادث في الكائنات الثلاثة، الجماد النبات، الإنسان والحيوان وتخص التنوع المعجز في ألوان هذه المخلوقات، تُظْهِرها وتبين أنه لا يستطيعها مخلوق ، ونخلص في مايلي إلى الكلمات التي تتشابه ولا تتماثل :

1)- (فأخرجنا به ثمرات **"مختلفا ألوانها"**)

2)- (ومن الجبال جدد بيض وحمر**"مختلفٌ ألوانها"**)

3)- (ومن الناس والدواب والأنعام**"مختلفٌ ألوانهُ"**)

والإعجاز يتمثل في هذا الاختلاف الواضح في الأشياء التي خلقها الله في الكون كما هي مشهودة، والتي يتبلد الحسُّ عنها بحكم الإلف والعادة، غير أن التعبير القرآني يزيد إعجازا إلى الإعجاز، طبقًا عن طبقٍ، فلا يشير إلى إعجاز الاختلاف الحاصل في دنيا الناس، وإنما يزيد الأمر عجبًا وإعجازًا.

إنّه يعبّر عن الاختلاف بتعبير فيه الاختلاف!! وذلك «بتنويع العبارة الواحدة ثلاث مرات مع كل نوع من أنواع الخلق الثلاثة، الجماد والنبات والحيوان! وهي عبارة واحدة في معناها العام، ولكنها تأخذ شكلاً إعرابيًا جديدًا في كل مرّة» [2] فيطال الاختلاف في الشيء حتى التعبير الذي يصفه ويشير إليه، ألا إنّه الإعجاز !! .

بقي شيءٌ واحدٌ وراء هذا الإعجاز، أن يخرج القلب من هذا التّعبير المعجز الذي يصف ذلك الإعجاز في المعرض الإلهي للألوان والأصباغ ،إلى الخشية والتوبة إلى الله من قريب وبهذه القبسات النّورانية، كان العلماء يلجِون إلى ما ظاهرُه التّكرار في القرآن، ليكشفوا إنْ هو إلا التّشابه والتّنويع من خلال التّدبّر العميق .

---

[1]- في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 5، ص : 2942.

[2]- دراسات قرآنية. محمد قطب.ص : 236.

ب- الإعجاز في الأداء القرآني :

بلغ - سيد قطب- الذروة وهو يقدم لنا الإعجاز في التصوير في كتابة القيم "التصوير الفني في القرآن" تنظيرا وتطبيقاً، وبين لنا أن إدراك سر هذا الوجه من الإعجاز البياني يكمن في استخدام القرآن الطريقة التصويرية في التعبير عن مختلف الأغراض، وهي من الأسباب التي بها وقع الناس تحت تأثير سحر القرآن الحكيم ؛الذي ﴿يَهْدِيَ إِلَى الْحَقّ وَإِلَىَ طَرِيقٍ مّسْتَقِيمٍ﴾ [1]

لقد أشار سيد إلى السرّ العجيب الموجود في القرآن، الذي يجده كل من استمع إليه وذلك قبل أن يبدأ أيّ باحث في البحث عن الإعجاز ، هذا السّر هو شيء قاهر غلاب له سلطان على الفطر والقلوب مؤمنة وكافرة ،عربية وأعجمية، وليس ذلك بعجيب لو يقف إنسان يتدبّر أمره لحظةً واحدةً، إنّه كلام ربّ العالمين.

فكل بشر مهما كان لو خُلي بينه وبين فطرته «يشعر أن هناك شيئًا ما، وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير وأن هناك عنصرًا ما، ينسكب في الحسّ بمجرد الاستماع لهذا القرآن، يدركه بعض الناس واضحًا ويدركه بعض الناس غامضًا، ولكنه على كل حالٍ موجود ،هذا العنصر الذي ينسكب في الحس، يصعب تحديد مصدره : أهو العبارة ذاتها ؟ أهو المعنى الكامن فيها ؟ أهو الصور والظلال التي تُشعها ؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص المتميز من إيقاع سائر القول الموضوع في اللغة ؟ أهي هذه العناصر كلها مجتمعة ؟ أم أنها هي وشيء آخر وراءها غير محدود ؟ ذلك سِرٌّ مودَع في كلّ نص قرآني يشعر به كل من يواجه نصوص هذه القرآن ابتداء، ثم تأتي وراءه الأسرار المدركة بالتدبّر والنّظر والتّفكير في بناء القرآن كله »[2]

ولأمر ما وردت كلمة قرأ بتصريفاتها المختلفة في القرآن سبع عشرة مرةً، ووردت كلمة "تَلَى" بتصريفاتها المختلفة أيضًا أكثر من ستين مرة ،إلا لنستمع إلى ذلك الهدى الموجود في القرآن، والشفاء، والنور الذي به حياة القلوب ذلك السلطان الذي يغمرها ساعة القراءة والتلاوة بفُيُوضَات الطمأنينة ،ونعمة الاهتداء « فالقراءة والتلاوة مصدران يمتدان بآفاقهما لوضع الإطار العام الذي يضبط منهج

---

[1]- سورة الأحقاف. الآية : 30.

[2]- في ظلال القرآن.سيد قطب.ج 6، ص: 3399. وانظر: ج 3،ص: 1786 ، وج6، ص: 3421.

التعامل مع القرآن، عن طريق بيان الأسس المعيارية للقراءة من حيث خصائصها وشروطها المنهجية»[1] ولا شكّ أن الذين يقرأون كتاب الله ويتلونه حق تلاوته آناء الليل وأطراف النهار كانوا يدركون هذا السرّ ويحبون أن يستمعوا إليه فتقشعر جلودهم و تفيض أعينهم دمعاً من تأثيره .

وإذا كان القرآن كله إعجاز في تعبيره ومضامينه ويتميز بظاهرة " التناسق " أو عدم الاختلاف، كما يقول المولى عز وجل : ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً**﴾[2] فان عدم الاختلاف في دقة التصوير وإجادة التعبير من أظهر الإعجاز فيه ، وكان للقدامى النّصيب الأوفر في الوقوف على أسرار التعبير القرآني عمومًا من الحرف فالمفردة، فالسورة ثمّ إلى القرآن كله .

ومسألة الإعجاز في الأداء التعبيري كانت قد أ فحمت العرب الأَقْحَاح ولو كان قد دار في خلدهم شيءٌ لقالوه، وأن«كتاب الله لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب في أن يوجِد أحسن منها لم يوجِد ،ونحن تَبينُ لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهُها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذٍ، في سلامة الذّوق وجودة القريحة وميْز الكلام »[3].

ومن بين وقفات المحدثين ما أشار إليه ـ سيد قطب ـ الذي زاول فنّ الشّعور وفنّ التّعبير وكان خبيرًا بالأداء الفني، والبناء التّعبيري فلاحظ أنّ «في كلام البشر تبدوا القمم والسّفوح، التّوفيق والتعثّر، القوّة والضّعف، التّحليق والهبوط، الرّفرفة والثقلة، الإشراق والانطفاء، إلى آخر هذه الظواهر التي تتجلى معها سمات البشر ... والتي يبدوا فيها الوسْم البشري واضحا وهو التغيرُّ والاختلاف»[4]

وبعد أن قرر القاعدة العامّة أن التعبير القرآني يعلو ولا يعلى عليه وأنه مباين لكلام الخلق ولو اجتمعوا له، أشار إلى ثلاثة جوانب للإعجاز في الأداء القرآني وهي كالتالي :

1 ـ الدقة المعجزة في الأداء والتناسق الفني في التعبير .

---

[1]ـ " القرآن بين أفاق القراءة والتلاوة". زياد خليل محمد الدغامين . مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية ،الكويت ،عدد 37 ؛ ذو الحجة 1419هـ- 1999م. ص : 57.

[2]ـ سورة النساء. الآية : 82.

[3]ـ المحررالوجيزفي تفسيرا لكتاب العزيز.ابن عطية الأندلسي. تح:المجلس العلمي ، المغرب،ط2؛1403هـ ج1،ص: 38، 39.

[4]ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 2، ص : 721.

2 ـ تنّوع مدلولات النّص القرآني وتناسقها .

3 ـ استحياء المشاهد واستحضارها.

ونتناول الجانب الثالث في الإعجاز الخاص بالأداء التعبيري ؛ وهو استحياء المشاه د واستحضارها، فهناك طرُق يستعملها التعبير القرآني من جهة الأداء، تترك المشاهد والمناظر المعروضة، دائمة الحياة، وذلك بالانتقال المفاجئ من حالة إلى أُ خرى، من الغيبة إلى الحضور أو من الحكاية إلى الخطاب، أو بالحذف، وكلها التفاتات نّبه إليها القدماء ،ولكن الشّيء الذي امتاز به ـسيدـ هو روعة التطبيق ووضع اليد على الجانب الفني والجمالي في بيان الإعجاز في الأداء.

والتّعبير من جهة الأداء معجز، لقدرة الموجودة فيه على استحضار المشاهد حية حاضرةً، «بطريقة ليست معهودة على الإطلاق في كلام البشر، ولا يملك الأداء البشري تقليدها لأنّه يبدو في هذه الحالة مضطرباً غير مستقيم مع أسلوب الكتابة »[1]،واستحياء المشاهد هاته ، غير الحياة في المشهد، فهذه الأخيرة هي الحياة تُخلع على الجوامد وتكون حياة شاخصة تشبه حياة البشر، أما استحياء المشاهد ماضية أو مستقبلية، و كذلك المناظر المعروضة فاستحياؤها ؛هو وقوعها اللحظة واستحضارها بتلك الطّرق التي ذكرت سابقًا.

فعند قوله تعالى ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبّنَا تَقَبّلْ مِنّآ إِنّكَ أَنتَ السّمِيعُ الْعَلِيم رَبّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرّيّتِنَآ أُمّةً مّسْلِمَةً لّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنّكَ أَنتَ التّوّابُ الرّحِيمُ**﴾[2]

بيّن- سيد- سر الإعجاز في حذف كلمة "يقولان" هذا الحذف الذي أحدث المفاجأة بتحويل الخبر من الحكاية إلى الحضور، « فالتعبير يبدأ بصيغة الخبر حكاية تُحكى :(**وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل**) وبينما نحن في انتظار بقية الخبر إذا بالسياق يكشف لنا عنهما ويرينا إيّاهما، كما لو كانت رؤية العين لا رؤيا الخيال، إنهما أمامنا حاضران، نكاد نسمع صوتيهما يبتهلان ... فنغمة الدعاء، وموسيقى الدعاء وجو الدعاء كله حاضر، كأنها تقع اللحظة حية شاخصةً متحركةً، وتلك

[1]ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 3، ص : 1787.

[2]ـ سورة البقرة. الآيتان : 127 ، 128.

إحدى خصائص التعبير القرآني الجميل، ردّ المشهد الغائب الذاهب حاضرًا يُسمع ويُرى، ويتحرك ويَشخص وتفيض منه الحياة ، إنّها خصّيصة " التّصوير الفني " بمعناه الصّدق اللائق بالكتاب الخالد.» [1] فكلمة "يقولان" المحذوفة مقدرةً في السياق، ولكن تقديرها وعدم إظهارها في السيّاق زاد من قوة المعنى، وشدّ انتباه المتلقي ودفع به إلى الاستمتاع بحركة النبيّين -عليها السلام -وهما يبنيان ويدعوّان لنفسيهما ،ولمن بعدهما من الذرّية المسلمة.

وأحياناً يظهر سرّ الإعجاز بهذه الالتفاتات الكثيرة التي تتوزّع بين الحذف والحكاية والخطاب والتّقرير ،والتي تظهر في هذه الآيات الأربع التّالية :

قال تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَامَعْشَرَ الْجِنّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مّنَ الإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مّنَ الإِنْسِ رَبّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا الّذِيَ أَجّلْتَ لَنَا قَالَ :النّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَآ إِلاّ مَا شَآءَ اللّهُ إِنّ رَبّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ،وَكَذَلِكَ نُوَلّي بَعْضَ الظّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ يَامَعْشَرَ الْجِنّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مّنْكُمْ يَقُصّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـــذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىَ أَنْفُسنَا وَغَرّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىَ أَنْفُسِهِمْ أَنّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ ذَلِكَ أَن لّمْ يَكُنْ رّبّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىَ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ**﴾[2].

تتّكلم الآيات عن مشهد من مشاهد القيّامة الذي يجعله التّعبير بالتّصوير حاضرًا وأنه ماثل اللّحظة أمامنا ،وأن الدّنيا ماضٍ سحيقٍ، ولكن الالتفاتات التي تُحيي المشهد تتكرّر بصورةٍ فريدة تشدّك حقًا، وتبدأ بحذف كلمة " يقول " المقدّرة بعد قوله تعالى (**وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا**) فهنا التفت الأداء في التّعبير القرآني التفاتات مدهشة ومتنوعة،هذه الالتفاتات هي المعول عليها في إحياء المشهد وجعله واقعة مرئية،يعتبر المتلقّي طرفاً فيها.

ففي هذه الآيات نجد التعبير التفت« من الحكاية إلى الخطاب، ثم التفت من الخطاب إلى الحكايةِ ثم من الحكاية إلى الخطاب ثانية، ثم من الخطاب إلى الحكاية، ثم من الحكاية إلى التقرير،ثم من التقرير

[1]_ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 1، ص : 114.

[2]_ سورة الأنعام .الآيات:128 حتّى131.

إلى الخطاب، ثم من الخطاب إلى الحكاية، ثم من الحكاية إلى التقرير.» [1]وهذا كلّه داخل مشهد فيه الحوار والتّأنيب والنّدم على ما فات في صورة مملوءةٍ بالحياة والحركة،وتحسّ من حيث تشعر أو لا تشعر كأن طرفا ما يحادثك ، وأنت معنيٌ بهذا الحديث .

وعند قوله تعالى:﴿ **قَلْ أيّ شيئ أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنّكم لتشهدون أنّ مع الله آلهة أخرى قل لاأشهد قل إنّما هو إله واحد وإنّني بريء ممّا تشركون** ﴾ [2]

بيّن_سيد قطب _ الإعجاز في الأداء والمتمثّل في الالتفاتات المتكرّرة بين الحضور والغيّاب والّتي ساهمت في استحضار المشاهد و التّعبير المباشر « (قَلْ أيّ شيئ أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) وإلى هنا أمر يتوجّه ورسولٌ يتلقّى ...ثمّ فجأةً نجد الرّسول يسأل القوم (أئنّكم لتشهدون أنّ مع الله آلهة أخرى ؟؟) وإذا به يعود للتّلقّي في شأن هذا الّذي سأل عنه قومه _ وأجابوه! _ (**لاأشهد قل إنّما هو إله واحد وإنّني بريء ممّا تشركون**).. »[3]

وعند قوله تعالى: ﴿**ولو أنّ قرآنا سيّرت به الجبال أو قطّعت به الأرض أو كلّم به الموتى بل لله الأمر جميعا...** ﴾ [4]

نجد أنّ الآية الكريمة تردّ على المشركين الذين كانو ا يصرّون على الخوارق المادّية و تشير في الوقت نفسه إلى أنّ القرآن هو الآية المعجزة للرّسول =صلّى الله عليه وسلّم _كما تبيّن طلاقة المشيئة الرّ بّانية في أنّ الله هوا لذ ي يختار « نوع المعجزة التي يترّلها على رسوله ، إن كانت حسّية أو معنوية وليس للبشر جميعا – بما فيهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم–أن يقترح على الله صورة معيّنة للمعجزة والله _سبحانه_ أعلم بما يريد : ﴿**والله أعلم بما يُترّل** ﴾» [5] .

---

[1]_ نظرية التصوير الفني عند سيد قطب. الخالدي صلاح عبد الفتاح. ص: 300.

[2]– سورة الأنعام. الآية: 19.

[3]– في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 3، ص : 1787.

[4])– سورة الّرعد. من الآية: 31.

[5]_ دراسات قرآنية .محمّد قطب. ص:180

والحذف المقدّر في الآية،كأنّه قال :لو أنّ قرآنا يمكن أن تُسيّر به الجبال أو تُقطّع به الأرض أو يُكلّم به الموتى لكان هذا القرآن،ولكنّ القرآن الكريم ضرب صفحا عن هذا الجواب المباشر وعدل به إلى الحذف الذي جعل الأداء القرآني يفيض بالإعجاز، وأدرك الكفّار وقتها أنّ هذا القرآن العجيب ليس من شأنه تحريك الحسّيات وإنزال الخوارق حسب ما يشتهون ،بل جاء لخطاب المكلّفين الأحياء.

ولكنّ الذين تلقوا القرآن الكريم أوّل مرّة « سيّروا ما هو أضخم من الجبال ،وهو تاريخ الأمم والأجيال ،وقطعوا ما هو أصلب من الأرض ، وهو جمود الأفكار وجمود التّقاليد ،وأحيوا ما هو أخمد من الموتى، وهو الشّعوب التي قتل روحها الطّغيان والأوهام ، والتّحوّل الذي تمّ في نفوس العرب وحياتهم فنقلهم تلك النّقلة الضّخمة ،دون أسباب ظاهرة إلا فعل هذا الكتاب ومنهجه في النّفوس والحياة ، أضخم بكثير من تحوّل الجبال عن رسوخها،وتحوّل الأرض عن جمودها ، وتحوّل الموتى عن الموات!!. » [1]

وسيد قطب أحد رجلين من المحدَثين، كانا قد ضربا بسهْمٍ وافر في هذا الجانب من الإعجاز في الأداء، وأبدعا فيه أيما إبداع، وذلك لإنعامها بحاسةٍ فنية عاليةٍ وتوفيق من الله ، و الرجل الثاني هو الدكتور : " محمد عبد الله دراز" (*)، وهذا نموذج نورد رأيه فيه، لنبين أن الرجلين كانا قريبين من مرمىً واحدٍ .

قال الله تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنْزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَآءَهُ وَهُوَ الْحَقّ مُصَدّقاً لّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مّؤْمِنِينَ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ مّوسَىَ بِالْبَيّنَاتِ ثُمّ اتّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطّورَ خُذُواْ مَآ آتَيْنَاكُم بِقُوّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مّؤْمِنِينَ**﴾[2]

---

(1)- في ظلال القرآن. سيد قطب.ج4 ،ص:2061.

(*)- ولدسنة 1894م، 1312هـ أبوه شيخ علماء دمياط،وصاحب الشرح على الموافقات للشاطبي،من مؤلّفاته:"دستور الأخلاق في القرآن"و"المدخل في القرآن"، نال بهما الدّكتوراه باللّغة الفرنسية في السوربون ،وهو خرّيج الأزهر، عرف بحسن الخلق والجرأة في الحق، توفي ـ رحمه الله ـ ببكستان؛في يناير 1958م أثناء حضوره المؤتمر الإسلامي .

(2)- سورة البقرة. الآية : 91 إلى 93.

هذه الآيات تحكي عن ناصحٍ ينصح اليهود فيدعوهم إلى الإيمان بالقرآن، فيجيبونه بجوابٍ ينطوي على مقاصد سيئة، ثم يأتي الردّ في غضون ذلك من الله الخبير ليعرِّيهم ويكشف نواياهم بأنهم المجرمون الحقيقيون، و الأداء القرآني المعجز الذي يُوقفنا عليه ـ الدكتور دراز ـ والذي يستعمل كما قلنا سلفًا طريقة الحذف والالتفاتات المتكررة هو الذي يثير أحاسيسنا ويشد انتباهنا ويزيدنا إيمانًا .

قال : الناصح لليهود آمنوا بالقرآن كما آمنتم بالتوراة التي جاء بها موسى لأن الله مُنزّلهما جميعاً ، فالقرآن الذي جاء به محمد أنزله الله كما أنزل التّوراة سابقاً ، فآمنوا به كما آمنتم بها، «فانظر كيف جمع القرآن هذا المعنى الكـــثير في اللفظ الوجيز (**آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ الله**) وسرّ ذلك أنّه عدل بالكلام عن صريح اسم القرآن إلى كنايته، فجعل دعاءهم إلى الإيمان به دعاءً إلى الشيء بحجته، وبذلك أخرج الدليل والدعوة في لفظ واحدٍ، ثم أنظر كيف طوى ذكر المنزّل عليه، فلم يقل آمنوا بما أنزل الله (على محمد) صلى الله عليه وسلم، مع أن هذا جزءٌ متمم لوصف القرآن المقصود بالدعوة، أتدري لم ذلك ؟ لأنه لوذ كر لكان في نظر الحكمة البيانية زائدًا، وفي نظر الحكمة الإرشادية مفسدًا»[1] .

وفي الحذف المقدر الذي في آمنوا بما أنزلَ الله (القرآن على محمد) إشارة إلى طابع الإسلام، وطابع هاته الأمة التي تؤمن بجميع الأديان والكتب السماوية ،ولا تفرق بين الرسل ،وتعتبر الرّسل –عليهم السّلام–إخوة، أرسلهم الله لهداية البشرية وإخراجها من ظلمات شتّى، منها ظلمات الحقد الّتي دأب اليهود على استطابتها .

وكانت إجابة اليهود فيها الخبث المبيت تأتي هكذا: (**نؤمن بما أنزل علينا**) أي إيماننا بالتوراة ليس كونها مُنزّلها الله فحسب، ولكنها أيضًا منزلة علينا !! فيكون المكر في إجابتهم أن القرآن لم ينزل علينا فلا نؤمن به، «ولكنهم تحاشوا التصريح لما فيه شناعة التسجيل على أنفسهم بالكفر، فأراد القرآن أن يبرزه، أنظر كيف أبرزه ؟ انه لم يجعل لازم مذهبهم مذهبًا لهم، و لم يدخل مضمون قولهم في جملة ما نقله من كلامهم، بل أخرجه في معرض الشرح والتعليق على مقالتهم فقال :(**ويكفرون**

---

[1]ـ النبأالعظيم نظرات جديدة في القرآن ، دراز محمد عبد الله .دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض،ط1؛1417هـ 1997م. ص :150.

بما وراءه) أليس ذلك هوغاية الأمانة في النقل !... وحدّد الجريمة تمام التّحديد باستعمال هذا اللّفظ الجامع المانع ...» [1] ثم جاء بقيّة الردّ كما تفصله الآيات.

هذه الالتفاتات المتكررة الّتي يقدّمها الأداء التعبيري المعجز للقرآن الكريم، كانت قد هزّت ـسيد قطبـ وهو يصحب القرآن منبهراً بالمشاهد الّتي يعرضها قائلا: « أمّا أنا فنسيت نفسي،ونسيت أنّي أستعرض هذه المشاهد في ثوبها الفنّي؛ وحسبتني أشهدها في الواقع لا في الخيال ، وذلك أثر الإعجاز في العرض والتّشخيص ،وهو إعجاز يزيد قيمته أنّه ـكما قلت مراراًـ يعتمد على الألفاظ وحدها في هذا التصوير. » [2]

بهذه الطرق من الحذف والالتفاتات المتكررة بين الحضور والغياب وغيرها، كانت المشاهد حية حاضرة مرئية أمامنا، وكأنّ هذه الطرق هي بمثابة المصابيح التي تنير المشهد وتَكْشِفُه لنا نحن النظّارة المتلقّين للخطاب القرآني، وذلك بعد أن وقعت هاته المشاهد بمئات القرون، أو في رحم الغيب لم تقع بعد، وهذا هو الأداء القرآني المعجز الذي يُبهر العقول ويُثوِّر الوجدان والذي لا يستطيعه بشر.

---

[1] ـ النّبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن . دراز محمد عبد الله . ص : 151.

[2] ـ التصوير الفني في القرآن. سيد قطب.ص:66.

• المبحث الثاني: ألوان أخرى من الإعجاز.

يرى بعض الباحثين أنّ الإعجاز البياني المُتحدّى به منذ وقت نزول القرآن، يبقى هو الإعجاز الوحيد، الذي تنطبق عليه كلمة«الإعجاز»، بينما تتصرف كلمة «دلائل» إلى المضامين التي يحملها القرآن لتدلّ على ربانية المصدر، والدليل الذي يقطع بأن الإعجاز كان بيانيًا صِرفًا بنظمه وبيانه لا بشيء خارج عن ذلك، هو أن المولى عز وجل طالب العرب بأن يأتوا بالسوّر العشر مفتريا ت ؛ أي لا تحمل مضامين علمية ولا غيبية ولا بمعاني أخرى فقال: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[1] فكان الإعجاز مقرونا بالتحدّي منصرفًا إلى النظم والبيان، دون الإتيان بالمضامين.

بينما يرى الفريق الآخر من العلماء أن الحقائق العلمية والنبوءات الغيبية التي تحّققت في عصرنا الحاضر، ألوانٌ أخرى من الأعجاز تُسهم في الدعوة إلى الإسلام، وإقامة الدليل على صدق القرآن والنّبوة الخاتمة، فيكون إعجاز المضامين، إعجازًا يخاطب العرب والعجم والمشكل الذي يواجه هؤلاء هو في استقرار المصطلح «فما هو مصير الإعجاز في الآيات التي أدركنا مدلولها العلمي، أو انكشف لنا تفسيرها أو حقيقة معناها ؟ هل نقول إن الله تعالى تحدانا بمعرفة هذه العلوم فعرفناها ؟ وفي هده الحال لا يكون القرآن قد حقق أكثر من السبق الزماني وهو سبقٌ زماني عظيم حقا . لكن السؤال الذي يطرح نفسه في هذه الحال هو : هل الإعجاز يكمن في السبق أم في التفرّدِ ؟ ونعني بالطبع التفرّد الذي لا يستطيعه أو يقدر عليه أحد ! لأن هذا هو معنى الإعجاز»[2] وعليه تكون ألوان الإعجاز التي تُعرف اليوم خارجة عن مُسمّى الإعجاز.

وغير خافٍ أَنَ هذه الأنواع من الإعجاز في مجملها –والتي تحقق بعضها اليوم – إن هي إلا قوانين وسنن تضبط حياة الإنسان والكون، أشار إليها القرآن الكريم، ووكّلَ العقل الإنساني بالبحث عنها، و من المعلوم أنه «من أصول التفسير المسلَّمةِ لا يجوز تفسير القرآن باصطلاح حادثٍ بعد نزوله ؛لأن للقرآن عرف خاص، ومعاني معهودة، لاينا سب تفسيره بغيرها... ولا يجوز تفسيره إلا بعرفه

---

[1]- سورة هود. الآية: 13 .

[2]- علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه. د : زرزور محمد عدنان. ص : 394 ، 395.

والمعهود من معانيه، فان نسبة معانيه إلى المعاني كنسبة ألفاظه إلى الألفاظ بل أعظم !»[1] فيكون البحث عن أنواع أخرى من الإعجاز لا يعدوا في البحث عن المطابقة بين الإشارات القرآنية و كشوفات السنن الكونية في العصر الحديث .

والقراءة المعاصرة تجد في التفسيرات العلمية التي تبحث عن الإعجاز ضالتها، فتطل علينا باسم اللحاق بالركب الحضاري بما لا يحمد عقباه، من ليٍّ للنصوص،وافتراءٍ على الله بغير علم« وليس بدعا أن نقول إن الدّراسات القرآنية وعلم التّفسير تحديداً أضحى منذ عقود مجالاً " لتخصيب"كل جديد أو قديم يظهر في ميدان ما يصطلح عليه ((بالعلوم الإنسانية)) .[2]

وسيد- كما سبق- من القائلين بالإعجاز المطلق ، لكنه لا يعلق أهمّيةً على الكشوفات العلمية وحتى اليقينيات منها، بل حذر من الجري وراء هذا المسلك، و كان جلُّ همّه منصرفًا إلى الإعجاز البياني وما يتفرع منه، ولكنه لم يمنع من الإشارة إلى أنواع أخرى من الإعجاز التي يرى فيها الى جانب السبق عدم الاستطاعة ، كالإعجاز الموضوعي والإعجاز في التشريع، وغير ذلك ممّا هو موجودٌ في الظلال.

أ-الإعجاز التربوي :

الإعجاز التربوي هو أظهر ألوان الإعجاز عندما ننظر إلى الأثر الذي خلّفه القرآن الكريم في واقع الأمة الإسلامية، وأشد ما يكون واضحًا في رؤيةِ الجيل القرآني الفريد؛ جيل الصحابة الكرام، الذي تربى على نصوص القرآن، فكان تُرجمة له في كل توجيه من توجيهاته «ونستطيع في كلمة مختصرة أن نقول إن الإعجاز التربوي في كتاب الله هو الذي أخرج من القبائل المتناحرة في الجزيرة العربية (أمّةً) لأول مرةٍ في تاريخها، وليس أي أمّةٍ ،وإنما خير أمةٍ أخرجت للناس!».[3]

---

[1]- بدائع الفوائد.ابن قيم الجوزية.(تح)علي بن محمد العمران، دارعلم الفوائد للنشر والتوزيع، السعودية (د ت) ج1.ص: 877.

[2]- "القرآن الكريم ومناهج تحليل الخطاب".عبد الرّزاق هرماس .جامعة قطر،حولية كليةِ الشر يعه والقانون والدّراسات الإسلامية ،عدد19 ؛ 1422هـ ، ص : 23.

[3]- لا يأتون بمثله. محمد قطب. دار الشروق، القاهرة، ط1؛1422هـ، 2002م. ص : 95.

وكلّما عاد الناس إلى القرآن وتربّو عليه وملأوا حياتهم به واستجابوا لندائه مثلما حدث في الصّورة التّطبيقية التي قدمها الجيل الأول، فانه تحدث المعجزة من جديد،لأن القرآن كله ضروب من الإعجاز،والإعجاز فيه متجدد على الدوام، كيف لا وهو كلام رب العالمين.

وإذا كان الإعجاز البياني، يُقصد به تحدّي ال ذين ينكرون،والذين في قلوبهم مرض وإقامة الحجة عليهم ليعلموا سواءٌ جحدوا أو أقرّوا أن القرآن كلام الله وأن محمدًا رسول الله ؛ يعني صدق الرسالة وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم فإنّه يحمل هدفًا آخر غير الهدف الأول : وهو دعوة النّاس إلى هذا الدّين ، والإيمان به .

ولّما يستجيبوا لِله ويدخلوا في دين الله أفواجاً ويؤمنوا الإيمان الحق، يكون الإعجاز التربوي قد بدأ،وذلك بالتّربية على المفاهيم الإسلامية وتعميقها في القلب، فينشأ إنسان غير الذي كان قبل إسلامه ،ولن يكون إلاّ بمنهج التّربية الإسلامية «وهكذا يكون الإعجاز البياني هدفًا في ذاته وفي الوقت ذاته وسيلة تحمل ألوانًا أخرى من الإعجاز» [1] كالإعجاز العلمي والموضوعي، والنّفسي، والتّشريعي، وغيرها من الوجوه التي تبهر العقول والتي تحمل في مضامينها حقائق الإعجاز في الآفاق والأنفس والتي تحدث عنها القرآن الكريم ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِيَ أَنفُسِهِمْ حَتّىَ يَتَبَيّنَ لَهُمْ أَنّهُ الْحَقّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبّكَ أَنّهُ عَلَىَ كُلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾[2]

والذي يعزّز حاجة أنواع الإعجاز الأخرى، ويجعلها ضرورة مُلحةً، هو انْحِدار السّليقة العربية عما كانت عليه الأجيال السابقة، ومن جهة أخرى التّقارب بين النّاس الذي نشأ نتيجة التقدّم العلمي والتّكنولوجي ، والذي جعل العالم كأنه يقف على صعيد واحد، والكّل يعرض بضاعته، «فالذي ينظر إلى الإعجاز اليوم في صورته البيانية فقط ،قد يُفوِّتُ على نفسه فرصة الاستفادة من أوجه الإعجاز الأخرى التي لا تقل أهميةً عن الوجه البلاغي والتعبيري» [3] ومن ثم يكون القرآن الكريم كله معجز ليس بأسلوبه فحسب ولكن معجزٌ بمضامينه أيضًا .

---

[1]- لا يأتون بمثله. محمد قطب. ص : 36.

[2]-سورة فصلت. الآية : 53.

[3]- «قضية إعجاز القرآن عند مالك بن نبي».بن عيسى بطاهر. عالم الفكر، الكويت؛ 2002م، (العدد2)، ص: 28.

والإعجاز التربوي هو الذي تحقق بالفعل وبشهادة التاريخ في إنشاء أمةٍ موحدةٍ كانت تملك كل مقومات التوحد من وحدة الأرض ووحدة اللسان ووحدة المصير المشترك وغيرها ولكنها بقيت فينطاق الثارات القبلية المستمرة، والاهتمامات الصغيرة التي لا ترقى إلى أفق اقتصادي واجتماعي أوسياسي .

ولّما جاء الإسلام رفع هذه القبائل المتناحرة المفكّكة إلى القمّة،وجعل منهم في فترة وجيزة "أمّة"! «إن هذه القفزة السّريعة المدهشة في سلّم الحضارة التي قفزها أبناء الصحراء والتي بدأت من اللّاشيء لهي ظاهرة جديدة بالاعتبار في تاريخ الفكر الإنساني، وإن انتصاراهم العلمية المتلاحقة التي جعلت منهم سادة الشّعوب المتحضّرة في هذا العصر لَفريدة في نوعها لدرجةٍ تجعلها أعظم من أن تُقارن بغيرها، وتدعونا هنا أن نقف هنيهةً متأملين، كيف حدث هذا؟ وكيف أمكن لشعب لم يمثل من قبل دورًا حضاريًا أو سياسيا يُذكر، أن يقف مع الإغريق في فترةٍ وجيزةٍ على قدم المساواة ؟ »[1]

والحيرة التي أرّقت المستشرقة الكبيرة،وتؤرّق غيرها وخصوصا أدعيّاء الثّقافة؛هي عدم إدراك المنهج الّذي فيه الكفاء والغناء، والّذي فيه التّفسير الصّحيح لحياة الإنسان على هذه الأرض ومن ثمّ «يأخذهم الدّهش والعجب للنّقلة الهائلة التي انتقل إليها العرب في خلال ربع قرن من الزّمان على عهد الرّسالة المحمّدية ،وهي فترة لا تكفي إطلاقاً لحدوث تطوّر فجائي في الأوضاع الاقتصادية سيرتفع عنهم الدّهش ويزول العجب،لوأنّهم حوّلو انتباههم من البحث في العوامل الاقتصادية؛ليبحثوا عن السّر في هذا المنهج الرّباني الجديد،الذي جاءهم به محمّد ـ صلى الله عليه وسلّم ـ من عند الله العليم الخبير،ففي هذا المنهج تكمن المعجزة ،وفي هذا المنهج يكمن السّر الذي يبحثون عنه طويلا عند الإله الزّائف الذي أقامته المادية حديثاً..إله الإقتصاد» .[2]

إذن: الإجابة الشافية، هي التّربية على نصوص القرآن ففيه العناصر التي تحقق المعجزات ومتى ما استقام فردٌ أوجماعةٌ حسب توجيهات القرآن حدث ما يُحيِّر العقول ويعجز النفوس، وهي فوق ذلك منّةٌ من الله وكرمٌ منه أن يَجري هذه المعجزات من خلال عباده المصطفين الذين استجابوا لديرة.

---

[1]-شمس العرب تسطع على الغرب.زيغريد هونكه.تر: فاروق بيضون وكمال دسوقي .دار الأفاق الجديد، بيروت، ط5 ؛1401هـ-1981م،ص: 354.

[2]- في ظلال القرآن .سيد قطب .ج2 ص:1046.

فعند قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَآءً فَأَلّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مّنَ النّارِ فَأَنقَذَكُمْ مّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1] ، هنا نلاحظ كيف صنع القرآن العرب وجعل لهم ذكرا على الدّوام ، بخلاف القيم الأرضية التي كثيرًا ما تجمع الأبدان داخل الأوطان، و لا تملك مقومات التوحد الحقيقية وسرعان ما تتآكل من الداخل وتتشتت.

أما القرآن فيعمد إلى مكمن المشاعر والروابط: (القلب) فلا يقول فألف بينكم، إنما ينفذ إلى المكمن العميق «" فألف بين قلوبكم " فيصور القلوب حزمةً مؤلفة متآلفة بيد الله وعلى عهده وميثاقه»[2] ، ويكمن الإعجاز في هذه القلوب التي تآخت على العقيدة وتآلفت، وقد كانت مملوءةً بالإحن والضغائن وكانت الحمية للكيان القبلي لا تهدأ لحظة حتّى تثور أخرى، فجمعهم القرآن الكريم ووحّد بين قلوبهم والتقطهم من ذلك السفساف المتهاوي ،والحضيض الآسن ، ورفعهم إلى معالي الأمور، وأخرجهم بالقرآن إلى الأمة الخيّرة فكانت المعجزة .

وكل درسٍ تربوي في القرآن وكل توجيه فيه، إذا تّم تطبيقه بصدق وبنية خالصة يراد به وجه الله سبحانه وتعالى،تكون ثمرته معجزة ﴿قَدْ جَآءَكُمْ مّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السّلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مّنِ الظّلُمَاتِ إِلَى النّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىَ صِرَاطٍ مّسْتَقِيمٍ ﴾[3] وقد ركز على هذا اللون من الإعجاز، فلا يكاد يخرج من مقطع لآخر أو من سورة لأخرى، وأحيانًا من آيةٍ لأخرى حتى يقف مستخلصا الدّروس العقيدية والتربوية متأمّلاً متفحصًا أن هذه التوجيهات هي التي تَربّى عليها جيل الصحابة، فغيرت ذراهم وصنعتهم صناعة ارتقت بهم إلى القمة السامقة.

والقصص القرآني أيضاً تتجلى فيه هذه القضية الهامة ،قضية الإعجاز التّربوي خصوصا في طبيعة المعركة بين أصحاب العقيدة، وأصحاب الباطل، والتي يتصارع فيها الإيمان والضلال، وينتهي بثبات أصحاب الإيمان فيقدمون روعة الإعجاز في ثباتهم وصبرهم وصمودهم في وجه الظّلم، كالمثال العالي ؛الذي سطّره سحرة فرعون لما آمنوا ، فقال: لهم فرعون في مناورة مفضوحة : ﴿آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ

---

[1]- سورة آل عمران. الآية : 103.

[2]- في ظلال القرآن. سيد قطب . ج1 ص : 443.

[3]- سورة المائدة. الآيتان : 15 ، 16.

أَن آذَنَ لَكُمْ إِنّ هَـــذَا لَمَكْرٌ مّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[1] ولكنّ السحرة الذين آمنوا بموسى تحول الإيمان فيهم إلى إعجاز آخر، إعجاز فوق إعجاز !.

لقد كشفوا طبيعة المعركة التي يزاولها الفرعون، وبينوا حقيقة المؤامرة التي انطلت على الدهماء **﴿ قَالُواْ لَن نّؤْثِرَكَ عَلَىَ مَا جَآءَنَا مِنَ الْبَيّنَاتِ وَالّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنّمَا تَقْضِي هَـــذِهِ الْحَيَاةَ الدّنْيَآ إِنّآ آمَنّا بِرَبّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السّحْرِ وَاللّهُ خَيْرٌوَأَبْقَىَ﴾**[2] فلم يرهبهم التّقطيع ولا التّقتيل،ولا أنواع التّخويف، وشاهدت فِطرهم البيّنات فآثرت الإيمان بها على الاستكبار والطّغيان وسجّل السّحرة بصبرهم وثباتهم قمّة الإعجاز.

والواقع التّاريخي يشهد أن المعركة الدائرة رحاها منذ أربعة عشر قرنًا، هدفها هو إخراج المسلمين من دينهم الحقّ، وإن كانت تتّذرع بمسمياتٍ أخرى اقتصادية وسياسية وثقافية ، وهو ما يتطلّب من المسلمين أن يكون لهم هذا الإيمان المعجز "إيمان السّحره" في الحفاظ على كيانهم .

ومن الإعجاز التّربوي: بيّن لنا ـسيدـ الإعجاز في طبيعة العداء الذي يقوم به اليهود والنصارى في حربهم ضد الإسلام والمسلمين، ويساندهم المشركون والمنافقون، فهذه الأصناف الأربعة هي نفسها مازالت تناصب المسلمين العداء، أو كما سمّاهم بالأعداء التقليديين « الذين ما ينالوا هم هم ،وما تزال حوافزهم هي هي في أصلها، وإن اختلفت أشكالها وظواهرها وأسبابها القريبة وما تزال أهدافهم هي هي في طبيعتها، وإن اختلفت أدواتها ووسائلها، وما تزال زلزلة العقيدة وزعزعة الصف، والتّشكيك في القيّادة الربانية، هي الأهداف التي تُصوَّب إليها طلقاتهم الماكرة »[3] فالهدف المشترك بين هذه الطوائف الأربعة هو صرف الأمة عن دينها الذي ارتضاه الله لها، وإظهارها بلا دين حتى يكون الجميع سواء.

وكما كان ـ سيد قطبـ واثقًا في النّص القرآني ، فإنّه كان يتعرّض إليه دون خجل ودون حساب لجهة أو ظرف فعند قوله تعالى: **﴿ وَدّ كَثِيرٌ مّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدّونَكُم مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ**

---

[1]- سورة الأعراف. من الآية: 123.

[2]-سورة طه. الآيتان : 72، 73.

[3]- في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 1، ص : 566.

كُفّاراً حَسَداً مّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مّن بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمُ الْحَقّ...﴾ [1] لم يتبرّم بمقصود النّص و لم يخلق أعذاراً واهية له ،وإنّما أشار إلى مكمن الإعجاز المتمثل في طبيعة العداء المتأصل عند أهل الكتاب لهذا الدّين ومعتنقيه،واستطاع توجيهنا إلى الرّيشة القرآنية المعجزة، وهي ترسم لنا ملامح الأعداء وصفاتهم المتكرّرة على الدوام .

وعند قوله تعالى: ﴿**يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتّخِذُواْ بِطَانَةً مّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدّواْ مَا عَنِتّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيّنّا لَكُمُ الاَيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [2]، أشار إلى ما ترسمه الآيه م ن صوّر «كاملة السمات ناطقةً بدخائل النفوس وشواهد الملامح ،تُسجّل المشاعر الباطنية، والانفعالات الظاهرة، والحركة الذاهبة الآيبة وتسجل بذلك كُلّهِ، نموذجا بشريًا مكرورًا في كل زمان وكل مكان... و لم يجيءَ هذا التّنوير وهذا التحذير ليكون مقصورًا على فترةٍ تاريخية معينة، فهو حقيقة دائمة تواجه واقعًا دائمًا كما نرى مصداق هذا فيما بين أيدينا من حاضرٍ مكشوفٍ مشهود »[3]

والقرآن الكريم من أهدافه الكبرى في هذه الحياة الدنيا هو إنشاء الإنسان الصالح ،الذي يكون صالحًا بمعنى الكلمة، فلا يكون صالحًا في مكان و مفسدًا في مكانٍ آخر، أو مصلحًا بالنهار مفسدًا بالليل، يريده الإسلام أن يكون قدوةً على الدوام يرتقي إلى مصاف الأنبياء المصلحين وتلك معجزة عظمى، ومن ثم يحشد لها القرآن مئات الآيات المليئة بالتوجيهات من بداية تنزّله من سورة العلق حتى لآخر آية نزلت بسورة البقرة.

والقرآن كله حديث عن هذا الغيّر والتّربية عليه لأن «الإعجاز التربوي في القرآن لا ينحصر في مجرّد بث هذه العقيدة في النّفوس، وإنما تعميقها وترسيخها وتثبيتها حتى تخالط بشاشتها القلوب فتصبح جزءاً منها لا ينفصل عنها» [4]، وبشهادة الله عزّ وجلّ فإنّ القرآن الكريم قد تخرّج على

---

[1]- سورة البقرة. من الآية: 109.

[2]- سورة آل عمران. من الآية: 118.

[3]-في ظلال القرآن. سيد قطب. ج 1، ص: 452.

[4]- لا يأتو بمثله. محمد قطب. ص: 106.

نصوصه تلك الأمّة في قرنها الأول، والتي كانت معجزة فريدةً حقّقت معجزات شتّى لم يوجد لها نظيرٌ فيما سبق ولا فيما لحق .

كيف يحدث التغيير؟؟! ويصل إلى حدّ الإعجاز، لاشكّ أنّه لا يأتي عرضًا، ولا بين عشية أوضحاها، وإنما هي حالة مستمرةٌ من التقوى على هُدى توجيهات القرآن الّذي «هو كتاب هذه الأمّة العامل في حياتها، وقائدها الحقيقي في طريقها الواقعي، ودستورها الشامل الكامل، الذي تستمد منه منهج الحياة ونظام المجتمع وقواعد التعامل الدولي، والسلوك الأخلاقي والعملي، وهذا هو الإعجاز»[1] الإعجاز في التوجيهات القرآنية التي مازالت هي هي وإنما يُنتظر صورتها العملية التطبيقية من خلال النفوس .

ب- الإعجاز التشريعي :

يبدأ الإعجاز التشريعي من قوله تعالى ﴿**ألا لَهُ الخَلقُ والأمْرُ** ﴾[2] فالذي يحق له الأمر هو الذي خلق، لأنه يعلم من خلق ،وماذا يصلح لهم ، ومن ثم فهو الذي يأمر بالتحليل والتحريم والشريعة الإسلامية قد أخذت صورتها التطبيقية في جيل الصحابة رضوان الله عليهم أحسن تطبيق، حتى لتكاد هذه الصورة من اشراقتها ووضاءتها، أن الذين استظلوا بظلالها كان ـــوا ملائكـــة وليسو مجتمعًا من النَّاس.

لم يرو التاريخ عن فسادٍ مالي، أو اجتـــماعـــي أو سياسي، ولا عن تمزقٍ نفسي على مستوى الجماعات أو الأفراد، ولا عن أمراضٍ استفحلت في المجتمع ولا عن شيءٍ هدّد كيان ذلك المجتمع الوليد يوم ذاك ،وهذا مقارنة بنا نحن اليوم في عصر التقدم الناتج عن العلوم المختلفة،وبهذه المقارنة البسيطة يظهر الإعجاز التشريعي لما يحققه من سعادة وطمأنينة ، إنْ على مستوى الفرد وإنْ على مستوى الجماعة ويظهر خلاف ذلك الشقوة التي تعيشها البشرية اليوم، والفزع الذي يطاردها وينغّص عليها حياتها.

---

[1]-لا يأتو بمثله. محمد قطب. ص: 124.

[2]- سورة الأعراف. من الآية: 54.

وإذا استعرضنا خصائص الشريعة الربانية أدركنا ما فيها من إعجاز ،لأن شريعة الله مفصّلةً بحسب الإنسان تُراعي نوازعه الفطرية فلا تَغفلها، وتستجيب لإنسان الجمل، كما تستجيب لإنسان الذرّة، فهي بما أنها ربانية تحافظ على "الثوابت" وتراعيها وكذلك تحافظ على المتغيرات ولا تلغيها، وليس كما يوجد في التصوّرات الأرضية التي تصادم فطرة الإنسان.

ولقد كان الفكر الأوربي في عصوره المظلمة الوسطى يرى الثبات [1]في كل شيءٍ، ثم جاءت الداروينية فأطلقته من قيد الثبات، إلى جنون التطوّر الذي حطم كل ما هو ثابت، بينما «الفكر الإسلامي المهتدي بكتاب الله والمستنير بنور النبوة، لم يتعرّض لتلك الاختلالات التي تعرض لها الفكر الأوربي ... ولم يعتقد المفكرون المسلمون أن كل شيء على الإطلاق ثابت ولا أن كل شيء على الإطلاق متغير، إنما اعتقدوا دائمًا أن هناك ثوابت وهناك متغيرات، وخاصةً في حياة الإنسان»[2].

وشريعة الله تلبّي حاجة الإنسان بما فيها من مرونةٍ وتحافظ عليه كإنسان، ومن مقاصد الشريعة أن تحفظ إنسانية الإنسان بحيث يكون الجميع عباد الله «فالشّريعة إنما جاءت لتخرج المُكلّفين عن دواعي أهوائهم، حتى يكونوا عباد الله، وهذا المعنى إذا ثبت لا يجتمع مع فرض أن يكون وضع الشّريعة على وفق أهواء النّفوس، وطلب منافعها العاجلة كيف كانت ،وقد قال: ربنا سبحانه **(وَلَوْ اتَبَعَ الحَقَ أَهْواءَهُمْ لَفَسُدَتْ السَمَواتُ وَالأَرضَ وَمَنْ فِيهِنَ)**»[3] وفساد الأرض يتمثل في الظلم الذي يستشري فيه ا، وتَبلغ الجريمة رقماً قياسيًا وهي آخذة في الازدياد ! ! وكلّ ذلك نتيجة عدم اتّباع شريعة الله ،وإنما هو إتباع تحكيم الأهواء كما قال الإمام الشّاطبي .

وخذ مثلا خاصية الشّمول التي تتسع لجميع متطلبات الحياة «فما من مجالٍ من مجالات الحياة إلا للشريعة مدخلٌ فيه، فهو ـ بالضرورة ـ واقع في واحدٍ من هذه الأبواب الخمسة : "حرام أو حلال أو مباح أو مندوب أو مكروه "، سواءٌ أكان مجالاً اقتصاديًا أم سياسيًا أم اجتماعيًا أم أخْلاقيًا أم فكريًا، أو ما يكون من ألوان النشاط البشري في الأرض، وذلك من الإعجاز»[4]

---

[1]- ينظر: التطّور والثّبات في حياة البشرية .محمد قطب .دار الشروق ،القاهره ط 5؛ 1403 هـ 1983م، ص: 15.

[2]- حول تطبيق الشّريعة الإسلاميّة. محمد قطب . مكتبة السنّة ، القاهرة ، ط2 ؛1412هـ، ص: 53.

[3]- الموافقات في أصول الشّريعة. الشاطبي . ص:38

[4]- لا يأتون بمثله. محمد قطب. ص : 190 - 191.

وكذلك الشأن في خاصية التوازن التي تتميز بها الشريعة الربانية والتي لا تأخذ الإنسان جماعة وتهمله فردًا أو تأخذه فردًا وتهمله جماعة، ولا تحسبُ فيه حساب الضرورات وتطغيه على جوانب الأشواق فيه، وإنما تأخذ الإنسان من جميع زواياه في آن واحدٍ، ولن يوجد ذلك في غير الشريعة الإسلامية الذي يبلغ فيها هذا الإعجاز مداه .

ولقد كان ـ سيد قطب ـ رحمه الله قد وقف كثيرًا في عرض هذه الحقائق عن الشّريعة الإسلامية في كتابيه القيمين "خصائص التصور الإسلامي» و"مقومات التصور الإسلامي" فعرض هذه الخصائص المتفردة والمعجزة عرضًا لم يُسبق إليه، وتابع هذا العرض في ظلال القرآن كلما سمحت الفرصة بذلك، وبيّن سخف أولئك الذين يظنّون أنهم في وقت « يتعاملون فيه على ربهم الذي خلقهم، ويدّعون لأنفسهم بَصرًا بحياة الإنسان وفطرته ومصلحته، فوق بَصر خالقهم سبحانه ! ويقولون في هذا الأمر وذاك، بالهوى والشهوة وبالجهالة والعمى، كأن ملابسات وضرورات جدّت اليوم، يدركونها هم، ويقدرونها ولم تكن في حساب الله. ولا في تقديره يوم شرع للنّاس هذه الشّرائع!! ! » [1]، ومن ثم فالشريعة هي قضية عقدية بالدرجة الأولى مثلها مثل أمور العقيدة الأخرى :﴿**فَلاَ وَرَبّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتّىَ يُحَكّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمّ لاَ يَجِدُواْ فِيَ أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مّمّا قَضَيْتَ وَيُسَلّمُواْ تَسْلِيماً**﴾[2].

وأحيانا كان ـ سيد ـ في الظلال يذهب في بيان حكمة التشريع وتعليل الأحكام دون إن يستبد به الطمع بأنه ظفر بكل شيءٍ، ولم يستبْقِ شيئًا، «وهذا منهج غير سليم في مواجهة النصوص القرآنية والأحكام التشريعية، ما لم يكن قد نص على حكمتها نصًّا، – وأولى– أن نقول دائمًا : أن هذا ما استطعنا أن نستشرفه من حكمة النص أو الحكم، وأنّه قد تكون دائمًا هناك أسرار من الحكمة لم يؤذن لنا في استجلائها ! وبذلك نضع عقلنا البشري في ـ مكانه ـ أمام النصوص والأحكام الإلهية بدون إفراطٍ ولا تفريط »[3]، ولا كان يرى تعليق الفرائض والتوجيهات الإلهية في العبادات لما يتسنّى

---

[1]– في ظلال القرآن. سيد قطب. ج1، ص : 578.

[2]– سورة النساء. الآية : 65.

[3]– المصدر نفسه. ج2، ص: 669.

فيها من حكمةٍ وإنّما كان يبرز الحكمة التي تبدو له مع التسليم والتصديق والتطبيق لأحكام الله، وتلقـــيها بالقبول .

ومن الإعجاز في التشريع ملاحظته، دقة التعبير الذي يحمل النصوص القانونية ؛ بأنه تعبيرٌ وجداني، ومع ذلك لا يَجُورُ فيه لفظ على لفظ، ولا تُقدم فقرة على أخرى، ولا تطغى صياغة القانون على جمال التعبير لّما وقف عند أطول آية في أكبر سورة قرآنية.

يقول تعالى ﴿ **يَأَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوَاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىَ أَجَلٍ مّسَمّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الّذِي عَلَيْهِ الْحَقّ وَلْيَتّقِ اللّهَ رَبّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِن كَانَ الّذِي عَلَيْهِ الْحَقّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مّن رّجَالِكُمْ فَإِن لّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشّهَدَآءِ أَن تَضِلّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكّرَ إِحْدَاهُمَا الاُخْرَىَ وَلاَ يَأْبَ الشّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوَاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَو كَبِيراً إِلَىَ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشّهَادَةِ وَأَدْنَىَ أَلاّ تَرْتَابُوَاْ إِلاّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُواْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتّقُواْ اللّهَ وَيُعَلّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾[1]

وكان_ سيد_ دائمًا يركز على القلوب المؤمنة، في النص القرآني ويشير إليها لأنها هي التي تعطي للتشريع الضمان الأكبر في تقبّل الأحكام بإيمان، وتطبيقها بحبّ وإجلال، فرأى في النص السابق أنَّ القرآن«يربط بين التشريعات للحياة وخالق الحياة، بذلك الرباط الوثيق المؤلف من الخوف والرجاء في مالك الأرض والسماء فيضيف إلى ضمانات التشريع القانونية ضمانات القلب الوجدانية .. وهي والتشريع في الإسلام متكاملان، فالإسلام يصنع القلوب التي يُشّرع لها، ويصنع المجتمع الذي يُقنّنُ له، صنعةً إلهية متكاملةً متناسقةً ، تربيةٌ وتشريعٌ وتقوى وسلطان، ومنهجُ للإنسان من صنع

[1]– سورة البقرة. الآية: 282

خالق الإنسان، فأنى تذهب شرائع الأرض وقوانين الأرض، ومناهج الأرض ؟»[1] التي أشقت الإنسان وحوّلت حياته إلى جحيم نفسي لا يطاق.

هكذا كان ـ سيد ـ يقف عند آيات الأحكام مبرزًا حكمة التشريع الرباني في الإعجاز الذي يُهيّيء القلوب لاستقبال أمر الله، وذلك من رحمة الله بعباده مِنَةً وتكرُّمًا، وقد تستحسن العقول جانباً من الشّرع ، غير أنها لا تصبر عليه،لطبيعة النّفس في التّفلّت من الأوامر والولوع بالعاجل ،ولأمر ما لم يتنزل التّشريع خلال الفترة المكّية إلا لتهيئة القلوب أوّلاً .

وكانت أكبر ملاحظة لاحظها تتمثل في ربط التشريع بالوجدان الديني، وهي الطريقة المثلى التي تمتاز على الطريقة التي تخاطب الإنسان ذهنا ،فنراه في آية الدين يقول «إن الإعجاز في صياغة آيات التشريع هنا لهو الإعجاز في صياغة آيات الإيحاء والتوجيه ، بل هو أوضح وأقوى لأن الغرض هنا دقيق يحرفه لفظ واحد، لا ينوب فيه لفظ عن لفظ، ولولا الإعجاز ما حقق الدقة التشريعية المطلقة، والجمال الفني المطلق على هذا النحو الفريد. ذلك كله فوق سبق التشريع الإسلامي بهذه المبادئ، للتشريع المدني والتجاري بحوالي عشرة قرون كما يعترف الفقهاء المحدثون !»[2]

إنّ القضية لا تتعلّق بالعثور على الإعجاز من عدمه ، القضية تتعلّق في الامتثال لهذا الكتاب المعجز والاستقامة على أوامره ونواهيه ! « لأنّ هناك عصابة من المضلّلين الخادعين أعداء البشريّة، يضعون لها المنهج الإلهي في كفّة والإبداع الإنساني في عالم المادّة في الكفّة الأخرى ؛ ثمّ يقولون لها : اختاري! ! ! اختاري إمّا المنهج الإلهي في الحياة والتخلّي عن كلّ ما أبدعته يد الإنسان في عالم المادّة ،وإمّا الأخذ بثمار المعرفة الإنسانية والتخلّي عن منهج الله ! ! ! وهذا خداع لئيم خبيث ، فوضع المسألة ليس هكذا أبداً ..إنّ المنهج الإلهي ليس عدوّا للإبداع الإنساني ، إنّما هو منشئ لهذا الإبداع وموجّه له الوجهة الصّحيحة، ذلك كي ينهض الإنسان بمقام الخلافة في الأرض.»[3]

والأمر الهامّ في معرض الإعجاز التّشريعي ليس بيان ما في القرآن من إعجاز تشريعي، وما في الإسلام من تشريعات محكمة بالدّرجة الأولى ، وإنّما الأمر الأهمّ :هو بيان هذه العقيدة وشرحها

---

[1]- في ظلال القرآن. سيد قطب. ج1 ، ص : 338.

[2]_ المصدر نفسه. ج1، ص: 334.

[3]-نفسه. ج1، ص: 16.

للنّاس أوّلاً ،كما فعل رسول الله ـصلّى الله عليه وسلّم ـوسيظل التّعريف بالعقيدة مقدّماً على التّنظيمات الّتي يحويها الإسلام،لأنّ البشرية اليوم تعيش إفلاساً روحياً لم يسبق أن عرفته في قرونها السّابقة،حيث أشقتها الآلهة المزعومة،وجعلتها تتشبث بأي معتقد، وتتفرّغ لعبادة الشّيطان.

ومن الأمثلة الصّحيحة الّتي تدلّ على أنّ "بيان العقيدة" ينبغي أن يُصرف له الاهتمام بالدّرجة الأولى أنّ «أوروبا لا تنقصها النّظم-من حيث هي نظم-ولا التّنظيمات من حيث هي تنظيمات،إنّما تنقصها العقيدة التي تردّ إلى روحها الأمن والطمأنينة بادئ ذي بدء ، وتردّعنها القلق والضياع الّذي يفتّ حياتها ،ثمّ تردّها عن اعتناق النّظم الجاهلية الّتي تمارسها فتؤدّي بها إلى الخلل والاضطراب، وذلك حين تقتنع ـعقيدة ـبأنّ البشر لا ينبغي لهم أن يشرعوا من عند أنفسهم ، إنّما يشرّع لهم الله ، وأنّه من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون.. »[1]

إنّ الإعجاز في المناهج والنظم والتّشريعات كل ذلك وجده ـ سيد قطب ـ بسهولة، لأنه يعتقد سلفًا أن هذه المناهج والنظم والتشريعات التي حواها القرآن الكريم هي متزّلةً من عند الله ومن ثمّ لم يجد حرجًا ولا صعوبةً في العثور عليها، والتماسها في م ظانها وإنما تحتاج إلى نظرٍ ثاقب ، وحاسّة فنية رهيفة، وعرض جذاب يرشد إلى مكامن الإعجاز.

[1]- دراسات قرآنية .محمَّد قطب. ص: 426،427.

- إنّه من باب الإنصاف أنّ ثمّة قراءة فاعلة، قد أعطت دفعًا كبيرًا للدراسات القرآنية والأدبية من زاوية جماليّة وفكريّة وإعجازيّة، وأعادت الاهتمام بالصّلة التي تربط القارئ بالقرآن الكريم وسجّلت في هذا العصر انجازًا جديدًا ، ينضاف إلى حركة التّفسير.

- وقد تمّ من خلال القراءة التّفصيلية المتأنّية ؛ والتي تعني تعاهد القرآن وتدبّره، أنّ ملازمة القرآن هي التي كانت وراء ذلك التغيّر الذي حدث في نفس المؤلّف وفي انجازاته مما دعا إلى تفعيل عمليّة التدبّر والاهتداء بهدي القرآن.

- وقراءة النّص القرآني-كما أنجزه ا الكاتب- لا تحتاج إلى تصوّرات قبليّة تُرفِد الفهم وتعين على استيضاح المعنى ، وإنما تكفّل النّص ذاته بحمل أدواته وآلياتهِ ومنهجه كلّه في الفهم والتّطبيق، ومن ثم يتبيّن خطل الدّارسات التي ترتيد أن تقدم دلالات النّص القرآني من خلال المذاهب الفكريّة المعاصرة.

- وممّا كشف البحث عنه أنّ القراءة التي قدّمها ـ سيد قطب ـ عرّفت بالقرآن تعريفًا عمليًا حيث يُطلعك على كنوزه المذخورة ويجعلك تباشره بنفسك بواسطة ذينك المفتاحين: المفتاح الجمالي والمفتاح الحركي، وتذوق من حلاوة القرآن، وترى من نوره، ومن شفاءِهِ، ومن هدايته، ما لم تر من قبلُ .

- وقد أخذ البحث في الحسبان تركيز ـ سيد قطب ـ على بيان العقيدة والتربيّة عليها متنسّمًا عمل الصّحابة، وطريقتهم في توجيه القرآن لهم، وقد بيّن القرآن أنّ الحياة لا تستقيم إلاّ بالعقيدة الصّحيحة، وأنّها هي الفيْصل الحقّ فيما بين النّاس في أفكارهم، وأعمالهم وتصرّفاتهم، وأنّ الظّلال كلّه بيان لدور القلب في حمل العقيدة، والعيش بها ولها .

- وفي الظّلال بيان رائع لتنزيل الآيات القرآنية على الواقع المعاصر، أو هو تحقيق للقاعدة الأصولية المعروفة «العبرةُ بعموم اللّفظ لا بِخُصوص السَّبَبِ» والذي أبدع فيها أيّما إبداع كلّما وقف أمام قضايا ومشكلات الوقت الحاضر.

- كما خرج البحث بنتيجة أنّ القراءة التي قدّمها ـ سيد قطب ـ كانت تتناول النّص القرآني من ثلاث جهات، تكشف ما فيه من جمال وحركة وإعجاز، مشيرًا في الوقت نفسه إلى قضيّةٍ هامّةٍ

تتعلّق بالإبداع، وهي قضيّة التّفاعل مع القرآن، فبمقدار القرب منه والبعد عنه، يكون العطاء، ويكون التعرّف على الدّلالات الكامنة فيه.

- كذلك خرج البحث، بأنّ الكفاءة القرائيّة التي امتاز بها سيد قطب ترتكز على دعامتين عظيمتين: نعمة الموهبة الإبداعية التي رُزقها، ونعمة الإيمان الجبّار الذي نتجت عنه الثّقة المطلقة في نصوص القرآن،والجرأة في الحقّ ، فرفعه الله بالإيمان، وجعل له ذكرًا في هذه ونحسبه كذلك في الأخرى، والله حسيبه .

- كما كشف البحث: أنّ ـ سيد قطب ـ كان وراء مشروع قرآني حضاريّ، لم يثنه عنه صارف، في وقت كان للأفكار رواجًا مغريًا وبريقا مذهلاً !!. وكان هذا المشروع الذي قدّمه يملك خطابا نزيهًا له حجّيته وسلامة منطقه، كون قراءته تستند إلى التّعامل الإيجابي مع السنّن الربّانية ، و لاينال المشروع يقف شامخا ويملك مقوّمات استمراريته.

- وتمكّنت الدّراسة من تحديد هدف هذا المشروع المستقبلي: وهو العمل على تجديد الإيمان في نفس المسلم بتقويةّ صلته بالقرآن، وأن تكون للقرآن كلمة الفصل في كل شؤونه والهيمنة على حياته ومماته.

- ويرى البحث أنّ صاحب الظّلال قد وفّق في القراءة الجمالية التي تُعدّ رافدًا من روافد الإعجاز القرآني، والتي لازالت الدّراسات القرآنية والأدبية ترى في الّذي قدّمه المرجعية التي تصدر عنها.

- كما رأى البحث أنّ أنسب طريقةٍ لفهم النّص، تكمن في المنهج التكاملي الذّي يوظّف جميع الأدوات، وعلى رأسها الصوّر والظّلال، في إبراز دلالات النّص مع مراعاة القصد والسيّاق .

- وأبرز البحث أنّ مشروع سيد قطب مشروع مستقبليٌ ساهم الزّمن في إبرازه ، وأنّ القراءة التي قدّمها كانت قفزةً جبّارةً في عالم الفكر وفي قراءة الواقع المعاصر، وأنّها لازالت من قضايا السّاعة الرّاهنة .

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربّ العالمين.

فهرسة الآيات القرآنية

السورة	الآية	رقمها	الصفحة
البقرة	وَمِنَ النّاسِ مَن يَقُولُ آمَنّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الاَخِرِ	8	53
""	كُلّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رّزْقاً قَالُواْ هَـــذَا	25	118
""	وَإِذْ نَجّيْنَاكُم مّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ	49	120
""	وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنْزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ	91-93	130
""	وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ	93	35
""	وَدّ كَثِيرٌ مّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدّونَكُم	109	139
""	وَإِذِ ابْتَلَىَ إِبْرَاهِيمَ رَبّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمّهُنّ	124	84
""	وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ.....	127-128	127
""	وَوَصّىَ بِهَآ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيّ	132-133	74
""	وَمَثَلُ الّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الّذِي يَنْعِقُ بِمَا.....	171	27
""	نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنّىَ	223	38
""	وَالْمُطَلّقَاتُ يَتَرَبّصْنَ بِأَنْفُسِهِنّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ	228	34
""	حَافِظُواْ عَلَى الصّلَوَاتِ والصّلاَةِ الْوُسْطَىَ	238-239	99
""	مّثَلُ الّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ	261	33
""	الّذِينَ يَأْكُلُونَ الرّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاّ كَمَا	275	26
""	يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ.....	282	143
آل عمران	يَقُولُونَ آمَنّا بِهِ كُلّ مّنْ عِندِ رَبّنَا.....	07	أ

""	وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرّقُواْ.....	103	137
""	كُنْتُمْ خَيْرَ أُمّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ تَأْمُرُونَ.....	110	41/5
""	ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذّلّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاّ بِحَبْلٍ.....	112	85
""	يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتّخِذُواْ بِطَانَةً مّن	118	139
""	وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوّىءُ الْمُؤْمِنِينَ	121	98
""	قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض	137	81
""	قُلْتُمْ أَنّىَ هَـــذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ	165	89
""	مَا كانَ الله ليَذَر المؤمنين عَلَى مَا أَنتم عَلَيه	179	88
""	إِنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ	190-192	82
""	ربّنَآ إِنّنَآ سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ	193	82
النساء	إِنّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً.....	10	36
""	..مَحْصنين غَيْر مسافحين	24	29
""	وَالّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَـــآءَ النّاسِ	38	52
""	فَلاَ وَرَبّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتّىَ يُحَكّمُوكَ	65	142
""	وَإِنّ مِنْكُمْ لَمَن لّيُبَطّئَنّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مّصِيبَةٌ.....	72	28
""	أَفَلاَ يَتَدَبّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ	82	126/104/92
""	يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ	136	70
""	إنّما الله إله ٌ وَاحدٌ سُبحانه أن يكون له	171	111
المائدة	ولاَ تَزَالُ تَطّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مّنْهُمْ إِلاّ قَلِيلاً مّنْهُمُ.....	13	41
""	قَدْ جَآءَكُمْ مّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مّبِينٌ	15-16	137

29	62-61	وَإِذَا جَاؤُوكُم قَالُو آمنّا وَقَد دَخَلُو بالْكُفْر.....	""
105	72	لَقَدْ كَفَرَ الّذِينَ قَالُوَاْ إِنّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ	""
105	73	لّقَدْ كَفَرَ الّذِينَ قَالُوَاْ إِنّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ	""
105	78	لُعِنَ الّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِيَ إِسْرَائِيلَ	""
104/39	82	لَتَجِدَنّ أَشَدّ النّاسِ عَدَاوَةً لّلّذِينَ آمَنُواْ	""
100	93	لَيْسَ عَلَى الّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصّالِحَاتِ	""
74	116- 117	وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ	""
129	19	قَلْ أيّ شيئ أكبر شهادة قل الله.....	الأنعام
82	44	فَلَمّا نَسُواْ مَا ذُكّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ	""
60	99-95	إِنّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبّ وَالنّوَى يُخْرِجُ الْحَيّ.....	""
60	103	لاّ تُدْرِكُهُ الأبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصَارَ.....	""
128	128- 131	وَيَوم يَحشرهم جَميعا يَامَعشرَ الجنّ	""
77	133	كَمَآ أَنشَأَكُمْ مّن ذُرّيّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ.....	""
132	111	واللهُ أعلم بما يُترّل.....	""
140	54	أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبّ الْعَالَمِينَ	الأعراف
74	65 - 71	وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ.....	""
138	123	قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنّ	""
85	167	وَإِذْ تَأَذّنَ رَبّكَ لَيَبْعَثَنّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ	""
77	172	وَإِذْ أَخَذَ رَبّكَ مِن بَنِيَ آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ	""
46	175	واتل عليهم نَبَأَ الّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ.....	""

03	176	فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ.....	""
40	191-192	أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ	""
75	22-23	إِنّ شَرّ الدّوَابّ عِندَ اللّهِ الصّمّ الْبُكْمُ الّذِينَ	الأنفال
77/114	24	يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للّهِ وَلِلرّسُولِ.....	""
101	32	يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ	التوبة
79	12	هُوَ الّذِي يُسَيّرُكُمْ فِي الْبَرّ وَالْبَحْرِ حَتّىَ	يونس
79	22-23	وَإِذَا مَسّ الإِنسَانَ الضّرّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً.....	""
133	13	أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مّثْلِهِ.....	هود
34	46	وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لّعَلّي.....	يوسف
45	09	عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ.....	الرعد
51	18	لِلّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبّهِمُ الْحُسْنَىَ وَالّذِينَ	""
102	19	أَفَمَن يَعْلَمُ أَنّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ الْحَقّ	""
10	28	الّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللّهِ	""
129	31	ولو أنّ قرآنا سيّرت به الجبال أو قطّعت.....	""
121	06	يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ وَيُذَبّحُونَ	إبراهيم
106	18	مّثَلُ الّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ	""
44	24-27	أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيّبَةً	""
59	37	فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مّنَ النّاسِ تَهْوِيَ إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ.....	""
21	5-6	وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا.....	النحل
122	14	وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ.....	""
56	44	لتبيّن للنّاس ما نزّل إليهم.....	""

الإسراء	وَإِنْ عُدتّمْ عُدْنَا	08	87
الإسراء	وما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسولا.....	15	77
مريم	وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً	04	58
طه	إِنّمَآ إِلَـــهُكُمُ اللّهُ الّذِي لآ إِلَـــهَ إِلاّ هُوَ	98	91
""	وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرّفْنَا فِيهِ	113	117
""	قَالُواْ لَن نّؤْثِرَكَ عَلَىَ مَا جَآءَنَا مِنَ الْبَيّنَاتِ	73-72	138
الحج	يَأَيّهَا النّاسُ اتّقُواْ رَبّكُمْ إِنّ زَلْزَلَةَ السّاعَةِ	2-1	54
""	وَمِنَ النّاسِ مَن يَعْبُدُ اللّهَ عَلَىَ حَرْفٍ	11	03
""	إِنّ الّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً....	73	50
المؤمنون	... فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنَ الخَالِقِينْ	14	21
النور	إِذْ تَلَقّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ	15	27
""	يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال...	35	05
""	إِنّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوَاْ إِلَى اللّهِ	51	66
الفرقان	أَلَمْ تَرَ إِلَىَ رَبّكَ كَيْفَ مَدّ الظّلّ	46-45	23/58
""	وَعِبَادُ الرّحْمَـــنِ الّذِينَ يَمْشُونَ.....	63	59
القصص	وَلَقَدْ وَصّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلّهُمْ يَتَذَكّرُون.....	51	117
العنكبوت	وَالّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنّ اللّهَ	69	08
لقمان	وإِذْ قَالَ لُقمان لابنه وهو يَعظُه يا بني	113	41
الروم	أَوَلَمْ يَتَفَكّرُواْ فِيَ أَنفُسِهِمْ مّا خَلَقَ اللّهُ.....	08	21
الأحزاب	لّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ	21	52
سبأ	هَلْ نَدُلّكُمْ عَلَىَ رَجُلٍ يُنَبّئُكُمْ إِذَا مُزّقْتُم.....	08	52
فاطر	وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبّنَآ أَخْرِجْنَا	37	45

""	فلن تجد لسنّة الله تبديلا ولن تجد.....	43	81
""	وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ	12	122
""	فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ	28-27	125
يس	والقُرآن الحَكِيم	2	9
""	وَآيَةٌ لّهُمُ الأرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا	44-33	61
الزمر	إِنّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقّ	02	108
""	اللّهُ نَزّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مّتَشَابِهاً	23	120
""	وما قدروا اللّهَ حَقّ قَدْرِهِ وَالأرْضُ.....	75- 67	73
فصلت	قُلْ أَإِنّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالّذِي خَلَقَ الأرْضَ.....	12-9	73
""	وَقَالَ الّذِينَ كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لِهَـــذَا	26	112
""	لاّ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ	42	25
""	قُلْ هُوَ لِلّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَالّذِينَ	44	115
""	سنريهم آياتنا سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق	53	135
الدخان	خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىَ سَوَآءِ الْجَحِيم.....	47	47
الأحقاف	يَهْدِيَ إِلَى الْحَقّ وَإِلَىَ طَرِيقٍ مّسْتَقِيمٍ.....	30	125
محمد	الّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ.....	3-1	107
""	وَالّذِينَ اهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ	17	63
""	أَفَلاَ يَتَدَبّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىَ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ.....	24	13
الحجرات	وَلاَ تَلْمِزُوَاْ أَنفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُواْ بِالأَلْقَابِ	11	101
الطور	إِنّا كُنّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنّهُ هُوَ الْبَرّ الرّحِيم.....	28	54
الحديد	يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ اتّقُواْ اللّهَ وَآمِنُواْ بِرَسُولِهِ	28	71
الحشر	هُوَ اللّهُ الّذِي لاَ إِلَـــهَ إِلاّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ.....	24-22	75

الملك	فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىَ مِن فُطُورٍ.....	3- 4	23
""	أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللّطِيفُ الْخَبِيرُ.....	14	72
المزمل	يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ.....	14	54
المدثر	فَمَا لَهُمْ عَنِ التّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنّهُمْ حُمُرٌ	49-51	50
عبس	أَن جَآءَهُ الأَعْمَى.....	02	101
الطّارق	إِنّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هوَ بِالْهَزْلِ.....	13-14	55
البلد	لاَ أُقْسِمُ بِهَـــذَا الْبَلَدِ.....	01	102
التين	وَهَـــذَا الْبَلَدِ الأَمِين.....	03	102
البينة	لَمْ يَكُنِ الّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَاب.....	01	105
""	وَمَا تَفَرّقَ الّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ إِلاّ مِن بَعْدِ	04	37
""	إِنّ الّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ.....	06	105
الزلزلة	فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ	7- 8	106

فهرسة الأحاديث النّبوية:

التّرقيم	نص الحديث الشريف	الرّاوي	الصفحة
01	–إنّ الله كتب الإحسان على كلّ شيء.....	مسلم	21
02	–بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ.....	مسلم	67
03	–خلقت عبادي حنفاء.....	مسلم	78
04	–خيركم قرني.....	البخاري	05
05	–عجباً لأمرالمؤمن إنَّ أَمرَه كلّه خير.....	مسلم	82
06	– عزفت نفسي عن الدّنيا ، فأسهرت ليلي.....	الهيثمي/ الطّبراني	56
07	–كل مولودٍ يولد على الفطرة.....	مسلم /البخاري	78
08	–اللهم يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي	البخاري / مسلم	76
09	– من أحقّ النّاس بحسن صحابتي	البخاري / مسلم	03
10	– هذا جبريل أتاكم يُعلّمكم أمر دينكم.....	البخاري / مسلم	71
11	- يا حيّ يا قيّوم برحمتك أستغيث.....	النّسائي	75

فهرسة المصادر والمراجع

*أولا: المصادر والمراجع.

القــــرآن الكـــــريم برواية حفص عن عاصم،وورش عن نافع .

1ـ البخاري،محمد بن إسماعيل .صحيح البخاري. تحقيق: محمود حسن نصار، دارالكتب العلمية بيروت، ط4؛ 142 5هـ 2004م.

2 ـ البقاعي، برهان الدين بن عمر.نظم الدررفي تناسب الآيات والسور.تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي،دار النشر للكتب العلمية بيروت،ط 1؛1415هـ ـ 1995م .

3ـ بكري أمين الشيخ. التعبير الفني في القرآن الكريم. دار العلم للملاين،بيروت؛ط1 ؛ 1994م .

4ـ البنا ،حسن. مقدمات التفسير .مكتبة حطين، بيروت، ط 3 ؛ 1972م .

5ـ بنت الشاطئ ،عائشة عبد الرحمن. الإعجاز البياني في القرآن ومسائل ابن الأزرق،دار المعارف، مصر، ط5، 1971م

6ـ البوطي محمد سعيدرمضان.السلفية مرحلة زمنية مباركة. دار الفكر،دمشق،ط1 ؛ 1408هـ .

7- البيضاوي،عبدالله بن عمرمحمد الشّيرازي.أنوارالتنزيل وأسرا التأويل.مطبعة عثمانية، (دط)؛1305 هـ.

8ـ ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم.شرح مقدمة في أصول التّفسير. تحقيق:محمد بن عمر بازمول،دار الإمام أحمد، القاهرة،1؛1427هـ 2006م.

9ـ جبير صالح حمادي. التصويرالفني في القرآن الكريم، دراسة تحليلية، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1؛1428هـ ـ2007م .

الجرجاني، عبد القاهربن عبد الرحمن(ت471هـ) .

10ـ أسرار البلاغة . (تح) شاكر، دار المدني، جد ة، ط1 ؛1412هـ .

11ـ دلائل الإعجاز،مكتبة الخانجي، القاهرة، تعليق : محمود شاكر، (دت)؛1991م.

12 ـ الجميلي السيد.فقه السيرة النبوية من زاد المعاد في هدي خير العباد دارالفكر العربي، بيروت،ط2 ؛ 1990م

13ـ ابن حجر ،شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني .فتح الباري شرح صحيح البخاري. دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2 ؛ (د ت) .

14ـحمدان نذير.الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم.دار المنار،جدة، السعودية ،ط1 ؛ 1412ھ-1999م .

15ـ حمدي أبو علي محمد بركات. فصول في البلاغة. دارالفكر، عمان ط 1؛ 3 140ھ-1983م .

16ـحميد لحميداني.القراءة وتوليد الدّلالة..المركز الثّقافي العربي،الدارالبيضاء،المغرب ط1؛2003م.

الخالدي ،صلاح عبد الفتاح.

17ـ إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره، الرباني. دار عمار ،الأردن، 1421ھ ـ 2000م .

18ـ تعريف الدارسين بمناهج المفسرين . دار القلم، دمشق؛ ط 3؛ 1429ھ-2008م.

19ـ في ظلال القرآن في الميزان . دار الشهاب الجزائر، ط1؛ 1406ھ ـ 1986م.

20ـ لطائف قرآنية . دار القلم ، دمشق ، ط1؛1412ھ-1992م.

21ـ مدخل إلى ظلال القرآن. دار المنار، جده، ط1 ؛ 1406 ھ ـ 1986م.

22ـ المنهج الحركي في ظلال القرآن . دار عمار، الأردن. ط2 ؛ 2000م .

23ـ نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، دار الفرقان ،الأردن، ط1، 1403ھ- 1983م .

24 ـ الخباص عبد الله عوض.سيد قطب الأديب الناقد.شركة الشهاب للنشر والتوزيع،الجزائر (د،ت) .

25ـ ابن خلدون،ولي الدين عبد الرحمن بن محمد الحضرمي. المقدمة.دار الجيل، بيروت،(دط تا).

26-درازد،محمد عبد الله .النبأالعظيم نظرات جديدة في القرآن.دارطيبة للنشر والتوزيع،الرياضط1 ؛1417ھ- 1997م.

27ـراغب نبيل.موسوعة الإبداع الأدبي .مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط 1 ؛ 1996م.

28ـ زرزور، عدنان محمد. علوم القرآن واعجازه وتاريخ توثيقه ،المكتب الإسلامي،الأردن،ط1 ؛1 140ھ- 1981م .

29ـ الزركشي، بدر الدّين محمد بن عبد الله .البرهان في علوم القرآن،تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم ،دار المعرفة ،بيروت(دط)1391ھ-1984م.

30ـالزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر.الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون

الأقاويل في وجوه التأويل. تحقيق: عادل عبد الموجود،محمد معوّض ،أحمدحجازي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1؛ 1418هـ ـ 1998م .

31ـسابق ،السيد.فقه السنة، دار الجيل، بيروت، (د ط)؛ 1416هـ - 1995م .

32ـالسّامرائي،فاضل صالح.لمسات بيانيّة في نصوص من التّنزيل.دارعمّار للنّشر والتّوزيع،الأردن،ط3 ؛1423هـ 2003م .

33ـالسلامي،عمر.الإعجاز الفني في القرآن ، الشركة التونسية للتوزيع ،تونس، ط1 ؛1980م.

34ـ سليم بن عيد الهلالي.إيقاظ الهمم المنتقى من جامع العلوم والحكم.دارابن الجوزي،السعودية،ط4 ؛ 1419هـ 1998م.

35ـ الشاطبي ،أبو إسحاق إبراهيم بن موسى.الموافقات في أصول الشريعة.تحقيق:عبد الله دراز،دار المعرفة،بيروت،(د ط ت).

36ـشاكر، محمود محمد. مداخل إعجاز القرآن.مطبعة المدني،مصر،ط1؛1422هـ-2002م.

37 – الشعراوي، محمد متولي. قصص الأنبياء والمرسلين. المكتبه العصرية، بيروت،(د ط)؛ 1422هـ 2002م .

الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار.

38–أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن.دارالكتب العلية، بيروت ط1؛ 1417هـ - 1996م.

39ـدفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، دار الكتب .العلمية، بيروت، ط1 ؛ 1417 هـ.

40–مذكرة أصول الفقه. الدّار السّلفية،الجزائر،(د،ت) .

41–الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد.المعجم الأوسط. تحقيق:محمد حسن محمدإسماعيل الشافعي،دارالكتب العلمية،بيروت ،ط1؛ 1420ه

42–بن عاشور، محمد الطاهر.تفسير التحرير و التنوير. الدار التونسية للنشر، تونس،(د ط)؛ 1984م .

43– عبد الغفلو، السيد أحمد. التفسير والنص. دار المعرفة الجامعية، القاهرة، (د ط ت)

44–عصفور،جابر أحمد.الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي.دارالثقافةوالطباعة والنشر،القاهرة،ط1؛ 1974 م

45–ابن عطية أبو محمد عبد الحق الأندلسي .المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز.تحقيق:المجلس العلمي فاس، ط2 ؛ 1403هـ.

46-العظم يوسف.رائد الفكر الإسلامي المعاصر الشهيد سيد قطب.دمشق،ط1؛ 1400هـ ـ 1980م
47-العقاد ،عباس محمود .ساعات بين الكتب. دارا لكتاب العربي، بيروت ط2 ؛ 1969م.
48- العك،خالد عبد الرّحمن.أصول التفسير وقواعده.دارالنّفائس،بيروت،ط2؛ 1406هـ،1986م.
49- عمارة محمد.قراءة النص الديني بين التأويل الغربي والتأويل الإسلامي مكتبة الشروق الدولية،القاهرة، ط1؛1427هـ-2006م .
50-عمايرة،أحمد إسماعيل.بحوث في الإستشراق واللغة.مؤسّسة الرّسالة ،بيروت،ط1؛ 1416هـ 1996 م.
51-الغرناطي،أحمد بن إبراهيم بن الزّبير. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أي التنزيل.تحقيق: سعيد الفلاح دار الغرب الإسلامي، المغرب، ط2 ؛ 1428هـ ـ 2007م
52-الفراهي،عبد الحميد.تفسيرنظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان.الدائرة الحميدية،الهند،ط1؛2002م.
قـطـب ،سيد إبراهيم.
53ـ التصوير الفني في القرآن الكريم .دار الشّروق ،القاهرة، ط17؛1425هـ ، 2004م.
54ـخصائص التصوّر الإسلامي . دار الشروق، القاهرة ،(د ت ط)
55– دراسات إسلامية. دار الشّروق ، القاهرة ،(د ت ط)
56ـ في ظلال القرآن .دار الشروق، القاهرة، ط 16 ؛ 1990م .
57ـ كتب وشخصيات . دار الشروق، بيروت (د ط ت) .
58ـ مشاهد القيامة في القرآن الكريم دار الشروق، القاهرة، ط11؛ 1993م.
59ـ معالم في الطريق .دار الثقافة، المغرب، ط4 ؛ 1988 م.
60ـ مقومات التصوير الإسلامي .دار الشروق، القاهرة، ط1، 1986م.
61ـ النقد الأدبي أصوله ومناهجه.سيد قطب. دار الشروق، القاهرة، ط 8؛ 1424هـ، 2003م.
62 ـ هذا الدين ،دار الشروق، القاهرة ن ط8 ؛ 1403هـ- 1983م .
قـطـب ،محمد .
63ـ التطور والثبات في حياة البشرية . القاهرة ، ط 5؛ 1403هـ-1983م.
64ـ حول تطبيق الشريعة الإسلامية. مكتبة السنة، القاهرة، ط2- 1412هـ .
65ـ جاهلية القرن العشرين.دار الشّروق ، القاهرة (د ط) ؛1405هـ -1988م.
66ـ دراسات قرآنية . دار الشروق، بيروت، ط4، 1404هـ ـ 1983م .

67- قبسات من الرسول. دار الشروق، القاهرة ، ط16 ؛1427هـ -2006م.
68ـ كيف نكتب التاريخ الإسلامي . مطبعة النجاح الجديدة-المغرب،1992م .
69ـ لاإله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة. دار الشّروق،القاهرة ،ط1؛1415هـ-1995م.
70ـ لا يأتون بمثله .دار الشروق، القاهرة، ط1 ؛ 1422هـ - 2002م .
71ـمذاهب فكرية معاصرة . دار الشروق، القاهرة، ط5 ؛1411هـ- 1991م.
72ـ منهج التربية الإسلامية . دار الشروق، القاهرة، ط 12؛ج1 ، 1989م.
73ـ منهج الفن الإسلامي ، دار الشروق، بيروت، ط6 ؛ 140هـ- 1983م.
74ـ واقعنا المعاصر.المؤسسة الوطنية للفنون ،وحدة الرغايه،الجزائرط2؛ 1989م.
75- قلعه جي ،محمد روّاس.موسوعة فقه إبراهيم النّخعي.دار النّفائس،بيروت،ط2 ؛ 1406هـ 1986م
ابن قـــيم الجوزية،أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت751هـ) .
76 ـبدائع الفوائد.ضبط :أحمد عبد السلام،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان، ط1، 1994م.
77ـ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين.تحقيق: محمد حامد الفقي،دار الكتاب العربي،بيروت،ط2 ؛ 1363هـ 1973م .
78- المـبارك محمد.استقبال النص عند العرب.المؤسسة العربية للدارسات والنشر،بيروت،ط1، 1999م
79- مـسلم، أبو الحسن بن الحجاج النيسابوري.صحيح مسلم. تحقيق: محمود محمد محمود حسن نصار،دار الكتب العلمية،بيروتط2؛1424هـ- 2003م.
80- مســـلم ،محمّد مصطفى.مباحث في إعجاز القرآن.دار المسلم للطباعة والنشر والتوزيع الرّياض،ط2 ؛ 1416هـ- 1996م.
81 –المـنذري ، زكي الدين عبد العظيم القوي، الترغيب والترهيب، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت،ط1؛ 1401هـ 2001م.
مـــونسي، حبيب .
82ـ التردد السردي في القرآن الكريم.ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر، ط1، 2010م.
83ـشعرية المشهد في الإبداع الأدبي.ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر، ط 1 ؛ 9 200م.
84ـ نظريات القراءة في النقد المعاصر.منشورات دار الأديب، وهران، 2007م.

85-الهـــيثمي،الحافظ علي بن أبي بكر.مجمع الزوائد ومنبع الفوائد.تحقيق:حسام الدّين المقدسي،مكتبة القدس ،القاهرة،1414هـ 1994م.

* ثانيا : الكتب المترجمة .

86-حكماء صهيون.بروتوكولات حكماء صهيون.ترجمة: خليفة التونسي،المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية،وحدة الرغاية،الجزائر،ط1،1990م .

87- زيغريد هونكه. شمس العرب تسطع على الغرب.ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي،دارالأفاق الجديدة، بيروت، ط 5 ؛1401هـ 1981م.

88- وليام غاي كار .أحجار على رقعة الشطرنج.ترجمة:سعيد جزائرلي،دارالنفائس،بيروت،ط8؛ 1406 هـ_1986م.

* ثالثا: المعاجم.

89 ـ الجرجاني،السيد الشّريف علي بن محمد.التعريفات.تحقيق: نصرالدين التونسي،القاهرة،ط1؛ 2007م.

90 ـ الراغب، أبو القاسم الحسين بن محمّد الأصفهاني. ألفاظ القرآن.تحقيق: صفوان داوودي، دار القلم، دمشق، ط1 ؛2 141هـ.

91ـ الزمخشري،جار الله محمود بن عمر.أساس البلاغة.دارالفكر،بيروت،ط1، 1426هـ ـ 2000م.

92ـ ابن منظور،أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري. لسان العرب.دارصادر، بيروت، ط1 ، 1412هـ 1992م.

93- الكـــفوي، أيوب بن موسى.الكليات معجم في المصطلحات والفروقاللغوية.تحقيق :عدنان دروسي ومحمد المصري، مؤسّسة الرسالة، بيروت. ط 2 ؛1432هـ، 1993م

* رابعا : الرسائل الجامعية .

94ـ الرومي،فهد بن عبد الرّحمان بن سليمان. اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر هجري. رسالة دكتوراه (مخطوط)، جامعة أم القرى؛ 1404هـ.

*خامسا : المجلات .

مجلة عالم الفكر، الكويت:

95 _ العدد2؛ 2002م .

مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية الكويت:

96 _ العدد 37 ؛ ذوالحجة 1419هـ - 1999م .

97_ العدد 22؛ أكتوبر2011م.

حولية كليّ الشريعه والقانون والدّراسات الإسلامية، جامعة قطر:

98–العدد19 ؛ 1424هـ.

*سادسا:المواقع الإلكترونية .

99–"قراءة في ضوابط التّاويل وأبعادها المنهجيّة في الدراسات القرآنية المعاصرة".د:رقية طه جابر العلواني بحث قدم في(ندوة دراسة التّطوّرات الحديثة في الدّراسات القرآنية المعاصرة)،بيروت؛ 11_12 شباط،2006م،ص: 04 .

100 - "الوحدة النسقية في السّورة القرآنية":أحمد بزوي الضاوي، أستاذ التعليم العالي، جامعة شعيب الدكالي الجديدة، المغرب،(د، تا).

101 _"نظرات في القراءة المعاصرة للقرآن الكريم في دول المغرب العربي".أ.د:محمد بن زين العابدين رستم.جامعة شعيب الدكالي،المغرب؛(بحث مقدم لمؤتمر القراءة للقرآن الكريم) 2011م.

تاريخ الاطلاع : موقع غوغل تاريخ الإطلاع يوم: 2012/01/12.

فهرسة الموضوعات

الموضوع	الصفحة
- البسملة . **- الإهداء .**	/ /
– مقدمة.....	أ.....و
– مدخل : تعامل سيد قطب مع القرآن الكريم.	16....2
– الفصل الأوَّل: القراءة الفنّية الجمالية.	**61.....18**
– المبحث الأوَّل : القرآن والفن.	**30....18**
أ– التّوجيه الجمالي في القرآن الكريم ..... ب– المزاوجة بين الغرض الدّيني والغرض الفنّي....	**24....20** **30....24**
– المبحث الثَّاني : بين اللغة والمشهد.	**47....31**
أ– مصطلحات النّحو والبلاغة ..... ب– دلالات الألفاظ.....	**42....37** **47.....42**
– المبحث الثَّالث:من آفاق التّصوير .	**61.....48**
أ– مشاهد اليوم الآخر في القرآن الكريم. ..... ب– مشاهد الطّبيعة في القرآن الكريم	**56.....51** **61.....56**
– الفصل الثاني : القراءة الفكرية الحركية.	**108.....63**

– المبحث الأوَّل : من مقاصد القرآن الكريم .	**89....68**
أ– بيان حقيقة العقيدة	**81.....68**
ب– قراءة السّنن الرّبّانية	**89....81**
– المبحث الثاني : النّظرة الكلّية للقرآن الكريم.	**108.....90**
أ– الوحدة الموضوعية للسوّر القرآنية.....	**101.....92**
ب– دفع التّعارض الموهوم.....	**108.....101**
– الفصل الثَّالث :القراءة الإعجازية.	**145.....110**
– المبحث الأوَّل : الإعجاز البياني	**132....116**
أ– ظاهرة التّشابه والـــتّنويع	**124....116**
ب – الإعجاز في الأداء القرآني	**132....125**
– المبحث الثَّاني : أنواع أخرى من الإعجاز.	**145....133**
أ – الإعجاز التّربوي.....	**140....134**
ب–الإعجاز التّشريعي	**145....140**
– خاتمـــــة .	**148....147**
– الفهارس الفنّية العامّة.	**166....150**
أ– فهرسة الآيات القرآنية	**156..150**
ب – فهرسة الأحاديث النّبوية	**157**
ت – فهرسة المصادر والمراجع	**164...158**
ث– فهرسة الموضوعات	**166....165**